الوزير عبد الله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد وحشي العرب وزناتة، فأيقن أبو الليل بالغلب

وبذل له الوزير المال، وشرط له التجافي عن وطنه على أن يرجع عن طاعة أبي زيان ففعل، وانصرف إلى بجاية، ونزل على المولى أبي إسحاق ابن مولانا السلطان أبي يحيى أكرم نزل. ثم وقعت المراسلة بينه وبين السلطان أبي حمو، وتمت المهادنة، وانعقد السلم على إقصاء أبي زيان عن بجاية المتاخمة لوطنه، فارتحل إلى حضرة تونس. وتلقاه الحاجب أبو محمد بن تافراكين، قيوم دولة الحفصيين لذلك لعهد، من المبرة والترحيب وإسناء الجراية به وترفيع المنزلة بما لم يعهد بمثله من الأعياص. ولم يزل حاله على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم أبي زيان حافد السلطان أبي تاشفين ثانية من المغرب إلى تلمسان لطلب ملكها وما كان من أحواله:

كان العرب من سويد إحدى بطون زغبة فيئة لبني مرين وشيعة، من عهد أميرهم عريف بن يحيى، مع السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان، فكانوا عند بني عبد الواد في عداد عدوهم من بني مرين، مع طاغية الدولة لبني عامر أقتالهم، فكانوا منابذين لبني عبد الواد آخر الأيام. وكان كبيرهم ونزمار بن عريف أوطن كرسيف، في جوار بني مرين، مذ مهلك السلطان أبي عنان، وكان مرموقاً لديهم بعين التجلة، يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى قوله. وأهمه شأن إخوانه في موطنهم، ومع أقتالهم، بني عامر، فاعتزم على نقض الدولة من قواعدها، وحمل صاحب المغرب عمر بن عبد الله على أن يسرح محمد بن عثمان حافد أبي تاشفين لمعاودة الطلب لملكه، ووافق ذلك نفرة استحكمت بين السلطان أبي حمّو وأحمد بن رحو بن غانم، كبير أولاد حسين من المعقل، بعد أن كانوا فيئة له ولوزيره عبد الله بن مسلم، فاغتنمها عمر بن عبد الله. وخرج أبو زيان محمد بن عثمان سنة خمس وستين، فنزل في حلل المعقل بملوية. ثم نهضوا إلى وطن تلمسان، وارتاب السلطان أبو حمّو بخالد بن عمر أمير بني عامر، فتقبّضعليه وأودعه المطبق. ثم سرح وزيره عبد الله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد

والعرب، فأحسن دفاعهم وانفضّت جموعهم ورحلهم إلى ناحية الشرق، وهو في أتباعهم إلى أن نزلوا المسيلة من وطن رياح، وصاروا في جوار الزواودة. ثم نزل بالوزير عبد الله بن مسلم داء الطاعون، الذي عاود أهل العمران عامئذ من بعدما أهلكهم سنة سبع وأربعين وسبعمائة قبلها، فانكفأ به ولده وعشيره راجعين، وهلك في طريقه وأرسلوا شلوه إلى تلمسان فدفن بها. وخرج السلطان أبو حمّو لمدافعة عدوّه، وقد فتّ مهلك عبد الله في عضده. ولما انتهى إلى البطحاء وعسكر بها، ناجزته جموع السلطان أبي زيان الحرب، وأطلت راياته على المعسكر فداخلهم العرب وانفضوا، وأعجلهم الأمر عن أبنيتهم وأزودتهم فتركوها وانفضّوا. وتسلّل أبو حمّو يبغي النجاة إلى تلمسان. وأضرب أبو زيّان فسطاطه بمكان معسكره، وسابقه أحمد بن رحّو أمير المعقل إلى منجاته فلحقه بسيك. وكرّ إليه السلطان أبو حمّو فيمن معه من خاصّته، وصدقوه الدفاع فكبا به فرسه، وقطع رأسه. ولحق السلطان أبو حمّو بحضرته، وارتحل أبو زيان، والعرب في أتباعه إلى أن نازلوا بتلمسان أياماً. وحدثت المنافسة بين المعقل وزغبة، وأسف زغبة استبداد المعقل عليهم وانفراد أولاد حسين برأي السلطان دونهم، فاغتنمها أبو حمّو وأطلق أميرهم بن عامر بن خالد من محبسه، وأخذ عليه الموثق من الله ليخذلنّ الناس عنه ما استطاع، وليرجعنّ بقومه عن طاعة أبى زيّان، وليفرقنّ جموعه. فوفّى له بذلك، ونفس عنه المخنق، وتفرّقت أحزابهم. ورجع أبو زيّان إلى مكانه من إيالة بني مرين، واستقام أمر السلطان أبي حمّو وصلحت دولته بعد الالتياث، إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن حركة أبي حمّو علي ثغور المغرب:

كان ونزمار من عريف متولي كبر هذه الفتن على أبي حمو، وبعث الأعياص عليه واحداً بعد واحد، بما كان بينهم من العداوة المتصلة كما قدّمناه. وكان منزله كرسيف من ثغور المغرب. وكان جاره محمد بن زكدان كبير بني علي من بني ونكاسن

الموطنين بجبل دبدو، كانت أيديهما عليه واحدة. فلما سكن غّرب الثوار عنه، وأزاحهم عن وطنه إلى المغرب، وانعقد سلمه معهم، رأى أن يغزو هذين الأميرين في ثغورهما، فاعتمل الحركة إلى المغرب فاتح سنة ست وستين وسبعمائة. وانتهى إلى دبدو وكرسيف. وأجفل ونزمار، وامتنع بمعاقل الجبال، فانتهب أبو حمّو الزروع وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي. وقصد محمد من زكدان أيضاً في معقل دبدو، فامتنع بحصنه الذي اتخذه هنالك. وعاج عليه أبو حمّو بركابه، وجاس خلال وطنه، وشمل بالتخريب والعيث نواحي بلده، وانكفأ راجعاً إلى حضرته، وقد عظمت في تخوم بني مرين وثغورهم نكايته، وثقلت عليهم وطأته، وانعقدت بينهما بدء المهادنة والسلم. وانصرفت عزائمه إلى بلاد أفريقية، فكانت حركته إلى بجاية من العام المقبل، ونكبته عليها كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة السلطان أبي حمّو إلي بجاية ونكبته عليها:

كان صاحب بجاية المولى الأمير أبو عبد الله، لما استولى عليها، وعادت إليه العودة الثانية سنة خمس وستين وسبعمائة كما ذكرناه في أخباره، زحف بعدها إلى تدلس، فغلب عليها بني عبد الواد، وأنزل بها عامله وحاميته. ثم أظلم الجوّ بينه وبين صاحب قسنطينة السلطان أبي العبّاس ابن عمّه الأمير أبي عبد الله، لما جرّته بينهم المتاخمة في العمالات، فنشأت بينهما فتن وحروب شغل بها عن حماية تدلس، وألحت عليها عساكر بني عبد الواد بالحصار. وأحيط بها فأوفد رسله على السلطان أبي حمّو صاحب تلمسان في المهادنة على النزول له عن تدلس، فتسلّمها أبو حمّو وأنزل بها حاميته. وعقد معه السلم، وأصهر إليه في ابنته، فأجابه وزفّها إليه، فتلقّاها قبيلة زوارة بآخر عملهم من حدود بجاية. وفرغ صاحب بجاية لشأنه، وكان أثناء الفتنة معه، قد بعث إلى تونس عن أبي زيان ابن عمّه السلطان أبي سعيد لينزله بتدلس، ويشغل به السلطان أبا حمّو عن فتنته.

وكان من خبر أبي زيان هذا أنه أقام بتونس بعد مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه، إلى أن دسّ إليه مرضى القلوب من مشيخة بني عبد الواد

بتلمسان بالأجلاب على السلطان أبي حمو. ووعدوه من أنفسهم الجنوح معه فصغى إليها وأعتدّها، وارتحل يريد تخوم تلمسان وعمل بجاية. ومرّ بقُسَطِنطينَة فتجافى عن الدخول اليها، وتنكّر لصاحبها. وبلغ خبره السلطان أبا العبّاس صاحبها يومئذ، فأجمع أمره في صدّه عن وجهه وحبسه بقسنطينة، واتصلت الفتنة بينه وبين ابن عمه صاحب بجاية. وكان شديد الوطأة على أهل بلده، مرهف الحدّ لهم بالعقاب الشديد، حتى لقد ضرب أعناق خمسين منهم قبل أن يستكمل سنتين في ملكه. فاستحكمت النفرة وساءت الملكة، وعضل الداء، وفزع أهل البلد إلى مداخلة السلطان أبي العبّاس باستنقاذهم من ملكة العسف والهلاك، بما كان اتيح له من الظهور على أميرهم، فنهض إليها آخر سنة سبع وستين وسبعمائة. وبرز الأمير أبو عبد الله للقائه بليزو، الجل المطل على تاكردت. وصبحه السلطان أبو العبّاس بمعسكره هنالك، فاستولى عليه وركّض وهو فرسه ناجياً بنفسه ومرّت الجنود تعادي في أثره حتى أدركوه، فأحاطوا به وقتلوه قعصاً بالرماح، عفا الله عنه وأجاز السلطان أبو العبّاس إلى البلد، فدخلها منتصف يومه لعشرين من شعبان ولاذ الناس به من دهش الواقعة، وتمسّكوا بدعوته وآتوه طاعتهم. فانجلت القيامة واستقام الأمر، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو، فأظهر الامتعاض لمهلكه والقيام بثأره وسير من ذلك حشوده في ارتقاء. ونهض يجرّ الأمم إلى بجاية من العرب وزناتة والحشد حتى أناخ بها وملأ بخيامه الجهات بساحتها، وجنح السلطان إلى مبارزته، فتمسك به البلد ولاذوا بمقامه، فأسعفهم وطير البريد إنى قسنطينة، فأطلق أبا زيان من عتقا وسوغه الملابس والمراكب والالة. وزحف به مولاه بشير في عسكره إلى أن نز حد معسكر أبي حمو. واضطربوا محلهم بسفح بني عبد الجبار، وشنوا الغارات على معسكر أبي حمّو صباح مساء، لما كان نمي إليهم من مرض قلوب جنده والعرب الذين معه. وبدا للسلطان أبي حمّو ما لم يحتسب من امتناعها. وكان قد تقدم إليه بعض سماسرة الفتن بوعد على لسان المشيخة من أهل البلد أطمعه فيها، ووثق بأن ذلك يغنيه عن الاعتداء، فاستبق إليها وأغفل الحزم فيما دونها. فلما امتنعت عليه

أطبق الجو على معسكره، وفسدت السابلة على العير للميرة، واستحكم الزبون في أحياء معسكر بظهور العدو المساهم في الملك. وتفادت رجالات العرب سوء المغبة وسطوة السلطان فتمشوا بينهم في الانفضاض وتحينوا لذلك وقت المناوشة، وكان السلطان لما كذبه عد المشيخة أجمع قتالهم وأمر بضرب الفساطيط مضايقة للأسوار، متسنمة وعراً من جبل يرضه أهل الرأي. وخرج رجل الجبل على حين غفلة، فتجاولوا من كان بتلك الأخبية من المقاتلة، فانهزموا أمامهم وتركوها بأيديهم فمزقوها بالسيوف. وعاين العرب على للبعد انتهاب الفساطيط فأجفلوا، وانفض المعسكر بأجمعه. وحمل السلطان أبو حمّو- أثقاله للرحلة، فأجهضوه عنها فتركها، وانتهب مخلفه أجمع. وتصايح الناس بهم من حدب، وضاقت المسالك من ورائهم وأمامهم، وكظت بزحامهم، وتواقعوا لجنوبهم فهلك الكثير منهم، وكانت من غرائب الواقعات، تحدث الناس بها زماناً وسيقت حظاياه إلى بجاية، واستأثر منهن الأمير أبو زيان بحظيته الشهيرة ابنة يحي الزابى ينسب إلى عبد المؤمن بن علي.وكان أصهر فيها إلى أبيها أيام تقلبه في الاغتراب ببلاد الموحّدين كما سبق، وكانت أعلق بقلبه من سواها، فخرجت في مغانم الأمير أبي زيان. وتحرج عن مواقعتها حتى أوجده أهل الفتيا السبيل إلى ذلك، بحيث زعموا وقع من السلطان أبي حمّو في نسائه. وخلص السلطان أبو حمّو من هوة ذلك العطب بعد غصة الريق، ونجا إلى الجزائر لا يكاد يرد النفس من شناعة ذلك الهول. ثم خرج منها ولحق بتلمسان، واقتعد سرير ملكه. واشتدت شوكة أبى زيان ابن عمه، وتغلب على القاصية، واجتمعت إليه العرب، وكثر تابعه. وزاحم السلطان أبا حمّو بتلك الناحية الشرقية سنين تباعاً نذكر الآن أخبارها.

الخبر عن خروج أبي زيان بالقاصية الشرقية من بلاد حصين وتغلبه على المرية والجزائر ومليانة وما كان من الحروب معه:

لما انهزم السلطان أبو حمّو بساحة بجاية عشي يومه من أوائل ذي الحجة،

خاتم

سبع وستين وسبعمائة، قرع الأمير أبو زيان طبوله، واتبع أثره، وانتهى إلى بلاد حصين

من زغبة. وكانوا سائمين من الهضيمة والعسف، إذ كانت الدول تجريهم مجرى الرعايا المعبدة في المغرم، وتعدل بهم عن سبيل إخوانهم من زغبة أمامهم ووراءهم لبغية، فارتكبوا صعب الشقاق لمغبة العز، فبايعوه على الموت الأحمر، ووقفوا بمعتصمهم من جبل تيطرى إلى أن دهمتهم عساكر السلطان. ثم أجلبوا على المدية وكان بها عسكر ضخم للسلطان أبي حمّو لنظر وزرائه: عمران بن موسى بن يوسف، وموسى بن برغوث ووادفل بن عبو بن حماد، ونازلوهم أياماً، ثم غلبوهم على البلد. وملكها الأمير أبو زيان، ومن على الوزراء ومشيخة بني عبد الواد، وترك سبيلهم إلى سلطانهم. وسلك الثعالبه في سبيل خصين في التجافي عن ذل المغرم، فأعطوه يد الطاعة والانقياد للأمير أبي زيان. وكانت في نفوس أهل الجزائر نفرة من جور العمال عليهم، فاستمالهم بها سالم بن إبراهيم بن نصر أمير الثعالبة إلى طاعة الأمير أبي زيان. ثم دعا أبو زيان أهل مليانة إلى مثلها فأجابوه. واعتمل السلطان أبو حمّو نظره في الحكرة الحاسمة لرأيهم، فبعث في العرب وبذل المال، وأقطع البلاد على اشتطاط منهم في الطلب. وتحرك إلى بلاد توجين، ونزل قلعة ابن سلامة سنة ثمان وستين وسبعمائة، يحاول طاعة أبي بكر بن عريف أمير سويد. فلم يلبث أن انحرف عنه أيضاً خالد بن عامر، ولحق بأبي بكر بن عريف، واجتمعا على الخلاف عليه، ونفض طاعته. وشنوا الغارة على معسكره، فاضطرب وأجفلوا وانتهبت محلاته وأثقاله، ورجع إلى تلمسان. ثم نهض إلى مليانة فافتتحها، وبعث إلى رياح على حين طاعتهم إليه من يعقوب بن علي بن أحمد وعثمان بن يوسف بن سليمان بن علي أميري الزواودة، لما كان وقع بيهما وبين السلطان مولانا أبي العبّاس من النفرة، فاستنظره للحركة على الأمير أبي زيان وبعدها إلى بجاية. وضمنوا له طاعة البدو من رياح، وبعثوا إليه ذمتهم على ذلك فردها وثوقاً بهم، ونهض من تلمسان، وقد اجتمع إليه الكثير من عرب زغبة. ولم يزل أولاد عريف بن يحيى وخالد بن عامر في أحيائهم منحرفين عنه بالصحراء. وصمم إليهم فأجفلوا أمامه، وقصد المخالفين من حصين والأمير أبي زيان إلى معتصمهم بجبل تيطرى.

وأغذ إليه السير يعقوب بن علي وعثمان بن يوسف بمن معهم من جموع رياح، حتى نزلوا بالقلعة حذاءهم. وبادر أولاد عريف وخالد بن عمر إلى الزواودة ليشردوهم عن البلاد، قبل أن تتصل يد السلطان بيدهم، فصبحوهم يوم الخميس أخريات ذي القعدة من سنة تسع وستين وسبعمائة، ودارت بينهم حرب شديدة، وأجفل الزواودة أولاً، ثم كان الظهور لهم آخراً. وقتل في المعركة من زغبة عدد ويئسوا من صدهم عما جاؤا إليه، فانعطفوا إلى حصين والأمير أبي زيان، وصعدوا إليهم بناجعتهم، وصاروا لهم مدداً على السلطان أبي حمو، وشنوا الغارة على معسكره، فصمدوا نحوه وصدقوه القتال، فاختل مصافه، وانهزمت عساكره، ونجا بنفسه إلى تلمسان على طريق الصحراء. وأجفل الزواودة إلى وطنهم، وتحيز عامة العرب من زغبة إلى الأمير أبي زيان، واتبع آثار المنهزمين، ونزل بسيرات. وخرج السلطان أبو حمّو في قومه ومن بقي معه من بني عامر. وتقدم خالد إلى مصادمته ففله السلطان وأجفل القوم من ورائه. ثم تلطف في مراسلته وبذل له المال، وأوسع له في الاشتراط فنزع إليه والتبس بخدمته. ورجع الأمير أبو زيان إلى أوليائه من حصين متمسكاً بولاية أولاد عريف. ثم نزع محمد بن عريف إلى طاعة السلطان. وضمن له العدول بأخيه عن مذاهب الخلاف عليه، وطال سعيه في ذلك فاتهمه السلطان. وحمله خالد بن عامر عدوه على نكبته، فتقبّضعليه وأودعه السجن. واستحكمت نفرة أخيه أبي بكر، ونهض السلطان بقومه وكافة بني عامر إليه سنة سبعين وسبعمائة. واستغلظ أمر أبي بكر لجموع الحارث من بني مالك ومن

وراءهم من حصين، واعتصموا بالجبال من دراك وتيطرى. ونزل السلطان بجموعه لعود بلاد الديالمة من الحرث، فانتسفها والتهمها وحطم زروعها ونهب مداثرها. وامتنع عليه أبو بكر ومن معه من الحرث وحصين والأمير أبي زيان بينهم، فارتحل عنهم وعطف على بلاد أولاد عريف وقومهم من سويد، فملأها عيثاً. وخرب قلعة ابن سلامة، بما كان أحسن أوطانهم. ورجع إلى تلمسان وهو يرى إن كان قد شفا نفسه في أولاد عريف، وغلبهم على أوطانهم، ورفع عليهم منزلة عدوهم، فكان من لحاق أبي بكر بالمغرب، وحركة بني مرين ما نذكره.

الخبر عن حركة السلطان عبد العزيز علي تلمسان واستيلائه عليها ونكبة أبي حمّو وبني عامر بالدوس من بلاد الزاب وخروج أبي زيان من تيطري إلى أحياء رياح:

ولما تقبض أبو حمّو على محمد بن عريف، وفرق شمل قومه سويد، وعاث في بلادهم أجمع؟ رأى أخوه الأكبر أبو بكر على الصريخ بملك المغرب، فارتحل إليه بناجعته من بني مالك أجمع من أحياء سويد والديالم والعطاف، حتى احتل بسائط ملوية من تخوم المغرب. وسار إلى أخيه الأكبر ونزمار بمقره من قصر مراده الذي اختطه بإرجاع وادي ملوية في ظل دولة بني مرين وتحت جوارهم، لما كان ملاك أمرهم بيده، ومصادرهم عن آرائه، خطة ورثها عن أليه عريف بن يحيى مع السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن وابنه أبي عنان. فتقبل ملوك المغرب مذاهب سلفهم فيه، وتمنوا برأيه، واستناموا إلى نصيحته. فلما قدم عليه أخوه أبو بكر مستحفياً بملك المغرب، وأخبره باعتقال أخيه الأخر محمد، قدح عزائمه، وأوفد أخاه أبا بكر ومشيخة قومهم من بني مالك على السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن منصرفه من افتتاح جبل هتاتة، وظفره بعامر بن محمد بن علي النازع إلى الشقاق في معتصمه، فلقوه في طريقه ولقاهم مبرة وتكرمة. واستصرخوه لاستنقاذ أخيهم فأجاب صريخهم، ورغبوه في ملك تلمسان وما وراءها، فوافق صاغيته إلى ذلك بما كان في نفسه من الموجدة على السلطان أبي حمو، بقبوله على من ينزع إليه من عربان المعقل، أشياع الدولة وبدوها، وما كان بعث إليه في ذلك، وصرف عن استماعه، فاعتزم على الحركة إلى تلمسان؟ وألقى زمامه بيد ونزمار، وعسكر بساحة فاس. وبعث الحاشرين في الثغور والنواحي من المغرب، فتوافت الحشود ببابه، وارتحل بعد قضاء النسك من الأضحى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة. واتصل الخبر بالسلطان أبي حمّو وكان معسكراً بالبطحاء، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان فبعث في أوليائه من عبيد الله والأحلاف من عرب المعقل، فصموا عن إجابته ونزعوا إلى ملك المغرب، فأجمع رأيه على التحيز إلى بني عامر، وأجفل غرة المحرم سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة. واحتل السلطان عبد العزيز تلمسان في يوم عاشوراء بعدها. وأشار ونزمار عريف بتسريح العساكر في اتباعه، فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن

غازي بن الكاس حتى انتهى إلى البطحاء. ثم لحق به هناك ونزمار، وقد حشد العرب كافة، وأغذ السير في اتباع السلطان أبي حمّو وبني عامر. وكانوا قد أبعدوا المذهب، ونزلوا على الزواودة وسرح إليهم السلطان يومئذ عبد العزيز يحملهم على طاعته، والعدول بهم عن صحا بني عامر وسلطانهم. وسرح فرج بن عيسى بن عريف إلى حصين لاقتضاء طاعتهم واستدعاء أبي زيان إلى حضرته، أو نبذهم عهده، وانتهينا جميعاً إلى بني زيان، ففارقه أوليائه ولحق بأولاد يحيى بن عليّ بن سباع من الزواودة. وانتهيت أنا إليهم فحفظت عليهم الشأن في جواره لما كانت مرضاة السلطان، وحذرتهم شأن أبي حمّو وبني عامر وأوفدت مشيختهم على ونزمار والوزير أبي بكر بن غازي فدلوهما على طريقه، وأغذ السير بيتوهم بمنزلهم على الدوسن، آخر عمل الزاب من جانب المغرب ففضوا جموعهم، وانتهوا جميع معسكر السلطان أبي حمّو بأمواله وأمتعته وظهره. ولحق بمصاب، ورجعت العساكر من هنالك، فسلكت على قصور بني عامر بالصحراء

جبل راشد التي منها ربا ولون سمعون وما إليهما، فانتهبوها وخربوها وعاثوا فيها، وانكفوا راجعين إلى تلمسان. وفرق السلطان عماله في بلاد المغرب الأوسط من وهران وملما والجزائر والمدية وجبل وانشريش. واستوسق به ملكه، وانزاح عنه عدوه. ولم يبقى به يومئذ إلا ضرمة من نار الفتنة ببلاد مغراوة بوعد من ولد عليّ بن راشد، سخط خالد الديوان، ولحق بجبل بني سعيد. واعتصم به فجمر السلطان الكتائب لحصاره، ووزيره عمر بن مسعود لذلك كما ذكرناه في أخبار مغراوة واحتقر شأنه. وأوفدت أنا

يومئذ مشيخة الزواودة، فأوسعهم حباءً وكرامةً، وصدروا مملوءة حقائبهم خالصة قلوبهم منطلقة بالشكر ألسنتهم. واستمر الحال إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان إلى تيطري وأجلاب أبي حمّو على تلمسان ثم انهزامهما وتشريدهما علي سائر النواحي:

كان بنو عامر بن زغبة شيعة خالصة لبني عبد الواد مذ أول أمرهم، وخلص سويد

لبني مرين كما قدمناه، فكان من شأن عريف وبنيه عند السلطان أبي الحسن وبنيه ما هو معروف. فلما استبيحت أحياؤهم بالدوسن مع أبي حمو، ذهبوا في القفر إشفاقاً ويأساً من قبول بني مرين عليهم لما كان ونزمار بن عريف وإخوانه من الدولة، فحدثوا على سلطانهم أبي حمّو يتقلبون معه في القفار. ثم نزع إليهم رحو بن منصور فيمن طاعه من قومه عبيد الله من المعقل. وأجلبوا على وجدة فاضطرم للنفاق على الدولة ناراً، وخشي حصين مغبة أمرهم من السلطان بما اتسموا به من الشقاق والعناد، فمدوا أيديهم إلى سلطانهم أبي زيان، وأوفدوا مشيختهم لاستدعائه من حلة أولاد يحيى بن علي فاحتل بينهم، وأجلبوا له على المدية فملكوا نواحيها، وامتنع عليهم مصرها، واستمر الحال على ذلك. واضطرب المغرب الأوسط على السلطان، وانتقضت به طاعته. وسرح الجيوش والعساكر إلى قتال مغراوة وحصين، واجتمع مع أبو حمّو وبنو عامر على قصده بتلمسان، حتى إذا احتلوا قريباً منها دس السلطان عبد العزيز بعض شيعته إلى خالد بن عامر ورغبه في المال والحظ منه، وكان أبو حمّو قد آسفه بمخالطة بعض عشيره وتعقب رأيه برأي من لم يسم إلى خطته. ولم يرتض كفاءته، فجنح إلى ملك المغرب، ونزع يده من عهد أبي حمو. وسرح السلطان عبد العزيز عسكره إلى خالد، فأوقع بأبي حمّو ومن كان معه من العرب عبيد الله وبني عامر، وانتهب معسكره وأمواله، واحتقبت حرمه وحظاياه إلى قصر السلطان. وتقبض على مولاه عطية فمن عليه السلطان وأصاره في حاشيته، ونجا بنفسه إلى تيكورارين آخر بلاد الصحراء، فنزل بها منفرداً عن أهله وحاشيته ووزرائه. وأصفقت زناتة على خدمة ملك المغرب. ووافق هذا الفتح عند السلطان فتح بلاد مغراوة، وتغلب وزيره أبي بكر بن غازي على جبل بني بو سعيد، وتقبض على حمزة بن علي بن راشد في لمة من أصحابه، فضرب أعناقهم وبعث بها إلى سدة السلطان، وصلب أشلاءهم بساحة مليانة،

فتظاهر الفتح واكتمل الظهور. وأوعز السلطان إلى وزيره أبي بكر بن غازي بالنهوض إلى

حصين، فنهض إليهم وخاطبني وأنا مقيم ببسكرة في دعايته بأن احتشد أولياءه من الزواودة ورياح، والتقى الوزير والعساكر على حصين تيطرى فنازلناه أشهراً. ثم انفض جموعهم وفروا من حصنهم وتمزقوا كل ممزق، وذهب أبو زيان على وجهه، ولحق ببلاد واركلي قبلة الزاب لبعدها عن منال الجيوش والعساكر، فأجاروه وأكرموا نزله. وضرب الوزير على قبائل حصين والثعالبة المغارم الثقيلة فأعطوها عن يد وجهضهم باقتضائها، ودوخ قاصية الثغور، ورجع إلى تلمسان عالي الكعب عزيز السلطان ظاهر اليد. وقعد له السلطان بمجلسه يوم وصوله قعوداً فخماً، وصل فيه إليه، وأوصل من صحبه من وفود العرب والقبائل، فقسم فيهم بره وعنايته وقبوله كل على شاكلته. واقتضى من أمراء العرب زغبة أبناءهم الأعزة رهناً على الطاعة. وسرحهم لغزو أبي حمّو بمنتبذه من تيكورارين فانطلقوا لذلك. وهلك السلطان عبد العزيز لليال قلائل من مقدم وزيره وعساكره أواخر شهر ربيع الآخر من سنة أربع وسبعين وسبعمائة، لمرض مزمن كان يتفادى بالكتمان والصبر من ظهوره. وانكفأ بنو مرين راجعين إلى ممالكهم بالمغرب بعد أن بايعوا لولده دارجاً خماسياً، ولقبوه بالسعيد، وجعلوا أمره إلى أبي بكر بن غازي، فملك أمرهم عليهم. واستمر حاله كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن عودة ا لسلطان أبي حمّو الأخير إلى تلمسان الكرة الثالثة لبني عبد الواد في الملك: لما هلك السلطان عبد العزيز، ورجع بنو مرين إلى المغرب، نصبوا من أعياص

بني يغمراسن لمدافعة أبي حمّو من بعدهم عن تلمسان، إبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين، كان ناشئاً بدولتهم منذ مهلك أبيه. وتسلل من جملتهم عطية بن موسى مولى السلطان أبي حمو، وخالفهم إلى البلد غداة رحيلهم، فقام بدعوة مولاه. ودافع إبراهيم بن تاشفين عن مرامه، وبلغ الخبر إلى أولياء السلطان أبي حمّو من عرب المعقل أولاد يغمور بن عبيد الله، فطيروا إليه النحيب على حين غلب عليه اليأس. وأجمع الرحلة إلى بلاد السودان لما بلغه من اجتماع العرب للحركة عليه كما قلناه، فأغذ السير

من مطرح اغترابه. وسابقه إبنه، ولي عهده في قومه عبد الرحمن أبو تاشفين، مع ظهيرهم عبدالله بن صغير فدخلوا إلى البلد. وتلاهم السلطان لرابعة من دخولهم، وعاود سلطانه واقتعد أريكته، وكانت إحدى الغرائب. وتقبض ساعتئذ على وزرائه، اتهمهم بمداخلة خالد بن عامر فيما نقض من عهده وظاهر عليه عدوه؟ فأودعهم السجن وذبحهم ليومهم حنقاً عليهم. واستحكمت لها نفرة خالد وعشيره، وخلصت ولاية أولاد عريف بن يحيى لمنافرة بني عامر إياه، إقبال السلطان عبد العزيز عليه. ووثق بمكان ونزمار كبيرهم في تسكين عادية ملوك العرب عنه، ورجع إلى تمهيد وطنه. وكان بنو مرين عند انفضاضهم إلى مغربهم قد نصبوا من أقيال مغراوة، ثم من بني منديل علي ين هارون بن ثابت بن منديل، وبعثوه إلى شلف مزاحمة للسلطان أبي حمو، ونقضاً لأطراف ملكه. وأجلب أبو زيان ابن عمه على بلاد حصين، فكان من خبره معهما ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن رجوع أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد إلى بلاد حصين ثم خروجه عنها:

كان الأمير أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد، لما هلك السلطان عبد العزيز، وبلغه

الخبر بمنجاته من واركلا، نهض منها إلى التلول، وأسف إلى الناحية. التي كان منتزياً بها ومساهماً لأبي حمّو فيها، فاقتطعها لدعوته كما كانت. ورجع أهلها إلى ما عرفوا من طاعته، فنهض السلطان أبو حمّو إلى لتمهيد نواحيه وتثقيف أطراف ملكه، ودفع الخوارج عن ممالكه، وظاهره على ذلك أمير البدو من زغبة أبو بكر ومحمد إبنا عريف بن يحيى. دس إليهما بذلك كبيرهما ونزمار، وأخذهما بمناصحة السلطان ومخالصته، فركبا من ذلك أوضح طريق وأسهر مركب. ونبذ السلطان العهد إلى خالد وعشيره، فضاقت عليهم الأرض ولحقوا بالمغرب لسابقة نزوعهم إلى السلطان عبد العزيز. وابتدأ السلطان بما بليه، فأزعج بمظاهرتهما علي بن هارون عن أرض شلف سنة خمس وسبعين وزسبعمائة بعد حروب هلك في بعضها أخوه رحمون بن

هارون. وخلص إلى بجاية، فركب منها السفن إلى المغرب، ثم تخطى السلطان أبو حمّو إلى ما وراء شلف. وسفر محمد بن عريف بينه وبين إبن عمه، بعد أن نزع إليه الكثير من أوليائه حصين والثعالبة، بما بذل لهم من المال، وبما سيموا من طول الفنة، فشارطه على الخروج من وطنه إلى جيرانهم من رياح على أتاوة تحمل إليه، فقبل ووضع أوزار الحرب وفارق مكان ثورته. وكان لمحمد بن عريف فيها أثر محمود، واستألف سالم بن إبراهيم كبير الثعالبة المتغلب على بسيط منبجة وبلد الجزائر، بعد أن كان خب في الفتنة وأوضع، فاقتضى له من السلطان عهده من الأمان والولاية على قومه وعمله. وقلد السلطان أبناءه ثغور أعماله، فأنزل ابنه بالجزائر لنظر سالم بن إبراهيم من تحت استبداده، وابنه أبا زيان بالمدية. وانقلب السلطان إلى حضرته بتلمسان بعد أن دوخ قاصيته، وثقف أطراف عمله، وأصلح قلوب أوليائه، واستألف شيعة عدوه، فكان فتحاً لا كفاء له من بعد ما خلع من ربقة الملك، ونزع من لبوس السلطان. فانتبذ عن قومه وممالكه إلى قاصية الأرض، ونزل في جوار من لا ينفذ امره، ولا يقوم بطاعته. والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

الخبر عن أجلاب عبد الله بن صغير وانتقاض أبي بكر بن عريف وبيعتهما للأمير أبي زيان ورجوع أبي بكر إلي الطاعة:

كان خالد بن عامر، وعبد الله ابن أخيه صغير، وسائر إخوانهم من ولد عامر بن إبراهيم، لحقوا بالمغرب صرخى ببني مرين لما وقع بينهم وبين أبي حمّو من الفعلة التي فعل خالد معه. ويئس عبد الله بن صغير من صريخهم، بما عقد ونزمار بن عريف من السلم بين صاحب المغرب وصاحب تلمسان، فخاض القفر بمن معه من قومه، ولحق بوطن زغبة، وأجلب على جبل راشد، وبه العمور أحلاف سويد من بني هلال. فاعترضتهم سويد، ودارت بينهم حرب شديدة، كان الظهور فيها لسويد عليهم. وفي خلال ذلك، فسد بين السلطان وبين أبي بكر بن عريف بسبب صاحب جبل

وانشريس يوسف بن عامر بن عثمان، أراده السلطان على النزول عن عمله، فغضب له أبو بكر لقديم الصداقة بين سلفهما، ووصل يده بعبد الله بن صغير بعد الواقعة. ودعاه إلى بيعة أبي زيان فأجابه، وأوفدوا رجالاتهم عليه بمكانه من مجالات رياح، فوصل معهم ونصبوه للأمر، وتحيز محمد بن عريف إلى السلطان في جموع سويد. ونهض السلطان من تلمسان فاتح سنة سبع وسبعين وسبعمائة فيمن معه من قبائل بني عبد الواد وعرب المعقل وزغبة، ودس إلى أولياء أبي زيان يرغبهم في المواعد. وحكم أبا بكر في الاشتراط عليه، ففاء إلى الطاعة والمخالصة. ورجع أبو زيان إلى مكانه من حلك الزواودة، وأغذ السلطان السير إلى حضرته فتملى أريكته، وحدث بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول خالد بن عامر من المغرب والحرب التي دارت بينه وبين سويد وأبي تاشفين هلك فيها عبد الله بن صغير وإخوانه:

لما بلغ خالد بن عامر بمكانه من المغرب خبر عبد الله ابن أخيه صغير، قفل من المغرب يئساً من مظاهرة بني مرين، فخفق السعي في صريخه بهم لما كانوا عليه من ، افتراق الأمر كما ذكرناه قبل. ووصل معه ساسي بن سليم في قومه بني يعقوب، وتظاهر الحيان على العيث في بلاد السلطان أبي حمو. واجتمع إليهم أبناء الفتنة من كل أوب، وأجلبوا على الأطراف وشنوا الغارة في البلاد. وجمع أولاد عريف لحربهم قومهم من سويد وأحلافهم من العطاف، وبعثوا بالصريخ إلى السلطان، فسير لحرب عدوه وعدوهم ابنه أبا تاشفين ولي عهده في قومه، وبرز لذلك في العساكر والجنود. ولما انتهى إلى بلاد هوارة، واضطرب عسكره بها، أعجله صريخ أوليائه من مناخ الركاب، فاستعجل الرحلة ولحق بأوليائه أولاد عريف ومن معهم من أشياع ا الدولة من زغبة. وأغذوا السير إلى وادي مينا بشرقي القلعة، فتراءى الجمعان وتواقفوا للقاء سائر

يومهم. واستضاءوا بإضرام النيران مخافة البيات، وأصبحوا على التعبية. وتمشت الرجالات في مواضعة الحرب، فأعجلهم مناشبة القوم، وتزاحفت الصفوف، وأعلم الكماة، وكشفت الحرب عن ساقها، وحمي الوطيس، وهبت الريح المبشرة، فخفقت لها رايات الأمير وهدرت طبوله. ودارت رحى الحرب، وصمدت إليها كتائب العرب، فتردى فيها الأبطال منهم وانكشفوا، وأجلت المعركة عن عبد الله بن صغير صريعاً، فأمر أبو تاشفين فاحتز رأسه وطير به البريد إلى أبيه. ثم عثرت المراكب بأخيه ملوك من صغير مع العبّاس ابن عمه موسى بن عامر، ومحمد بن زيان من وجوه عشيرهم متواقعين بجنودهم، متضاجعين في مراقدهم كأنما أقعدوا للردى، فوطأتهم سنابك الخيل وغشيهم قتام المواكب. وأطلقت العساكر أعنتها في اتباع القوم، فاستاقوا نعمهم وأموالهم. وكثرت يومئذ الأنفال، وغشيهم الليل فتستروا بجناحه. ولحق فلهم بجبل راشد، واضطرب أبو تاشفين أباه بمشتهى ظهوره، وأملأه السرور بما صنع الله على يده، وما كان له ولقومه من الأثر في مظاهرة أوليائه. وطار له بها ذكر على الأيام، ورجع إلى أبيه بالحضرة مملوء الحقائب بالأنفال، والجوانح بالسرور، والأيام بالذكر عنه وعن قومه، ومضى خالد لوجهه في فل في قومه. ولحق بجبل راشد إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله. والله أعلم.

الخبر عن انتقاض سالم بن إبراهيم ومظاهرته خالد بن عامر علي الخلاف وبيعتهما للأمير أبي زيان ثم مهلك خالد ومراجعة سالم الطاعة وخروج أبي زيان إلي بلاد الجريد:

كان سالم بن إبراهيم هذا كبير الثعالبة المتغلبين على حصن متيجة منذ انقراض مليكش، وكانت الرياسة فيهم لأهل بيته حسبما ذكرناه في أخبارهم عند ذكر المعقل. ،لما كانت فتنة أبي زيان بعد نكبة أبي حمّو على بجاية، وهبت ريح العرب، واستغلظ أمرهم، كان سالم هذا أول من غمس يده في تلك الفتنة، ومكر بعلي بن غالب من بيوتات الجزائر، كان مغرباً عنها من لدن تغلب بني مرين على المغرب الأوسط

أيام أبي عنان. ولحق بها عندما أظلم الجو بالفتنة، واستحكمت نفرة أهل الجزائر عن أبي حمو، فأظهر بها الاستبداد واجتمع إليه الأوشاب والطغام. ونكره سالم أمير الضاحية أطمعه في الاستيلاء على الجزائر، فداخل في شأنه الملأ من أهل المدينة، وحذرهم منه أنه يروم الدعوة للسلطان أبي حمو، فاستشاطوا نفرة وثاروا به، حتى إذا رأى سالم أنه قد احيط به خلصه من أيديهم وأخرجه إلى حيه وأتلفه هنالك. وحول دعوة الجزائر إلى الأمير أبي زيان تحت استبداده، حتى إذا كان من أمر بني مرين وحلول السلطان عبد العزيز بتلمسان ما قدمناه، أقام دعوتهم في الجزائر إلى حين سلكه ورجوع أبي حمّو إلى تلمسان. وأقبل حينئذ جيش أبي زيان إلى تيطرى، فأقام سالم هذا دعوته في أحيائه وفي بلد الجزائر خشية على نفسه من السلطان أبي حمو، لما كان يعتمد عليه في الإدالة من أمره بالجزائر بأمر ابن عمه. ولما كان من خروج أبي زيان إلى أحياء رياح على يد محمد بن عريف ما قدمناه، واقتضى سالم عهده من السلطان وولي ابنه على الجزائر وأقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الأعمال واستضافة جبايتها لنفسه. وأوعز السلطان إلى عماله باستيفاء جبايتها، فاستراب وبقي في أمره على المداهنة.

وحدثت إثر ذلك فتنة خالد بن عامر، فتربص دوائرها رجاء أن يكون الغلب له،

فيشغل السلطان عنه. ثم بدا له ما لم يحتسب، وكان الغلب للسلطان ولأوليائه. وكان قد حدثت بينه وبين محمد بن عريف عداوة، فخشي أن يحمل السلطان على النهوض إليه، فبادر بالانتفاض على أبي حمو. واستقدم الأمير أبا زيان فقدم عليه، وجأجأ بخالد بن عامر والمخالفين معه من العرب، فوصلوا إليه أول سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وعقد بينهم حلفاً مؤكداً، وأقام الدعوة للأمير أبي زيان بالجزائر. ثم زحفوا إلى حصار مليانة، وبها حامية السلطان فامتنعت عليهم، ورجعوا إلى الجزائر فهلك خالد بن عامر على فراشه ودفن بها. وولي أمر قومه من بعده المسعود ابن أخيه صغير، ونهض إليهم السلطان أبو حمّو من تلمسان في قومه وأوليائه من العرب، فامتنعوا بجبال حصين. وناوشتهم جيوش السلطان القتال بأسافل

الجبل، فغلبوهم عليها وانفضت الناحية عنهم من الديالم والعطاف وبني عامر، فلحقوا بالقفس

ورأى سالم وأصحابه أن قد احيط بهم فلاذ بالطاعة، وحمل عليها أصحابه. وعقد لهم السلطان من ذلك ما أرادوه، على أن يفارقوا الأمير أبا زيان ففعلوا. وارتحل عنهم فلحق ببلاد المغرب، ريغ، ثم أجازها إلى نفطة من بلاد الجريد، ثم إلى توزر، فنزل على مقدّمها يحيى بن يملول، فأكرم نزله وأوسع قراره إلى أن كان من أمره ما نذكر.

ورجع السلطان أبو حمّو إلى تلمسان، وفي نفسه من سالم حرارة لكثرة اضطرابه ومراجعته الفتن، حتى توسّط فصل الشتاء، وأبعدت العرب في مشاتيها، فنهض من تلمسان في جيوش زناتة، وأغذّ السير، فصبح فحص متيجة بالغارة الشعواء. وأجفلت الثعالبة فلحقوا برؤوس الجبال، وامتنع سالم بجبل بني خليل. وبعث ابنه وأولياءه إلى الجزائر، فامتنعوا بها وحاصروه أياماً. ثم غلبوه على مكامنه، فانتقل إلى بني ميسرة من جبال صنهاجة. وخلف أهله ومتاعه، وصار الكثير من الثعالبة إلى الطاعة، وأسهلوا بأمان السلطان وعهده إلى فحص متيجة. وبعث هو أخاه ثانياً إلى السلطان، فاقتضى له العهد، ونزل من رأس ذلك الشاهق إلى ابنه أبي تاشفين، فأوصله إلى السلطان إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان، فأخفر عهده وذمّة ابنه، وتقبّض عليه صبيحة ليلته. وبعث قائده إلى الجزائر فاستولى عليها وأقام دعوته بها، وأوفد عليه مشيختها فتقبّض عليهم، وعقد على الجزائر لوزيره موسى بن برغوت، ورجع إلى تلمسان فقضى بها عيد النحر. ثم أخرج سالم بن ابراهيم من محبسه إلى خارج البلاد، وقتل قعصاً بالرماح، ونصب شلوه، وأصبح مثلاً في الآخرين. ولله البقاء.

وعهد السلطان لابنه المنتصر على مليانة وأعمالها، ولابنه أبي زيان على وَهرَان. وراسله ابن يملول صاحب توزر، وصهره ابن قرى صاحب بسكرة، وأولياؤهما من الكعوب والزواودة، لما أهمهم أمر السلطان أبي العبّاس. وخافوه على أمصارهم، فراسلوا أبا حمّو يضمنون له مسالمة أبي زيّان، على أن يوفي له بما اشترط له من المال، وعلى أن يشبّ نار الفتنة من قبله على بلاد الموحّدين ليشغل السلطان أبا العبّاس عنهم، على حين عجز أبو حمّو عن ذلك وضعف الدولة عنه. فأوهمهم من نفسه القدرة وأطمعهم في ذلك.

وما زال يراجعهم ويراجعونه بالمقاربة والوعد، إلى أن أحيط بابن بملول، واستولى السلطان على بلده فلحق ببسكرة، وهلك بها لسنة من خروجه آخر سنة احدى وثمانين و سبعمائة. وبقي ابن مزني من بعده متعلّلاً بتلك الأماني الكاذبة، إلى أن ظهر أمره وتبيّن عجزه: فراجع طاعة السلطان أبي العبّاس واستقام على الموادعة. ولحق الأمير أبو زيّان بحضرة السلطان بتونس، فنزل بها أكرم نزل مؤمّلاً منه المظاهرة على عدّوه. والحال بالمغرب الأوسط لهذا العهد على ما شرحناه مراراً من تغلّب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار. وتقلّص ظلّ الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف البحر، وتضاؤل قدرتها عن قدرتهم، وإعطاء اليد في مغالبتهم ببذل رغائب الأموال، وإقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار، والقنوع بالتغريب بينهم، والإغراء بعضهم ببعض. والله وليّ الأمور.

قسمة السلطان للأعمال بين ولده وما حدث بينهم من التنافس:

كان لهذا السلطان أبي حمّو جماعة من الولد كبيرهم أبو تاشفين عبد الرحمن. ثم بعده أربعة أم واحدة، كان تزوّجها بمَيلَةَ من أعمال قُسَنطِينَة أيام جولته في بلاد الموحّدين كبيرهم المنتصر. ثم أبو زيان محمد. ثم عمر، ويلقب عميرا. ثم بعدهم ولد كثيرون أبناء علات. وكان أبو تاشفين ولي عهده، وقد رفعه على الباقين، وأشركه في أمره، وأوجب له الحق على وزراء دولته، فكان لذلك رديفه في ملكه ومظهر سلطانه. وكان مع ذلك يتعاهد أولئك الإخوة الأشقاء بحنوه، ويقسّم لهم من ترشيحه والنجاء في خلوته، فتنغّص أبو تاشفين منهم. فلما استفحل أمر السلطان، وانمحت من دولته آثار الخلاف، أعمل نظره في قسمة الأعمال بين ولده، وترشيحهم للأمارة، والبعد بهم عن أخيهم أبي تاشفين، أن يصيبهم مكروهه عند إيناس الغيرة منهم: فولّي المنتصر كبيرهم على مليانة وأعمالها، أنفذه إليها، ومعه أخوه عمر الأصغر في كفالته. وولّى أخاهما الأوسط أبا زيّان، على المدية وما إليها من بلاد

حصين. وولّى ابنه يوسف بن الزابية على تدلس ما إليها من آخر أعماله. واستقرّ أمرهم على ذلك. ثم كان من انتقاض سالم الثعالبي بالجزائر ما قدّمناه، فنمي إلى السلطان أنّ ابنه أبا زيّان داخله في الخلاف، فلمّا فرغ من أمر سالم كما مرّ، وطرد أبا زيان ابن عمه عن أعماله إلى الجريد، أعمل نظره في نقل ابنه أبي زيان من المدية إلى ولاية وهران وأعمالها بعداً له عن العرب المجلبين في الفتن، وأنزل معه بعض وزرائه عيناً عليه، وأقام والياً عليها. والله أعلم.

وثبة أبي تاشفين بيحيي بن خلدون كاتب أبيه:

كان أوّل شيء حدث من منافسة أبي تاشفين لإخوته، أن السلطان لمّا ولّى ابنه أبا زيّان على وهران وأعمالها، طلبه أبو تاشفين في ولايتها لنفسه فأسعفه ظاهراً، وعهد إلى كاتبه يحيى بن خلدون بمماطلته في كتابها حتى يرى المخلص من ذلك، فأقام الكاتب يطاوله. وكان في الدولة لئيم من سفلة الشرط يدعى بموسى بن يخلف، صحبهم أيام الاغتراب بتيكورارين، أيام ملك تلمسان عليهم عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن كما مرّ. وخلا له هنالك وجه السلطان أبي حمّو وإبنه، فتقرّب إليه بخدمته ورعاها له. فلما رجع السلطان إلى تلمسان بعد مهلك عبد العزيز، قدّمه وآثره واستخلصه، فكان من أخلص بطانته. وكان أبو تاشفين أيضاً استخلصه، وجعله عيناً على أبيه. وكان هو أيضاً يغص بابن خلدون كاتب السلطان، ويغار من تقدّمه عنده ويغري به أبا تاشفين جهده، فدس إليه أثناء هذه المطاولة أنّ الكاتب ابن خلدون إنما مطله بالكتاب خدمة لأبي زيّان أخيه، وإيثاراً له عليه، فاستشاط لها أبو تاشفين وترصّد له منصرفه من القصر إلى بيته بعد التراويح، في إحدى ليالي رمضان سنة ثمانين وسبعمائة في رهط من الأوغاد كان يطوف بهم في سكك المدينة، ويطرق بهم بيوت أهل السرّ والحشمة في سبيل الفساد، فعرضوا له وطعنوه بالخناجر حتى سقط عن دابته ميتاً. وغدا الخبر على السلطان صبيحة تلك الليلة فقام في ركائبه وبثّ الطلب عن أولئك الرهط في جوانب المدينة. ثم بلغه أنّ ابنه أبا تاشفين صاحب الفعلة، فأغضى وطوى عليها جوانحه، وأقطع أبا تاشفين مدينة وهران كما وعده. وبعث ابنه أبا زيّان

على بلاد حُصَين والمرية كما كان. ثم طلب أبو تاشفين من أبيه أن تكون الجزائر خالصة له، فأقطعه إيّاها. وأنزل بها من إخوته يوسف بن الزابية، بما كان شيعة له من بينهم وفيئة في صحبته ومخالصته، فأقام والياً عليها. والله أعلم.

حركة السلطان أبي حمّو علي ثغور المغرب الأقصي ودخول ابنه أبي تاشفين إلى جهات مكناسة:

كان السلطان أبو العبّاس ابن السلطان أبي سالم ملك بني مرين بالمغرب الأقصى، قد نهض في عساكره سنة إحدى وثمانين إلى مراكش، وبها الأمير عبد الرحمن بن يفلرس ابن السلطان أبي عليّ مقاسمه في نسبه وملكه. وكان قد سوّغ له مراكش لها عندما أجلب معه على البلد الجديد سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما في أخبارهم. واستقرّ الأمير عبد الرحمن بمراكش. ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أحمد، ونهض إليه من فاس، فحاصره أوّلاً وثانياً، يفرج فيهما عنه. ثم نهض إليه سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، فحاصره وأخذ بمخنقه وأطال حصاره. وكان يوسف بن علي بن غانم أمير المعقل من العرب منتقضاً على السلطان. وقد بعث السلطان العساكر إلى أحيائه، فهزموه وخرّبوا بيوته وبساتينه بسجلماسة ورجعوا. وأقام هو بصحرائه منتقضاً. فلما جهد الحصار الأمير عبد الرحمن بمراكش، بعث أبا العشائر ابن عمّه منصور ابن السلطان أبي علي إلى يوسف بن علي بن غانم، ليجلب به على فاس وبلاد المغرب، فيأخذ بحجزة السلطان وينفس من مخنقه، فسار يوسف بن علي مع أبي العشائر إلى السلطان أبي حمّو بتلمسان يستنجده على هذا الغرض لقدرته عليه دون العرب، بما له من العساكر والأبهة، فأنجده على ذلك. وقدم ابنه أبا تاشفين معهم، وخرج هو في أثرهم فساروا إلى المغرب. ونزل يوسف بن علي بقومه قريباً من مكناسة، ومعه الأميران أبو العشائر وأبو تاشفين. وجاء أبو حمّو من خلفهم فحاصر تازى سبعاً، وخرّب قصر تازروت المعدّ هنالك لنزل السلطان.

وكان السلطان قد استخلف على فاس في مغيبه علي بن مهدي العسكري من عمّال

دولته ووجوه قبيله، وكان هنالك عرب المنبات من المعقل قد دخلوا للميرة، فأهاب بهم ونزمار بن عريف ولي الدولة من عرب سويد، وهو نازل بقصر مرادة من أحواز تازى، فاستألفهم لمدافعة أبي حمّو وإبنه. وخرج بهم علي بن مهدي. ثم وصل الخبر باستيلاء السلطان على مراكش منتصق خمس وثمانين وسبعمائة، فأجفل أبو تاشفين وأبو العشائر ومن معهما من العرب، واتبعهم علي بن مهدي بمن معه من المنباة. وأجفل أبو حمّو علي تازى، ومرّ بمرادة قصر ونزمار فهدمه وعاث فيه، وانكفأ راجعاً إلى تلمسان. وفارق ابنه أبو تاشفين أصحابه أبا العشائر والعرب، ولحق بأبيه، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نهوض السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب إلي تلمسان واستيلاؤه عليها واعتصام أبي حمّو بحصن تاجحمومت:

ولما استولى السلطان أبو العبّاس على مراكش كما قلناه، رجع إلى دار ملكه بفاس وقد آسفه السلطان أبو حمّو بأجلابه على وطنه هو وابنه أبو تاشفين مع العرب أيام مغيبه بمراكش، فأجمع الرحلة إلى تلمسان، وخرج في عساكره. وراجع يوسف بن علي الطاعة، ورحل معه في جموعه. وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو، فتردد بين الحصار بتلمسان أو مفارقتها. وكان بينه وبين ابن الأحمر صاحب الأندلس مواصلة، ولابن الأحمر دالة على السلطان أبي العبّاس كما مرّ. فكان يحفظ له الشأن في قصد تلمسان ويلبثه عنها فيعطيه المقادة في ذلك، فيعلّل هو السلطان أبا حمّو بأنّ السلطان أبا العبّاس لا يصل إليه. ثم أجمع السلطان أبو العبّاس أمره، ونهض على حين غفلة مغذّاً إلى تلمسان. وتقدّم الخبر إلى أبي حمّو فأجمع مفارقة تلمسان بعد أن أظهر لأوليائه وأهل دولته أنه على الحصار. ثم خرج حين غشيه الليل إلى معسكره بالصفيف، وافتقده أهل بلده من صبيحتهم، فتبادر أكثرهم إليه متعلّقين بأذياله خوفاً من معرّة العدوّ ثم ارتحل يطوي المراحل إلى البطحاء، ودخل السلطان أبو

العبّاس تلمسان، واستولى عليها، وجهّز العساكر لأتباع أبي حمّو وقومه، فأجفل من البطحاء ولحق بتاحجمومت فاعتصم بمعقلها. ولحق به ابنه المنتصر من مليانة بما كان معه من الذخيرة، فاستمد بها وأقام هنالك عازماً على الامتناع والله تعالى أعلم.

رجوع السلطان أبي العبّاس إلي المغرب واختلال دولته ورجوع السلطان أبي حمّو إلى ملكه بتلمسان:

كان السلطان أبو العبّاس لما استولى على مملكة تلمسان، طيّر كتبه ورسله بفتحها إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس، ويعتذر له عن مخالفة رأيه في الحركة إليها. وقد كان ابن الأحمر آسفه ذلك إلى ما انتظم إليه من النزعات الملوكية التي يؤسف بها بعضهم بعضاً، وهو يطوي جوانحه عليها واطلع على فساد طاعة السلطان أبي العبّاس في أهل دولته ونغل ضمائرهم له، فأزعج لوقته موسى ابن السلطان أبي عنان من أعياص ملكهم، كان عنده بالأندلس، وجهّزه بما يحتاج إليه وبعث في خدمته مسعود بن رحّو بن ماسالي وزيرهم المشهور، وأركبه السفن إلى سبتة، فنزلوا بساحتها أول ربيع سنة ست وثمانين وسبعمائة واستولوا عليها. ثم تقدّموا إلى فاس، فنازلوا دار الملك أياماً، وبها محمد بن عنان القائم بدولة السلطان أبي العبّاس والمستبدّ عليه، واشتدّوا في حصارها، وتوافت إليهم الأمداد والحشود، فداخله الخور والقي بيده. وداخل السلطان موسى إلى دار الملك تاسع عشر ربيع الأوّل من السنة، وجلس على أريكته، وآتاه الناس طاعتهم. وطار الخبر إلى السلطان أبي العبّاس بتلمسان، وقد تجهّز لاتباع أبي حمو. ونزل على مرحلة من تلمسان بعد أن أغراه ونزمار بن عريف أمير سويد بتخريب قصور الملك بتلمسان، وكانت لا يعبّر عن حسنها، اختطّها السلطان أبو حمّو الأوّل وابنه أبو تاشفين، واستدعى لها الصنّاع والفعلة من الأندلس، لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان. فبعث إليهما السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والحذّاق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله،

فأشار ونزمار على السلطان أبي العبّاس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاماً بزعمه من أبي حمو، وأخذاً بالثأر منه فيما اعتمده من تخريب دار الملك بتازى، وتخريب قصره هو بمرادة، فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر. وبينما هو في ذلك، وهو يروم السفر لأتباع أبي حمو، إذ جاءه الخبر بأنّ السلطان موسى ابن عمه السلطان أبي عنّان قد استولى على دار ملكهم بفاس واقتعد أريكتهم، فكرّ راجعاً إلى المغرب لا يلوي على شئ، وترك تلمسان لشأنها، وكان من أمره ما يأتي ذكره في أخبارهم. وطار الخبر إلى السلطان أبي حمّو بمكانه من تاجحمومت، فأغذّ السير إلى تلمسان ودخلها، وعاد إلى ملكه بها. وتفجّع لتلك القصور بما ذهب من رونق حسنها، ورجع دولته بني عبد الواد وسلطانهم بتلمسان. والله سبحانه وتعالى أعلم.

تجدّد المنافسة بين أولاد السلطان أبي حمّو ومجاهرة أبي تاشفين بذلك لهم ولأبيه:

كان التنافس بين هؤلاء الولد خفيّاً على الناس، بما كان السلطان أبوهم يؤامل بينهم ويداري بعضهم عن بعض. فلما خرجوا أمام بني مرين وعادوا إلى تلمسان، صار تنافسهم إلى العداوة. واتّهم أبو تاشفين أباه بممالأة إخوته عليه، فشمّر لعقوقه وعداوته. وشعر السلطان بذلك، فعمل الحركة إلى ناحية البطحاء موريا بإصلاح العرب، ومعتزماً على لقاء ابنه المنتصر بمليانة، ليصل به جناحه ويتخطّى إلى الجزائر، فيجعلها دار ملكه بعد أن استخلف بتلمسان ابنه أبا تاشفين وحالفه على المناصحة. واطلع موسى بن يخلف على خبيئة السلطان بذلك، فدسّ بها إلى أبي تاشفين على عادته، فطار به الأسف كل مطار، وأغذّ السير من تلمسان فيمن معه من العسكر، وصبح أباه بأسافل البطحاء قبل أن يتصل بالمنتصر. وكشف القناع عن التكبّر والتسخط على ما بلغه فحلف له السلطان على ذلك وأرضاه بالرجوع معه إلى تلمسان فرجعا جميعاً.

خلع السلطان أبي حمّو واستبداد ابنه أبي تاشفين بالمحلك واعتقاله إياه:

لما رجع السلطان من البطحاء وبطل ما كان يؤمّله من الاتصال بالمنتصر، دسّ إليه

مع خالصة من أهل دولته يعرف بعلي بن عبد الرحمن بن الكليب بأحمال من المال يودعها عنده. إلى أن يجد السبيل لحاجة نفسه. وكتب له بولاية الجزائر ليقيم بها حتى يخلص إليه. واطلع موسى بن يخلف على ذلك، فأطلع أبا تاشفين على الخبر: فبعث في أثره من حاشيته من اغتال ابن كليب في طريقه. وجاء إليه بالمال والكتب، فاطلع منها على حقيقة أمرهم وأنهم متربّصون به، فاستشاط وجاهر أباه وغدا عليه بالقصر، فوقفه على الكتاب وبالغ في عذله. وتحيّز موسى بن يخلف إلى أبي تاشفين، وهجر باب السلطان وأغرى به ابنه، فغدا على أبيه بالقصر بعد أيام وخلعه، وأسكنه بعض حجر القصر. ووكّل به واستخلص ما كان معه من الأموال والذخيرة. ثم بعث به إلى قصبة وَهرَان، فاعتقله بها. واعتقل من حضر بتلمسان من إخوله، وذلك آخر ثمان وثمانين وسبعمائة. وبلغ الخبر إلى المنتصر بمليانة وأبي زيان وعمير، فلحقوا بقبائل حصين واستذمّوا بهم، فأذمّوهم وأنزلوهم عندهم بجبل تيطرى. وجمع أبو تاشفين العساكر واستألف العرب من سويد وبني عامر، وخرج في طلب المنتصر وإخوته، ومرّ بمليانة فملكها. ثم تقدّم إلى جبل تيطرى، وأقام في حصارهم به، وهم ممتنعون عليه. والله تعالى أعلم.

خروج السلطان أبي حمّو من الاعتقال ثم القبض عليه وتغريبه في السفين إلي المشرق:

لما طال مقام أبي تاشفين على تيطرى لحصار إخوته، ارتاب بأمر أبيه وطول مغيبه عنه. وشاور أصحابه في شأنه، فأشاروا بقتله وأتفقوا على ذلك، فبعث أبو تاشفين ابنه أبا زيّان في لمة من حاشيته: فيهم ابن الوزير عمران بن موسى، وعبد الله بن الخراساني، فقتلوا من كان معتقلاً بتلمسان من أبناء السلطان، وتقدموا إلى وهران. وسمع أبو حمّو بقدومهم، فأوجس الخيفة منهم، واطلع من جدران القصبة ينادي بالصريخ في أهل البلد، فتبادروا إليه من كل جهة وتدلى لهم بحبل وصله من عمامته التي كان متعمماً بها، فشالوه حتى استقرّ بالأرض واجتمعوا إليه. وكان الرهط الذين جاؤا لقتله بباب القصر، وقد أغلقه دونهم. فلما سمعوا الهيعة واستيقنوا الأمر، طلبوا

النجاة بدمائهم. واجتمع أهل البلد على السلطان، وتولى كبر ذلك خطيبهم، وجدّدوا له البيعة. وارتحل من حينه إلى تلمسان، فدخلها أوائل سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وهي يومئذ عورة بما كان بنو مرين هدموا أسوارها وأزالوا حصنها. وبعث فيمن كان مخلفاً بأحياء بني عامر من أكابرهم ووجوههم، فقدموا عليه. وطار الخبر إلى أبي تاشفين بمكانه من حصار تيطرى، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان فيمن معه من العساكر والعرب، وبادره قبل أن يستكمل أمره فاحيط به. ونجا إلى مأذنة الجامع، فاعتصم بها. ودخل أبو تاشفين القصر، وبعث في طلبه. وأخبر بمكانه، فجاء إليه بنفسه واستنزله من المأذنة. وأدركته الرقّة، فجهش بالبكاء وقبّل يده وغدا به إلى القصر. واعتقله ببعض الحجر هنالك ورغب إليه أبوه في تسريحه إلى المشرق لقضاء فرضه، فشارط بعض تجّار النصارى المتردّدين إلى تلمسان من القيطلان على حمله إلى الإسكندرية، وأركبه السفين معهم بأهله من فرضة وهران ذاهباً لطيبة موكلاً به. وأقبل أبو تاشفين على القيام بدولته. والله تعالى أعلم.

نزول السلطان أبو حمّو ببجاية من السفين واستيلاؤه علي تلمسان ولحاق أبي تاشفين بالمغرب:

لما ركب السلطان أبو حمّو السفين ذاهباً إلى الإسكندرية، وفارق أعمال تلمسان وحاذى بجاية، داخل صاحب السفين في أن ينزله ببجاية فأسعفه لذلك. فخرج من الطارمة التي كان بها معتقلاً، وصار الموكّلون به في طاعته. وبعث إلى محمد بن أبي مهدي قائم الأسطول ببجاية المستبدّ على أميرها من ولد السلطان أبي العبّاس بن أبي حفص. وكان محمد بن وارث خالصة المنتصر بن أبي حمّو من ناحية دولتهم، قد خلص إلى بجاية من تيطرى بعدما تنفس الحصار عنهم، فبعثه ابن أبي مهدي إلى السلطان أبي حمّو بالإجابة إلى ما سأل. وأنزله بجاية اخر سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وأسكنه بستان الملك المسمّى بالرفيع. وطيّر بالخبر إلى السلطان بتونس، فشكر له ما أتاه من ذلك، وأمره بالاستبلاغ في تكريمه، وأن يخرج عساكر بجاية في خدمتة أبي حمّو إلى حدود عمله متى احتاج إليها. ثم خرج

السلطان أبو حمّو من بجاية، ونزل متيجة، واستنفر طوائف العرب من كل ناحية فاجتمعوا إليه. ونهض يريد تلمسان. واعصوصب قومه

بنو عبد الواد على أبي تاشفين بما بذل فيهم من العطاء وقسم من الأموال، فنابذوا السلطان أبا حمّو واستصعب عليه أمرهم. وخرج إلى الصحراء، وخفف ابنه أبا زيان في جبال شلف مقيماً لدعوته. وبلغ إلى تامة من ناحية المغرب. وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين، فبعث عسكراً إلى شلف مع ابنه أبي زيان ووزيره محمد بن عبد الله بن مسلم، فتواقفوا مع أبي زيان ابن السلطان أبي حمّو فهزمهم. وقتل أبا زيان ابن أبي تاشفين ووزيره ابن مسلم، وجماعة من بني عبد الواد. وكان أبو تاشفين لما بلغه وصول أبيه إلى تامة، سار إليه من تلمسان في جموعه. فأجفل أبو حمّو إلى وادي صا، واستجاس بالأحلاف من عرب المعقل هنالك فجاؤا لنصره. وعاود تامة فنزلها، وأقام أبو تاشفين قبالته. وبلغه هنالك هزيمة ابنه ومقتله، فولى منهزماً إلى تلمسان وأبو حمّو في أتباعه. ثم سرح أبو تاشفين مولاه سعادة في طائفة من العسكر لمحاولة العرب في التخلي عن أبي حمو، فانتهز أبو حمّو به الفرصة وهزمه وقبض عليه. وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين بتلمسان، وكان يؤمّل النجاح عند سعادة فيما توجه فيه فأخفق سعيه. وانفض عنه بنو عبد الواد والعرب الذين معه، وخرج هارباً من تلمسان مع أوليائه من سويد إلى مشاتيهم بالصحراء. ودخل السلطان أبو حمّو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعمائة. وقدم عليه أبناؤه، فأقاموا معه بتلمسان، فطرق المنتصر ابنه المرض فهلك بها لأيام من دخوله تلمسان، واستقرّ الأمر على ذلك. والله أعلم.

نهوض أبي تاشفين بعساكر بني مرين ومقتل السلطان أبي حمو:

لما خرج أبو تاشفين من تلمسان أمام أبيه، واتصل بأحياء سويد، أجمعوا رأيهم على الاستنجاد بصاحب المغرب، فوفد أبو تاشفين ومعه محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العبّاس صاحب فاس، وسلطان بني مرين صريخين على شأنهما، فقبل وفادتهما ووعدهما بالنصر من عدوّهما. وأقام أبو تاشفين عنده ينتظر إنجاز وعده،

وكان بين أبي حمّو وابن الأحمر صاحب الأندلس وشيجة ودّ وعقيدة وصلة، ولابن الأحمر دالة وتحكّم في دولة أبي العبّاس صاحب المغرب بما سلف من مظاهرته على أمره منذ أول دولته، فبعث إليه أبو حمّو في الدفاع عنه بإجازة أبي تاشفين من المغرب إليه، فلم يجبه صاحب المغرب لذلك وفاء بذمّته، وعلّله بالقعود عن نصره. وألحّ عليه ابن الأحمر في ذلك، فتعلّل بالمعاذير. وكان أبو تاشفين قد عقد لأوّل قدومه مع وزير الدولة محمد بن يوسف بن علّال حلفاً اعتقد الوفاء به، فكان هواه في إنجاده ونصره من عدوّه، فلم يزل يفّتل لسلطانه في الذروة والغارب، ويلوي عن ابن الأحمر المواعيد حتى أجابه السلطان إلى غرضه.

وسرّح ابنه الأمير أبا فارس، والوزير محمد بن علال في العساكر لمصارخة أبي تاشفين. وفصلوا من فاس أواخر إحدى وتسعين، وانتهوا إلى تازى. وبلغ خبرهم إلى السلطان أبي حمّو، فخرج من تلمسان وجمع أشياعه من بني عامر والخراح بن عبيد الله وقطع جبل بني ورنيد المطل على تلمسان، وأقام بالغيران من جهاته. وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين، فقدم إلى تلمسان فجدد المكر والخديعة شيطان الشر والفتنة موسى بن يخلف، فاستولى عليها وأقام دعوة أبي تاشفين فيها، فطيّرإلى أبي حمّو ابنه عمير ، فصبحه بها لليلة من مسيره، فأسلمه أهل البلد. وتقبّض عليه، وجاء به أسيراً إلى أبيه بمكانه من الغيران، فوبّخه أبو حمّو على فعاله. ثم أذاقه أليم عقابه ونكاله، وأمر به فقتل أشنع قتلة. وجاءت العيون إلى أبي فارس ابن صاحب المغرب ووزيره ابن علال بمكان أبي حمّو وأعرابه بالغيران، فنهض الوزير ابن علال في عساكر بني مرين لغزوه. وسار أمامهم سليمان بن ناجي من الأحلاف إحدى بطون المعقل، يدل بهم طريق القفر حتى صبحوه ومن معه من أحياء الخراج في مكان مقامتهم بالغيران. وناوشوهم القتال فلم يطيقوهم لكثرتهم وولّوا منهزمين. وكبا بالسلطان أبي حمّو فرسه، فسقط وأدركه بعض فرسانهم وعرفه، فقتلوه قعصاً بالرماح. وجاؤا برأسه إلى الوزير ابن علّال وأبي تاشفين، وجاءوا بابنه عمير أسيراً. وهمّ أبو تاشفين أخوه بقتله فمنعوه أياماً، ثم أمكنوه منه فقتله. ودخل أبو تاشفين

إلى تلمسان آخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وخيّم الوزير وعساكر بني مرين

بظاهر البلد، حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال. ثم قفلوا إلى المغرب وأقام هو بتلمسان يقيم بدعوة السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب، ويخطب له على منابره، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة كما اشترط على نفسه، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

مسير أبي زيان بن أبي حمّو لحصار تلمسان ثم إجفاله عنها ولحاقه بصاحب المغرب:

كان السلطان أبو حمّو قد ولّى على الجزائر ابنه أبا زيان، لما عاد إلى ملكه بتلمسان، وأخرج منها أبا تاشفين. فلما قتل أبو حمّو بالغيران كما قلناه، وخرج أبو زيّان من الجزائر ناجياً إلى أحياء حصين يؤمّل الكرة بهم والأخذ بثأر أبيه وأخيه، فاشتملوا عليه وأجابوا صريخه. ثم وفد عليه أمراء بني عامر من زغبة يدعونه لملكه، فسار إليهم. وقام بدعوته وطاعته شيخهم المسعود بن صغير، ونهضوا جميعا إلى تلمسان في رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فحاصروها أياماً. ثم سرب أبو تاشفين المال في العرب، فافترقوا عن أبي زيان. وخرج إليه أبو تاشفين، فهزمه في شعبان من السنة. ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل، وعاود حصار تلمسان في شوال. وبعث أبو تاشفين ابنه صريخاً إلى المغرب، فجاءه بمدد من العسكر. ولما انتهى إلى تاوريرت أفرج أبو زيان عن تلمسان، وأجفل إلى الصحراء. ثم أجمع رأيه على الوفادة إلى صاحب المغرب، فوفد عليه صريخاً، فتلقّاه وبرّ مقدمه. ووعده النصر من عدوّه، وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين. والله تعالى أعلم.

وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب علي تلمسان:

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي سالم، ومؤدّياً للضريبة التي فرضها عليه منذ أوّل ملكه، وأخوه الأمير أبو زيّان مقيم عند صاحب المغرب ينتظر وعده في النصر عليه.

حتى تغّير السلطان أبو العبّاس على أبي تاشفين في بعض النزعات الملوكية، فأجاب داعي أبي زيّان وجهّزه بالعساكر لملك تلمسان، فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعمائة. وانتهى إلى تازى، وكان أبو ناشفين قد طرقه مرض أزمن به، ثم هلك منه في رمضان من السنة. وكان القائم بدولته أحمد بن العزّ من صنائعهم، وكان يمت إليه بخؤلة، فولّى بعده مكانه صبياً من أبنائه وقام بكفالته. وكان يوسف بن أبي حمّو وهو ابن الزابية والياً على الجزائر من قبل أبي ناشفين، فلما بلغه الخبر أغذّ السير مع العرب ودخل تلمسان، فقتل أحمد بن العز والصبيّ المكفول ابن أخيه أبي تاشفين. فلمّا بلغ الخبر إلى السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب خرج إلى تازى، وبعث من هنالك إبنه أبا فارس في العساكر، ورد أبا زيان بن أبي حمّو إلى فاس ووكّل به. وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان، فملكها وأقام فيها دعوة أبيه. وتقدّم وزير أبيه صالح بن حمّو إلى مليانة، فملكها وما بعدها من الجزائر وتدلس إلى حدود بجاية. واعتصم يوسف بن الزابية بحصن تاحجمومت. وأقام الوزير صالح يحاصره، وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط. والله غالب على أمره.

وفاة أبي العبّاس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمّو علي تلمسان والمغرب الأوسط

كان السلطان أبو العبّاس بن أبي سالم، لما وصل إلى تازى، وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان، فملكها أقام هو بتازى يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدّم ليفتح البلاد الشرقية. وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق. وتقدمت إلى السلطان فئه وأخبرته بمحلّه من قومه، فأكرم تلقّيه وحمله بعد قضاء حجّه هدية إلى صاحب المغرب، يطوقه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك. فلمّا قدم يوسف بن علي بها على السلطان أبي العبّاس عظم موقعها، وجلس في مجلس جعله لعرضها والمباهاة بها. وشرع في المكافأة عنها بتخيّر الجياد والبضائع والثياب، حتى استكمل من ذلك ما رضيه، واعتزم على إنفاذها مع يوسف بن

علي حاملها الأول. وأنه يرسله من تازى أيام مقامته هناك، فطرقه هنالك مرض كان فيه حتفه في محرم

سنة ست وتسعين وسبعمائة. واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان، فبايعوه بتازى وولّوه مكانه. ورجعوه إلى فاس، وأطلقوا أبا زيان بت أبي حمّو من الاعتقال. وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها، وقائماً بعد السلطان أبي فارس فيها، فسار إليها وملكها. وكان أخوه يوسف بن الزابية قد اتصل بأحياء بني عامر ويروم ملك تلمسان والأجلاب عليها، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك. وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يبعثوا به إليه، فأجابوا إلى ذلك وأسلموه إلى ثقات أبي زيان. وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم، فبادروا بقتله وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيّان، فسكنت أحواله وذهبت الفتنة بذهابه، واستقامت أمور دولته، وهم على ذلك لهذا العهد. والله غالب على أمره.

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية، وبقي علينا خبر الرهط الذين تحيّزوا منهم إلى بني مرين منّذ أول الدولة: وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي، وخبر بني كندوز امرائهم بمراكش. فلنرجع إلى ذكر أخبارهم، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد. والله وارث الأرض وصت عليها، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني كميّ إحدى بطون بني القاسم بن عبد الواد وكيف نزعوا إلى بني مرين وما صار لهم بنواحي مراكش وأرض السوس من الرياسة

قد تقدم لنا أوّل الكلام في بني عبد الواد أنّ بني كمي هؤلاء من شعوب القاسم، وانهم بنو علي بن يمل بن يزكن بن القاسم، إخوة بني طاع الله وبني دلول وبني معطي بن جوهر بن علي. وذكرنا ما كان بين بني طاع الله وبين إخوانهم وبين بني كمي من الفتنة، وكيف قتل كندوز بن عبد الله، كبير بني كمي زيان بن ثابت بن محمد كبير بني طاع الله، وأنّ جابر بن يوسف بن محمد القائم بالأمر من بعده ثار منهم بزيان، وقتل به كندوزاً غيلة أو حربا، وبعث برأسه إلى يغمراسن بن زئان، فنصب عليه أهل بيته القدور شفاية لنفوسهم. واستمر الغلب بعدها على بني كمي، فلحقوا بحضرة تونس، وكبيرهم إذ ذاك عبد الله بن كندوز. ونزلوا على الأمير أبي زكريا، حتى كان من استيلائه على تلمسان ما قدّمنا ذكره. وطمع عبد الله في الاستبداد

بتلمسان، فلم يتفق ذلك. ولما هلك مولانا الأمير أبو زكريا، ولي ابنه المستنصر، أقام عبد الله صدرا من دولته. ثم ارتحل هو وقومه الى المغرب، ونزل على يعقوب بن عبد الحق قبيل فتح مراكش، فاهتز يعقوب لقدومه وأحله بالمكان الرفيع من دولته. وأنزله وقومه بجهات مراكش، وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهماتهم. وجعل السلطان انتجاع إبله وراحلته في أحيائهم. وقدم على رعايتها حسان بن أبي سعيد الصبيحي وأخاه موسى، وصلا في لفيفة من بلاد المشرق، وكانا عارفين برعاية الإبل والقيام عليها. وأقاموا يتقلبون في تلك البلاد ويتعدون في نجعتها الى أرض السوس. وأوفد يعقوب بن عبد الحق عبد الله بن كندوز هذا على المتنصر صاحب أفريقية، سنة خمس وستين، مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدمناه. والتحم بنو كمي ببني مرين، وأصبحوا إحدى بطونهم. وهلك عبد الله بن كندوز، وصارت رئاستهم من بعده لابنه عمر بن عبد الله. فلما نهض يوسف بن يعقوب بن عبد الحق

إلى المغرب الأوسط، وشغل بحصار تلمسان، وتحدث الناس بما نزل بعبد الواد من بني مرين، أخذت بني كمي الحمية، وامتعضوا لقومهم، وأجمعوا الخلاف والخروج على السلطان. ولحقوا بحاجة سنة ثلاث وسبعمائة، واستولوا على بلاد السوس، فخرج إليهم أخو السلطان الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب، فناجزوه الحرب بتادرت وغلبوه، واستمروا على خلافهم. ثم عاود محاربتهم بتامطريت سنة أربع وسبعمائة بعدها، فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصت جناحهم. وقتل عمر بن عبد الله وجماعة من كبرائهم، وفروا أمامه إلى الصحراء، ولحقوا بتلمسان. وهدم يعيش بن يعقوب تارودنت قاعدة أرض السوس. وقام بنو كندوز بعدها بتلمسان نحواً من ستة أشهر. ثم توجسوا الغدر من ولد عثمان بن يغمراسن، فرجعوا إلى مراكش. واتبعتهم عساكر السلطان، وأبلى منهم في القتال عنهم محمد بن أبي بكر بن حمامة بن كندوز، وخلصوا إلى منجاتهم مشردين بصحراء السوس، إلى أن هلك السلطان يوسف بن يعقوب. وراجعوا طاعة الملوك بالمغرب، فعفوا لهم عما سلف من هذه الجريرة. وعاودوهم إلى مكانهم من الولاية، فأمحضوا النصيحة والمخالصة. وكان أميرهم من بعد عمر ابنه محمد، أقام في أمارتهم سنتين. ثم ابنه موسى بن محمد من بعده كذلك. واستخلصه السلطان أبو الحسن أيام الفتنة بينه وبين أخيه أبي علي، لعهد أبيهما السلطان أبي سعيد ومن بعده، فكانت له في المدافعة عن نواحي مراكش آثار وأيام. ثم هلك موسى بن محمد، فولى السلطان أبو الحسن مكانه ابنه يعقوب بن موسى. ولما غلب على تلمسان، وأصار بني عبد الواد في خوله وجنوده، تمشت رجالاتهم وتباثوا أشجانهم. حتى إذا كانت واقعة القيروان المشهورة، وتواقف السلطان مع بني سليم، داخلهم يعقوب بن موسى في أن ينخذل عن السلطان البهم ببني عبد الواد ومن إليهم من مغراوة وتوجين، وواعدهم لذلك ثم مشى في قومه وكافة بني عبد الواد، فأجابوه إلى ذلك. ولحقوا جميعا ببني سليم، فجروا بذلك الهزيمة على السلطان، وكانت نكبة القيروان المشهورة. ولحق بعدها بنو عبد الواد بتلمسان، وولوه أمرهم في بني يغمراسن. وهلك يعقوب بن موسى بإفريقية، ولحق أخوه رحو

بالمغرب. وكان السلطان أبو عنان قد استعمل على جماعتهم وعملهم عبو بن يوسف بن محمد، وهو ابن عمهم دنيا، فأقام فيهم كذلك حتى هلك، فولي من بعده ابنه محمد بن عبو. وهم على ذلك لهذا العهد، يعسكرون للأمير بمراكش، ويتولون من خدمة السلطان هنالك ما لهم فيه الغناء والكفاية. وكأنهم بمعزل عن بني عبد الواد، لاستحكام العداوة بينهم بمقتل زيان بن ثابت. والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني راشد بن محمد بن بادين وذكر أوليتهم وتصاريف أحوالهم:

وإنما قدمنا ذكرهم قبل استتمام بطون بني بادين لأنهم لم يزالوا أحلافاً لبني عبد الواد ومن جملتهم، فكانت أخبارهم من أخبارهم. وأما راشد أبوهم فهو أخو بادين. واختص بنوه كما قلنا ببني عبد الواد، وكانت مواطنهم بالصحراء بالجبل المعروف براشد اسم أبيهم. وكانت مواطن مديونة من قبائل البربر قبلة تاسالة، وبنو ورنيد من بطون دمر قبلة تلمسان إلى قصر سعيد. وكان جبل هوارة موطنا لبني يلوان الذين كان لهم الملك كما قدمناه. ولما اضمحل أمر بني يلومان وذهبت دولتهم، زحف بنو راشد هؤلاء من موطنهم بجبل راشد إلى بسائط مديونة وبني ورنيد، فشنوا عليهم الغارات، وطالت بينهم الحرب إلى أن غلبوهم على مواطنهم وألجؤوهم إلى الأوعار: فاستوطن بنو ورنيد الجبل

المطل على تلمسان، واستوطن مديونة جبل تاسالة. وملك بنو راشد بسائطهم القبلية، ثم استوطنوا جبلهم المعروف بهم لهذا العهد، وهو بلد بني يفرن الذين كانوا ملوك تلمسان لأول الإسلام، وكان منهم أبو قرة الصفري كما قدمناه. وكان منهم بعد ذلك يعلى بن محمد، الأمير الذي قتله جوهر الصقلي قائد الشيعة كما ذى ناه في أخبارهم. ويعلى هذا هو الذي اختط بهذا الجبل مدينة إيفكان التي هدمها جوهر يوم قتله. فلما ملك بنو راشد هذا الجبل، استوطنوه وصار حصنا لهم، ومجالاتهم في ساحته القبلية، إلى أن غلبهم العرب عليها لهذا العهد، وألجؤهم إلى الجبل. وكان غلب بني راشد على هذه الأوطان بين يدي دخول بني عبد الواد إلى المغرب الأوسط، وكانوا شيعة لهم وأحلافا في فتنتهم مع بني توجين وبني مرين. وكانت رياستهم في بيت منهم يعرفون ببني عمران، وكان القائم بها لأول دخولهم إبراهيم بن عمران. واستبد عليه أخوه ونزمار، وقام بأمرهم إلى أن هلك، فولي ابنه مقاتل بن ونزمار، وقتل عمه إبراهيم. وتفرقت رياسة بني عمران من يومئذ بين بني إبراهيم وبني ونزمار، إلا أن رياسة بني إبراهيم أظهر، فولي بعد إبراهيم ابنه ونزمار. وكان معاصرا ليغمراسن بن زيان وطال عمره، فلما. هلك لتسعين من المائة السابعة، ولي أمرهم غانم ابن أخيه محمد بن إبراهيم. ثم كان فيهم من بعده موسى بن يحيى بن ونزمار، لا أدري معاقباً لغانم أو توسطهما أحد. ولما زحف بنو مرين إلى تلمسان آخر زحفهم، صار بنو راشد هؤلاء إلى طاعة السلطان أبي الحسن، وشيخهم لذلك العهد أبو يحيى بن موسى بن عبد الرحمن بن ونزمار بن إبراهيم. وانحصر بتلمسان بنو عمه كرجون بن ونزمار، وانقرض أمر بني عبد الواد وأشياعهم. ونقل بنو مرين رؤوس زناتة أجمع إلى المغرب الأقصى، فكان بنو ونزمار هؤلاء ممن صار إلى المغرب وأوطنوه، إلى أن صار الأمر لبني عبد الواد في الكرة الثالثة على يد أبي حمّو الأخير موسى بن يوسف. وكان شيخ بني راشد لعهده زيان بن أبي يحيى بن موسى المذكور، أقبل إليهم من المغرب من إيالة بني مرين، فاتهمه أبو حمّو بمداخلتهم، فنقبض عليه واعتقله مدة بوهران. وفر من معتقله فلحق بالمغرب، وارتحل بين أحيائهم مدة. ثم راجع الطاعة واقتضى العهد من السلطان أبي حمو، وولاه على

قومه. ثم تقبض عليه، واعتقله إلى أن قتله بمحبسه سنة ثمان وستين وسبعماية، وانقرض أمر بني ونزمار بن إبراهيم. وأما بنو ونزمار بن عمران، فقام بأمرهم بعد مقاتل بن ونزمار أخوه

تورزكن بن ونزمار، ثم ابنه يوسف تورزكن، ثم آخرون من بعدهم لم تحضرني أسماؤهم، إلى أن غلب عليهم بنو ونزمار بن إبراهيم. وقد ذهبت لهذا العهد رياسة أولاد عمران جميعا، وصار بنو راشد خولا للسلطان وجباية، وبقيتهم على الحال التي ذكرنا. والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

بنو توجين

الخبر عن بني توجين من شعوب بني بادين من أهل هذه الطبقة الثالثة من زناتة وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب الأوسط وأولية ذلك ومصائره

كان هذا الحي من أعظم أحياء بني بادين وأوفرهم عددا. كانت مواطنهم حفافي
وادي شلف قبلة جبل وانشريش من أرض السرسو، وهو المسمى لهذا العهد نهر واصل. وكان بأرض السرسو بجهة الغرب منهم بطون من لواتة، وغلبهم عليها بنو وجديجن ومطماطة. ثم صارت أرض السرسو لبني توجين هؤلاء، واستضافوها إلى مواطنهم

الأولى. صارت مواطنهم ما بين موطن بني راشد وجبل دراك في جانب القبلة. وكانت رياستهم أيام صنهاجة لعطية بن دافلتن، وابن عمه لقمان بن المعتز كما ذكره ابن الرقيق. ولما كانت فتنة حماد بن بلكين مع عمه باديس، ونهض إليه باديس من القيروان، حتى احتل بوادي شلف، تحيز إليه بنو توجين هؤلاء، وكانت لهم في حروب حماد آثار مذكورة. وكان لقمان بن المعتز أظهر من عطية بن دافلتن، وكان قومهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف. وأوفد لقمان ابنه يذر على باديس قبل اللقاء طاعة له وانحياشا. فلما انهزم حماد رعى لهم باديس انحياشهم إليه، وسوغ لهم ما غنموه، وعقد للقمان على قومه ومواطنه، وعلى ما يفتحه من البلاد بدعوته. ثم انفرد برياستهم بعد حين بنو دافلتن. ويقال إنه دافلتن بن أبي بكر بن الغلب. وكانت رياستهم لعهد الموحّدين لعطية بن مناد بن العبّاس بن دافلتن، وكان يلقب عطية الحيو. وكانت بينهم لعهده وبين بني عبد الواد حروب، كان متولي كبرها من بني عبد الواد شيخهم لذلك العهد أعدوى بن يكنمن بن القاسم، فلم تزل تلك الفتنة بينهم إلى أن غلبهم بنو عبد الواد اخراً على مواطنهم كما نذكره.

ولما هلك عطية الحيو، قام بأمرهم ابنه العبّاس، وكانت له آخر في الأجلاب على ضواحي المغرب الأوسط. ونقض طاعة الموحدين، إلى أن هلك سنة سبع وستماية، دس عليه عامل تلمسان يومئذ أبو زيد بن بوجان من اغتاله فقتله. وقام بأمرهم من بعده ابنه عبد القوي، فانفرد برياستهم وتوارثها عقبه من بعده كما نذكر. وكان من أشهر بطون بني نوجين هؤلاء يومئذ بنو يدللتن وبنو نمزي وبنو مادون وبنو زنداك وبنو وسيل وبنو قاضي وبنو مامت، ويجمع هؤلاء الستة بنو مدن. ثم شو تيغرين وبنو يرناتن وبنو منكوش، ويجمع هؤلاء الثلاثة بنو رسوغين. ونسب بني زنداك دخيل فيهم، وإنما هم من بطون مغراوة. وبنو منكوش هؤلاء منهم عبد القوي بن العبّاس بن عطية الحيو، هكذا رأيت نسبه لبعض مؤرخي زناتة المنكوشي. وكانت رياسة بني توجين جميعا عند انقراض أمر بني عبد المؤمن لعبد القوي بن العبّاس بن عطية الحيو، وأحيائهم جميعا بتلك المجالات القبلية.

فلما وهن أمر بني عبد المؤمنه وتغلب مغراوة على بسائط متيجة، ثم على جبل وانئريش، نازعهم عبد القوي وقومه أمر وانشريش، وغالبوهم إلى أن غلبوهم عليه،

واستقر في ملكهم. وأوطنه بنو تيغرين وبنو منكوش من أحيائهم، ثم تغلبوا على منداس وأوطنها أحياء بني مدن جميعاً. وكان الظهور منهم لني يدللتن، ورياسة نجي يدللتن لبني سلامة. وبقي بنو يرناتن من بطونهم بمواطنهم الأولى قبلة وانشريش. وكان من أحلاف بني عطية الحيو بنو تيغرين منهم حاضة، وأولاد عزيز بن يعقوس، ويعرفون جميعاً بالحسم. ولما تغلبوا على الأوطان والتلول، وأزاحوا مغراوة عن المدية ووانشريش وتافركنيت، واستأثروا بملكها وملك الأوطان من غربيها: مثل منداس والجعبات وتاوغزوت، ورئيسهم لذلك العهد عبد القوي بن العبّاس والكل لأمره فصار له ملك بدوي لم يفارق فيه سكنى الخيام، ولا إبعاد النجعة، ولا إيلاف الرحلتين. ينتهون في مشاتيهم إلى مصاب والزاب، وينزلون في المصايف بلادهم هذه من التل. ولم يزل هذا شأن عبد القوي وابنه محمد، إنى أن تنازع بنوه الأمر من بعده، وقتل بعضهم بعضا. وتغلب بنو عبد الواد على عامة أوطانهم وأحيائهم، واستبد عليهم بنو يرناتن وبنو يدللتن، فصاروا إلى بني عبد الواد. وبقى أعقابهم بجبل وانشريش، إلى أن انقرضوا كما نذكر.

وكان عبد القوى لما غلب مغرارة على جبل وانسسريش، اختط حصن مرات، بعد أن كان منديل المغراوي شرع في اختطاطه، فبنى منه القصبة ولم يكمله، فأكمله محمد بن عبد القوي من بعدهم. ولما استبد بنو أبى حفص بإفريقية، وصارت لهم خلاله الموحدين، نهض الأمير أبو زكريا إلى المغرب الأوسط، دخلت في طاعته قبائل صنهاجة، وفرت زناتة أمامه. وردد إليهم الغزو، فأصاب منهم. وتقبض في بعض غزواته على عبد القوى بن العبّاس من بنى توجين، فاعتقله بالحضرة. ثم من عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه، فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر ونهض الأمير أبو زكريا بعدها إلى تلمسان، فكان عبد القوي وقومه في جملته. حتى إذا ملك تلمسان، ورجع إلى الحضرة عقد لعبد القوي هذا على قومه ووطنه، وأذن له في اتخاذ الآلة، فكانت أول مراسم العلك لبني توجين هؤلاء. وكانت حالهم مع بني عبد الواد تختلف في السلم والحرب. ولما هلك السعيد على يدي يغمراسن وقومه كما ذكرناه، استنفر يغمراسن سائر أحياء زناتة لغزو، المغرب، ومسابقة بني مرين إليه، فنفر معه عبد القوي في ترمه سنة سبع

وأربعين. وانتهوا إلى تازى، واعترضهم أبو يحيى بن عبد الحق أمير بضي مرين في قومه، فنكصوا وأتبعهم إلى أنكاد، فكان اللقاء، وانكشفت جموع بني بادين، وكانت

الهزيمة التي ذكرناها في أخبار بني عبد الواد. وهلك عبد القوي مرجعه منها في سنته بالموضع المعروف ماحنون من مواطنهم. وتصدى للقيام بأمرهم بعده ابنه يوسف، فمكث في تلك الأمارة أسبوعا. ثم قتله على جدث أبيه أخوه محمد بن عبد القوي، وولى عهد أبيه سابع مواراته. وفر ابنه صالح بن يوسف إلى بلاد صنهاجة بجبال المدية، فأقام بها هو وبنوه. واستقل محمد برياسة بني توجين، واستغلظ ملكه، وكان الفحل الذي لا يقرع أنفه. ونازعه يغمراسن أمره ونهض إلى حربه سنة تسع وأربعين. وعمد إلى حصن تافراكنيت، فنازله وبه يومئذ حافده علي بن زيان بن محمد في عصابة من قومه، فحاصره أياما وامتنعت عليه، فارتحل عنها. ثم تواضعوا أوزار الحرب، ودعاه يغمراسن إلى مثل ما دعا إليه أباه من غزو بني مرين في بلادهم فأجاب. ونهضوا سنة سبع وخمسين، ومعهم مغراوة، فانتهوا إلى كلدامان ما بين تازى وأرض الريف. ولقيهم بعقرب بن عبد الحق في جموعه، فانكشفوا ورجعوا منهزمين إلى بلادهم كما ذكرناه. وكانت بينه بعد ذلك وبين يغمراسن فتن وحروب، فنازله فيها بجبل وانشريش مرات وجاس خلالهم. ولم يقع بعدها بيخهما مراجعة لاستبداد يغمراسن بالملك، وسموه إلى التغلب على زناتة أجمع وبلادهم، وكانوا جميعاً خاشين إلى الدعوة الحفصية. وكان محمد بن عبد القوي كثير الصاغية إلى السلطان المستنصر.

ولما نزل النصارى الإفرنجة بساحل تونس سنة ثمان وستين. وطمعوا في ملك الحضرة، بث المستنصر إلى ملوك زناتة بالصريح فصرفوا وجوههم إليه، وخف من بينهم محمد بن عبد القوي في قومه ومن احتشد من أهل وطنه، ونزل على السلطان بتونس. وأبلى في جهاد العدو، وأحسن البلاء، وكانت له في أيامه معهم مقامات مذكورة، ومواقف عند الله محتسبة معدودة. ولما ارتحل العدو عن الحضرة، أخذ محمد بن عبد القوي في الانصراف إلى وطنه، أسنى السلطان جائزته وعم بالإحسان وجوه قومه وعساكره، وأقطعه بلد مقرة وأوماش من وطن الزاب، وأحسن منقلبه. ولم يزل بعد ذلك متعلقا بطاعته مستظهرا على عدوه بالانحياش إليه. ولما استغلظ بنو مرين على يغمراسن بعد استيلائهم على أمصار المغرب

واستبدادهم بملكه، وصل محمد يده بهم في الاستظهار على يغمراسن، وأوفد ابنه زيان بن محمد عليهم.

ولما نهض يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان سنة سبعين، وأوقع بيغمراسن في

إيسلى من أنكاد الواقعة التي هلك فيها ابنه فارس، نهض إلى محمد بن عبد القوي للقائه. ومرّ في طريقه بالبطحاء، وهي يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها. ولقي يعقوب بن عبد الحق بساحة تلمسان مباهياً بآلته فأكرم يعقوب وفادته، وبر مقدمه. ونازلوها أياما، فامتنعت عليهم وأجمعوا على الإفراج. وتأذن لهم يعقوب بن عبد الحق ليتلومن عليها إلى أن يلحق محمد وقومه ببلادهم، حذرا عليهم من غائلة يغمراسن ففعل، وملأ حقائبهم بأتحافه، وجنب لهم ماية من الجياد العتاق بالمراكب الثقيلة، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب، وعقهم بالصلات والخلع الفاخرة، واستكثر لهم من السلع والفازات والأخبيات والحملان. وارتحلوا، ولحق محمد بن عبد القوي بمكانه من جبل وانشريش، واتصلت حروبه مع يغمراسن، وكثر إجلابه على وطنه، وعيثه في بلاده. وهو مع ذلك مقيم على موالاة يعقوب بن عبد الحق، وإتحافه بالعتاق من الخيل، والمستجاد من الطرف. حتى كان يعقوب إذا اشترط على يغمراسن في مهادنته يجعل سلمهم من سممه، وحربهم من حربه. وبسببهم كان نهوض يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين، لما اشترط عليه ذلك، ولج في قبوله فنهض إليه، وأوقع به بخرزوزة، ثم أناخ عليه بتلمسان. ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي، فلقيه في القصبات، وعاثوا في نواحي تلمسان نهبا وتخريباً. ثم أذن يعقوب محمداً وقومه في الانطلاق إلى بلادهم، وتلوم هو بمكانه من ضواحي تلمسان بمدة منجاتهم إلى مكانهم من وانشريش، حذرا عليهم من اعتراض يغمراسن. ولم يزل شأنهم ذلك إلى أن هلك يغمراسن بشدبوية من بلاد مغراوة، خاتمة إحدى وثمانين وسبعمائة.

وفي خلال استغلاظ بني مرين على بني عبد الواد، استوسق لمحمد هذا ملكه، فتغلب على أوطان صنهاجة بجبال المدية. وأخرج الثعالبة من جبل تيطرى، بعد أن غدر بمشيختهم وقتلهم، فانزاحوا عنه إلى بسائط متيجة وأوطنوها. واستولى محمد على حصن المدية، وهو المسمى بأهله لمدية– بفتح اللام والميم وكسر الدال وتشديد الياء بعدها وهاء النسب آخرها– وهم بطن من بطون صنهاجة. وكار المختط لها بلكين بن زيري. ولما استولى صمد عليها وعلى ضواحيها، أنزل بها أولاد عزيز بن يعقوب من

حشمه، وجعلها لهم موطنا وولاية. وفر بنو صالح ابن أخيه يوسف بن عبد ا أغوي من مكانهم بين صنهاجة، منذ مقتل أبيه يوسف كما ذكرناه. ولحقوا ببلاد الموحدين

بإفريقية، فلقوهم مبرة وتكريما. وأقطعوا لهم بضواحي قسنطينة، وكانوا يعولون عليهم أيام حروبهم وفي مواطن قتالهم، وكان من أظهرهم عمر بن صالح، وابناه صالح ويحيى بن عمر، وحافده يحيى بن صالح بن عمر، في آخرين مشاهير.

وأعقابهم لهذا العهد بنواحي قسنطينة. وفي إيالة الملوك من آل أبي حفص، يعسكرون معهم في غزواتهم، ويبلون في حروبهم، ويقومون بوظائف خدمتهم. وكان الوالي من أولاد عزيز على المدية حسن بى يعقوب، وبنوه من بعده يوسف وعلي، كانت مواطنهم ما بين المدية موطنهم الأول ماحنون. وكان بنو يدللتن أيضا من بني توجين، قد استولوا على حصن الجعبات وقلعة تاوغزوت. ونزل القلعة كبيرهم سلامة بن علي مقيما على طاعة محمد بن عبد القوي وقومه، فاتصل ملك محمد بن عبد القوي في ضواحي المغرب الأوسط ما بين مواطن بني راشد إلى بلاد صنهاجة بنواحي المدية، وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو وجباله إلى أرض الزاب. وكان يبعد الرحلة في مشتاه، فينزل الدوسن ومقرة والمسيلة، ولم يزل دأبه ذلك. ولما هلك يغمراسن سنة إحدى وثمانين وسبعمائة كما ذكرناه، استجدت الفتنة بين عثمان ابنه، وبين محمد بن عبد القوي، فنهد إليه عثمان في جموعه من بني عبد الواد والعساكر سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، فحاصره بجبل وانشمريش وامتنع عليه، فعاث في نواحي وطنه وقفل إلى تلمسان. وهلك محمد بن عبد القوي على إثر ذلك سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وولي من بعده ابنه سيد الناس فلم تطل مدة ملكه. وقتله أخوه موسى لسنة أو نحوها من بعد مهلك أبيه. وأقام موسى بن محمد في أمارة بني توجين نحو من عامين.

وكان أهل مرات من أشد أهل وطنه شوكة وأقواهم غائلة، فحدثته نفسه أن يستلحم مشيختهم ويريح نفسه من محاذرتهم، فأجمع لذلك ونزلها ونذروا بشأنه ورأيه فيهم، فاستماتوا جميعا وثاروا به فقاتلهم. ثم انهزم مثخناً بالجراحة وألجأوه إلى مهاوي الحصن، فتردى منها وهلك. وولي من بعد عمر ابن أخيه إسماعيل بن محمد مدة أربعة أعوام. ثم غدر به أولاد عمه زيان بن محمد فقتلوه، وولوا كبيرهم ابن زيان، وكان حسن الولاية عليهم.

يقال ما ولي فيهم بعد محمد مثله. وفي خلال هذه الولاية استغلظ عليهم بنو عبد الواد، واشتدت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم بعد مهلك أبيهم محمد، فنهض اليهم سنة ست وثمانين وسبعمائة. وحاصرهم بجبل وانشريش، وعاث في أوطانهم، ونقل زروعها

إلى مازونة حيز غلب عليها مغراوة. ثم نازل حصن تافركنيت وملكها، بمداخلة القائد بها غالب الخصي مولى سيد الناس بن محمد، وقفل إلى تلمسان. ثم نهض إلى أولاد سلامة بقلعة تاوغزوس، وامتنعوا عليه مرارا، ثم أعطوه اليد على الطاعة ومفارقة بني محمد بن عبد القوي، فنبذوا لهم العهد، وصاروا إلى إيالة عثمان بن يغمراسن. وفرضوا لهم المغارم على بني يدللتن. وسلك عثمان بن يغمراسن مسلك التضريب بين قبائل بني توجين وتحريضهم على إبراهيم بن زيان أميرهم، فغدا عليه زكدان بن أعجمى شيخ بني مادون وقتله بالبطحاء في إحدى غزواته لسبعة أشهر من ملكه. وولي من بعده موسى بن زرارة بن محمد بن عبد القوي، بايع له بنو تيغرين، واختلف عليه سائر بني توجين، فأقام بعض سنة. وعثمان بن يغمراسن في خلال هذا يستألف بني توجين شعبا فشعبا إلى أن نهض إلى جبل وانشريش فملكه. وفر أمامه موسى بن زرارة إلى نواحي المدية، وهلك في مفره ذلك.

ثم نهض عثمان إلى المدية سنة ثمان وثمانين وسبعمائة بعدها، فملكها بمداخلة لمدية من
قبائل صنهاجة. غدروا بأولاد عزيز وأمكنوه منها، ثم انتقضوا عليه لسبعة أشهر ورجعوا إلى إيالة أولاد عزيز، فصالحوا عثمان بن يوسف إلى الإتاوة والطاعة كما كانوا مع محمد بن عبد القوي وبنيه، فملك عثمان بن يغمراسن على عامة بلاد بني توجين. ثم شغل بما دهمه من مطالبة بني مرين أيام يوسف بن يعقوب، فولى على بني توجين من بني محمد بن عبد القوي أبو بكر بن إبراهيم بن محمد مدة من عامين، أخاف فيها الناس، وأساء السيرة. ثم هلك فنصب بنو تيغريى بعده أخاه عطية المعروف بالأصم، وخالفهم أولاد عزيز وجميع قبائل توجين، فبايعوا ليوسف بن زيان بن محمد. وزحفوا إلى جبل وانشريش، فحاصروا عطية وبني تيغرين عاما أو يزيد. وكان يحيى بن عطية كبير بني تيغرين هو الذي تولى البيعة لعطية الأصم. فلما اشتد بهم الحصار، واستفحل أمر يوسف بن يعقوب وبني مرين، نزع يحيى إلى بني مرين. وقدم على يوسف بن عبد الحق بمكانه من حصار تلمسان. ورغبه في ملك جبل وانشريش، فبعث معه الجيوش لنظر أخيه أبي سرحان ثم

أخيه أبي يحيى. وكان نهوض أبي يحيى سنة إحدى وسبعماية، فتوغل في قاصية الشرق. ولما رجع صمد إلى جبل وانشريش، فهدم صونه وقفل. ونهض ثانية إلى بلاد بني توجين، فشردهم عنها. وأطاعه أهل تافركنيت. ثم

انتهى إلى المدية، فافتتحها صلحا واختط قصبتها. ورجع إلى أخيه يوسف بن يعقوب، فانتقض أهل تافركنيت بعد صدوره عنهم. ثم راجع بنو عبد القوي بصائرهم في التمسك بالطاعة. ووفدوا على يوسف بن يعقوب، فتقبل طاعتهم وأعادهم إلى بلادهم وأقطعهم. وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي، وجعل وزارته ليحيى بن عطية فغلبه على دولته، واستقام ملكه. وهلك خلال ذلك، فعقد يوسف بن يعقوب مكانه لمحمد بن عطية الأصم. واستقام على طاعته وقتا، ثم انتقض بين يدي مهلكه سنة ست، وحمل قومه على الخلاف.

ولما هلك يوسف بن يعقوب، وتجافى بنو مرين من بعدها لبني يغمراسن عن جميع الأمصار التي تملكوها بالمغرب الأوسط، فاستمكن بنو يغمراسن منها، ودفعوا المتغلبين عليها. ولحق الفل من أولاد عبد القوي ببلاد الموحدين، فحلوا من دولتهم محل الإيثار والتكرمة. وكان للعباس بن محمد بن عبد القوي مع الملوك من آل أبي حفص مقام الخفة والمصافاة إلى أن هلك، وبقي عقبه في جند السلطان. ولما خلا الجو من هؤلاء المرسخين، تغلب على جبل وانشريش من بعدهم كبير بني تيغرين، وهو يحيى بن عطية بن يوسف بن المنصور. ويزعمون أنهم دخلاء في بني تيغرين، وأن المنصور هو أحمد بن محمد من أعقاب يعلى بن محمد سلطان بني يفرن. فأقام بحيى بن عطية هذا في رياستهم أياما، ثم هلك، وقام بأمره من بعده أخوه عثمان بن عطية. ثم هلك وولي من بعده ابنه عمر بن عثمان. واستقل مع قومه بجبل وانشريش. واستقل أولاد عزيز بالمدية ونواحيها ورياستهم ليوسف وعلي بن حصان بن يعقرب، والكل في طاعة أبي حمّو سلطان بني عبد الواد بما غلبهم على أمرهم، وانتزع الرياسة من بني عبد القوي أمرائهم، إلى أن خرج على السلطان أبي حمّو محمد ابن عمه يوسف بن يغمراسن. ولحق بأولاد عزيز فبايعوه. وداخلوا في شأنه عمر بن عثمان كبير بنى تيغرين وصاحب جبل وانشريش، فأجابهم وأصفق معهم سائر الأعشار ومنكوشة وبنو يرناتن. وزحفوا مع محمد بن يوسف إلى السلطان أبي حمّو في معسكره بتهل ففضوه، وكان من شأن فتنته معهم ما ذكرناه في أخبار بني عبد الواد، إلى أن هلك السلطان أبي حمو. وولي ابنه أبو

تاشفين، فنهض إليهم في العساكر. وكان عمر بن عثمان قد لحقته الغبرة من مخالصة محمد بن يوسف لأولاد عزيز دون قومه، فداخل السلطان أبا تاشفين

لي الانحراف عنه. فلما نزل بالجبل، ولحق محمد بن يوسف بحصن توكال ليمتنع به، نزع عمر بن عمان، ولحق بأبي تاشفين، ودله على مكامن الحصن، فدلف إليه أبو تاشفين وأخذ بمخنقه. وافترق عن محمد بن يوسف أولياؤه وأشياعه، فتقبّضعليه وقيد أسيرا إلى السلطان أبي تاشفين، فقتل بين يديه قعصاً بالرماح سنة تسع عشرة. وبعث برأسه إلى تلمسان، وصلب شلوه بالحصن الذي امتنع به أيام انتزائه. ورجع أمر وانشريش إلى عمر بن عثمان هذا، وحصلت ولايته لأبي تاشفين إلى أن هلك بتلمسان في بعض أيامهم مع بني مرين، أعوام نازلهم السلطان أبو الحسن كما ذكرنا في أخبار الحصار.

ثم لما تغلب بو مرين على الغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن ابنه

نصر بن عمر على الجبل، وكان خير وال وفاء بأزمة الطاعة، وخلوصاً قي الولاية، وصدقاً في الانحياش، وإحاناً للملكة، وتوفيرا للجباية. ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان، وتطاول الأعياص من زناتة الى استرجاع ملكهم، انتزى بضواحي المدية من آل عبد القوي عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي، وناغى الخوارج في دعوتهم، واشتمل عليه بنو عزيز هؤلاء وبنو يرناتن جيرانهم، وزحف إلى جبل وانشريش لينال من الحشم مديلي أمرهم والمداخلين لعدوهم في قطع دابرهم، وكبيرهم يومئذ نصر بن عمر بن عثمان. وبايع نصر لمسعود بن بو زيد بن خالد بن محمد بن عبد القوي من أعقابهم، خلص إليه من جملة عدي بن يوسف حذرا على نفسه من أصحابه. وقاتلهم عدي وقومه، فامتنعوا عليهم ودارت بينهم حروب كانت العاقبة فيها والظهور لنصر بن عمر، قومه. ثم دخل عدي فى جملة السلطان أبى الحسن لما خلص من تونس إلى الجزائر، وبقى مسعود بينهم وملكه أبو سعيد بن عبد الرحمن لما ملك بتلمسان هو وقومه، فلم يزل هنالك إلى أن غلبه السلطان أبو عنان، فصار في جملته بعد أن فر إلى زواوة. واستنزله منها ونقله إلى فاس، وانقضى ملكهم ودولتهم، وانقطع أثر بني محمد بن عبد القوى وأقام نصر بن عثمان في ولاية جبل وانشريش وعقد له السلطان أبو عنان عليه سائر دولته. ولم يزل قائما بدعوة بني

مرين من بعده إلى أن غلبهم السلطان أبر حمّو الأخير، وهو موسى بن يوسف على الأمر، فأعطاه نصر الطاعة. ثم اضطرمت نار الفتنة بين العرب وبين بني عبد الواد أعوام سبعين وسبعماية. وقاموا بدعوة أبي زيان ابن

السلطان أبي سعيد عم أبو حمّو، فانحاش نصر بن عمر إليهم، وأخذ بدعوة الأمير أبي زيان حينا. ثم هلك أيام تلك الفتنة، وقام بأمرهم من بعده أخوه يوسف بن عمر متقبلاً مذاهبه. وهو لهذا العهد، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، صاحب جبل وانشريش، وحاله مع أبي حمّو مختلف في الطاعة والخلاف. والله مالك الأمور لا رب غيره.

بنو سلامة

الخبر عن بني سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت ورؤساء بني يدللتن

من بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وأوليتهم ومصائرهم

كان بنو يدللتن هؤلاء من شعوب بني توجين وأشدهم شوكة وأوفرهم عدداً وكان

لهم ظهور من بين سائر تلك البطون. وكان بنو عبد القوي ملوك بني توجين يعرفون لهم ذلك، ويوجبون لهم حقه. ولما دخلوا إلى التلول بعد انقراض بني يلومي وبني ومانوا، نزل بنو قاضي منهم وبنو مادون بأرض منداس، فأوطنوها. وجاء بنو يدللتن على أثرهم، فأوطنوا الجعبات وتاوغزوت، ورياستهم يومئذ لنصر بن سلطان بن عيسى. ثم هلك فقام بأمرهم ابنه مناد بن نصر، ثم أخوه علي بن نصر من بعده، ثم ابنه إبراهيم بن علي من بعده. ثم هلك وقام بأمرهم أخوه سلامة بن علي، على حين استفحل ملك عبد القوي وبنيه، فاستفحل أمره هو في قومه، واختط القلعة تاوغزوت المنسوبة إليه وإلى بنيه، وكانت من قبل رباطا لبعض المنقطعين من عرب سويد. ويزعم بنو سلامة هؤلاء أنهم دخلاء في نسب توجين، وأنهم من العرب، ثم من بني سليم بن منصور. وجاء جدهم عيسى أو سلطان نازعا عن قومه لدم أصابه فيهم، فخلطه لشي بني يدللتن من بني توجين ينفسه، وكفل بنية من بعده، فكانت له سببا في رياشه على بني يدللتن وبنيه بعده.

ولما هلك سلامة بن علي قام بأمرهم من بعده ابنه يغمراسن بن سلامة، على حين استغلظ بنو عبد الواد على بني توجين بعد مهلك محمد بى عبد القوي سلطانهم الأكبر.فكان عثمان بن يغمراسن يتردد إلى بلادهم بالغزو، ويطيل فيها العيث. ونازل في بعض غزواته قلعتهم هذه، وبها يغمراسن،

فامتنع عليه. وخالفه يوسف بن يعقوب وبنو مرين تلمسان، فأجفل عن القلعة. وسابق بني مرين إلى دار ملكه. واتبعه يغمراسن بن

خريطة

سلامة مغيرا في أعقابه، فكر إليه بالمكان المعروف بتليوان. ودارت بينهم هنالك حرب هلك فيها يغمراسن بن سلامة، وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن سلامة. فأذعن لطاعة عثمان بن يغمراسن، وخالف بني محمد بن عبد القوي، وجعل الأتاوة على قومه ووطنه لملوك بني عبد الواد، فلم تزل عليهم لملوك تلمسان. ولحق أخوه سعد بالمغرب، وجاء في جملة السلطان يوسف بن يعقوب في غزوته التي حاصر فيها تلمسان حصاره الطويل، فرعى لسعد لن سلامة هجرته إليه، وولاه على بنى يدللتن والقلعة. وفر أخوه محمد بن سلامة، فلحق بجبل راشد. وأقام هنالك إلى أن هلك يوسف بن يعقوب، ورجع أمر المغرب الأوسط لشي عبد الواد، فوضعوا الأتاوات على بني توجين وأصاروهم للجباية. ولم يزل سعد على ولايته إلى أن هلك أبو حمّو وولي أبو تاشفين، فسخط سعداً. وبعث عن أخيه محمد من جبل راشد، فولاه مكانه.

ولحق سعد بالمغرب، وجاء في جملة السلطان أبي الحسن. ودخل أخوه محمد

مع أبي تاشفين، فانحصر بتلمسان. وولي سعد بن سلامة مكانه، ثم هلك محمد في بعض أيام الحصار وحروبه. ولما انقرض أمر بني عبد الواد رغب سعد من السلطان تخلية سبيله لقضاء فرضه، فحج وهلك مرجعه من الحج في طريقه. وعهد إلى السلطان أبي الحسن واستوصاه ببنيه، على لسان وليه عريف بن يحيى كبير بني سويد. فولى السلطان أبو الحسن ابنه سليمان بن سعد على بني يدللتن والقلعة. وانقرض أمر السلطان أبي الحسن، وعاد الأمر إلى أبي سعيد وأبي ثابت ابني عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، فكانت بينه وبينهم ولاية وانحراف. وكان أولياؤهم من العرب بني سويد من زكبة بما كانوا جيرانهم في مواطنهم من ناحية القبلة، فطمع ونزمار بن عريف شيخهم في التغلب على وطن بني يدللتن، ومانعه دونه سليمان هذا وبالغ في دفاعه، إلى أن ملك السلطان أبو عنان بلاد المغرب الأوسط. ورعى لونزمار وابنه عريف حق انحياشهم إليه وهجرنهم إلى قومه، فأقطع ونزمار بن عريف القلعة وما إليها وجباية بني يدللتن أجمع. والحق سليمان بن سعد بن سلامه في جنده ووجوه عسكره، إلى أن هلك

السلطان وعاد الأمر لبني عبد الواد على يد أبي حمّو الأخير، فولي سليمان على القلعة وعلى قومه. واستغلظ العرب عليه، فاستراب سليمان هذا ونذر بالشر منه، فلحق بأولاد عريف. ثم راجع الطاعة، فتقبّضعليه واغتاله، وذهب دمه هدرا. ثم غلبه العرب على عامة المغرب

الأوسط، وأقطع القلعة وبني يدللتن لأولاد عريف استئلافاً لهم. ثم أقطعهم بني مادون ثم منداس، فأصبحت بطون توجين كلهما خولا لسويد وعبيداً لجبايتهم، إلا جل وانشريش فإنه لم يزل لبني تيغرين، والوالي عليهم يوسف بن عمر منهم كما قلناه. ونظم أبو حمّو أولاد سلامة في جنده، وأثبتهم في ديوانه، وأقطع القصبات من نواحي تلمسان في عطائهم. وهم على ذلك لهذا العهد. ولته الخلق والأمر. ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

الخبر عن بني يرناتن إحدي بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم من التغلب والأمارة وذكر أوليتهم ومصائرهم:

كان بنو يرناتن هؤلاء، من أوفر قبائل بني توجين وأعزهم جانباً، وأكبرهم صيتا.

ولما دخل بنو توجين إلى تلول المغرب الأوسط، أقاموا بمواطنهم الأولى ما بين ماحنون وورينة. ثم يعودون من القبلة يجولون جانبي نهر واصل من أعلى وادي شلف. وكانت رياستهم في بني نصر بن علي بن تميم بن يوسف بن بونوال. وكان شيخهم مهيب بن نصر منهم. وكان عبد القوي بن العبّاس وابنه محمد أمراء بني توجين، يختصونهم بالأثرة والتجلة لمكانهم من قومهم، وما يؤنسون من عظيم عنائهم. وكان

محمد بن عبد القوي في سلطانه يولي عليهم من الحشم أولاد عزيز. وكان واليهم لعهده وعهد بنيه عبو بن حسن بن عزيز. وقد كاد أصهر مهيب بن نصر إلى عبد القوي في ابنتة، فأنكحه إياها وولدت له نصر بن مهيب، فشرفت خولته بمحمد بن عبد القوى وعلا كعبه في أمارته. تم ولي بعده ابنه علي بن نصر، وكان له من الولد نعر وعنتر وآخرون يعرفون بامهم، واسمها تاسرغينت وولي بعده ابنه نصر بن علي، فطال أمد أمارته في قومه. واختلف بنو عبد القوى وغلبهم بنو عبد الواد على ما بأيديهم، فصرفت ملوك زناتة وجه العناية إليه، فبعد صيته وعرف بنوه من بعده بشهرته، وكان ولوداً. فيقال أنه خلف ثلاثة عشر من البنين ما منهم إلا صاحب حرب أو مقنب. ومن مشاهيرهم عمر الذي قتله السلطان أبو الحسن بمرات حين سعى به أنه داخل في اغتياله، ففر وأدرك، فقتل بمرات. ومنهم منديل الذي متله بنو تيغرين أيام ولوا علي بن الناصر وقتلوا معه عبو بن حسن بن عزيز، ومنهم عنان، ومات قتيلا في حصار تلمسان أيام أبي تاشفين. ومنهم مسعود ومهيب وسعد وداود وموسى ويعقوب والعباس ويوسف في آخرين معروفين عندهم. هذا شأن أولاد نصر لى علي بن نصر بن مهيب.

وأما ولد عنتر أخيه، فكان منهم أبو الفتوح بن عنتر. ثم من ولده عيسى بن أبي الفتوح فكان، رئيساً على بني أبيه. وكانت إحدى وصائفهم سقطت بدارعثمان بن يغمراسن، وادعت الحمل من سيدها أبو الفتوح، وجاءت بأخ لعيسى، سمي معرفا، فربي بدارهم، واستوزره أبو حمّو وابنه من بعده. وبلغ المبالغ في دولتهم وكاد يدعى معرف الكبير. ولحق به أيام رياسته في دولة أبي حمّو الأول أخوه عيسى بن أبي الفتوح مغاضباً لقومه، فسعى له في الولاية على بني راشد وجباية أوطانهم. وأنزله بلد سعيدة، فكانت له بها أمارة. وكان له من الولد ألو بكر وعبو وطاهر وونزمار. وعندما غلب بني مرين على بني عبد الواد ولاهم السلطان أبو الحس على بني يرناتن متداولين. وأما ولد تاسرغينت من بني علي بن نصير بن مهيب، فلم يكن لهم ذكر في رياسة قومه. إلا أن بعض وصائفهم سقطت أيضاً إلي دار أبي تاشفين، فولدت غلاما يعرف بعطية بن موسى. نشأ في دارهم، فنسب إلى بني تاسرغينت مولاه وتناوله النجابة فى خدمتهم، فولوه الأعمال النبيهة.

وهو لهذا العهد عامل أبي حمّو الأخير على شلف وما اليه.و قد غلب العرب لهذا العهد على وطن بني يرناتن، وملكوا عليهم يعود وماحنون. وبقيت صبابتهم

بجبل ورينة. وعليهم لهذا العهد أمير من ولد نصر بن علي بن نصر بن مهيب، يعطون المغرم للسلطان ويصانعون العرب بالأتاوة. وبيد الله تصاريف الأمور.

بنو مرين وأنسابهم وشعوبهم

الخبر عن بني مرين وأنسابهم وشعوبهم وما تأثلوا بالمغرب من السلطان والدولة التي استتبعت سائر زناتة وانتظمت كراسي الملك بالعدوتين وأولية ذلك ومصائره

قد ذكرنا أن بني مرين هؤلاء من شعوب بني واسين، وذكرنا نسب واسين في زناتة، وذكرنا أنهم بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يذر بن يخفت بن عبد الله بن ورتنيص بن المعز بن إبراهيم بن سحيك بن واسين، وأنهم إخوة بني يلومى

ومديونة. وربما يشهد بذلك جوار مواطنهم قبل الملك ما بين صا وملوية. وذكرنا كيف اقتسموا الضاحية والقفر مع أخوانهم بني بادين بن محمد، وكيف اتصلت فتنتهم معهم سائر أيامهم. وكان الغلب أولا لبني بادين بن محمد لكثرة عددهم، فإنهم كما ذكرنا خمسة بطون: بنو عبد الواد وتوجين ومصاب، وبنو زردال وإخوانهم بنو راشد بن محمد. وكانوا أهل تلول الغرب الأوسط دونهم. وبقي هذا الحي من بني مرين بمجالات القفر من فيكيك إلى سجلماسة إلى ملوية. وربما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب. ويذكر نسابتهم أن الرياسة فيهم قبل تلك العصور كانت لمحمد بن ورزين بن فكوس بن كوماط بن مرين، وأنه كان لمحمد إخوة آخرون يعرفون بأمهم تنالفت. وكان بنو عمه ونكاسن بن فكوس. وكان لمحمد من الولد سبعة: شقيقان وهما حمامة وعسكر. وأبناء علات أمهات أولاد، وهم سنكمان وسكميان وسكم ووراغ وقزونت وتسمى هذه الخمسة في لسانهم تيريعين، ومعناه عندهم الجماعة.

يزعمون أن محمدا لما هلك قام بأمره في قومه ابنه حمامة، وكان الأكبر. ثم من

بعده أخوه عسكر، وكان له من الولد ثلاثة: نكوم وأبو يكنى، ويلقب المخضب، وعلي ويلقب لاعدر. ولما هلك قام برياسته فيهم ابنه المخضب، فلم يزل أميراً عليهم إلى أن كان أمر الموحدين. وزحف عبد المؤمن إلى تاشفين بن علي بن يوسف، فحاصره بتلمسان. وسرح الشيخ أبا حفص في العساكر لحرب زناتة بالمغرب الأوسط، وجمع له بنر بادين كلهم وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة، ففض الموحدون جموعهم واستلحموا أكثرهم. ثم راجع بنو يلومي وبنو بادين طاعتهم، وأخلص بنو عبد الواد في خدمتهم ونصبحتهم. ولحق بنو مرين بالقفر، فلما غلب عبد المؤمن على وهران واستولى على أموال لمتونة وبعث ذخيرتهم بتلك الغنائم إلى جبل تينملل حيث داره، ومن أين كان منبعث الدعوة. وبلغ الخبر إلى بني مرين بمكانهم من الزاب، وشيخهم يومئذ المخضب بن عسكر، فأجمع اعتراضها بقومه. ولحق العير بوادي تلاغ، فاحتازها من ايدي الموحدين. واستنفر عبد المؤمن لاستنقاذها أولياءه من زناتة، وسرحهم مع الموحّدين لذلك، فأبلى بنو عبد الواد فيها بلاء

حسنا. وكان اللقاء في فحص مسون، وانكشف بنو مرين، وقتل المخضب بن عسكر، واكتسح بنو عبد الواد حللهم، وذلك سنة أربعين وخمسماية. فلحق بنو مرين بعدها بصحرائهم ومجالات قفرهم، وقام بأمرهم من

بعد المخضب أبو بكر ابن عمه حمامة بن محمد إلى أن هلك، فقام بأمره ابنه محيو، ولم يزل مطاعا فيهم إلى أن استنفرهم المنصور لغزاة الأركة، فشهدوها وأبلوا البلاء الحسن. وأصابت محيو يومئذ جراحة انتقضت عليه مرجعه منها، فهلك بصحراء الزاب سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وخمسماية. وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده وبقائها في عقبه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن أمارة عبد الحق بن محيو المستقرة فع بنيه وأمارة ابنه عثمان من بعده ثم أخيه محمد بن عبد الحق بعدهما وما كان فيها من الأحداث

لما هلك محيو بن أبي بكر بن حمامة من جراحته كما قلناه، وكان له من الولد

عبد الحق ووسناف ويحياتن. وكان عبد الحق أكبرهم، فقام بأمر بني مرين، وكان خير أمير عليهم قياما بمصالحهم وتعففا عما في أيديهم، وتقويما لهم على الجادة ونظرا في العواقب، واستمرت أيامهم. ولما هلك الناصر رابع خلفاء الموحّدين بالمغرب سنة عشر وستماية مرجعه من غزاة العقاب، وقام بأمر الموحّدين من بعده ابنه يوسف المستنصر، نصبه الموحدون للأمر غلاما لم يبلغ الحلم. وشغلته أحوال الصبا وجنونه عن القيام بالسياسة وتدبير الملك، فأضاع الحزم وأغفل الأمور. وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه. ونفس عن مخنقهم من قبضة الاستبداد والقهر، فضاعت الثغور وضعفت الحامية. وتهاونوا بأمرهم، وفشلت ريحهم. وكان هذا الحي لذلك العهد بمجالات القفار، من فيكيك إلى صا وملوية كما قدمناه من شأنهم. وكانوا يطرقون في صعودهم إلى التلول والأرياف منذ أول دولة الموحّدين وما قبلها جهات كرسيف إلى وطاط، ويأنسون بمن هنالك من بقايا زناتة الأولى: مثل مكناسة بجبال تازى، وبني يرنيان من مغراوة الموطنين قصور وطاط من أعالي ملوية. فيتقلبون بتلك الجهات عام المربع والمصيف، وينحدرون إلى مشاتيهم بما امتاروه من الحبوب لأقواتهم. فلما رأوا من اختلال بلاد المغرب ما رأوا انتهزوا فيها الفرصة، وتخطوا إليها القفر، ودخلوا ثناياه، وتفرقوا في جهاته. وأرجفوا بخيلهم وركابهم على

ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم. ولجأت الرعايا إلى معتصماتهم ومعاقلهم، وكثر شاكيهم. وأظلم الجو بينهم

خريطة

وبين السلطان والدولة، فآذنوهم بالحرب وأجمعوا لغزوهم وقطع دابرهم. وأغرى الخليفة المستنصر عظيم الموحّدين أبا علي بن وانودين بجميع العساكر والحشود من مراكش، وسرحه إلى السيد أبي إبراهيم ابن أمير الموحّدين يوسف بن عبد المؤمن بمكانه من أمارة فاس. وأوعز إليه أن يخرج لغزو بني مرين، وأمره أن يثخن ولا يستبقي. واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوية، فتركوا أثقالهم بحصن تازوطا، وصمدوا إليهم. والتقى الجمعان بوادي نكور، فكان الظهور لبني مرين والدبرة على الموحدين. وامتلأت الأيدي من أسلابهم وأمتعتهم، ورجعوا إلى تازى وفاس عراة يخصفون عليهم من ورد النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشغلة يوارون به سوءاتهم لكثرة الخصب عامئذ، واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقلا. حتى لقد سميت الواقعة يومئذ بعام المشغلة.

وصمد بنو مرين بعدها إلى تازى، ففلوا حاميتها أخرى. ثم اختلفت بنو محمد ورؤساؤهم وانتبذ عنهم من عشائرهم بنو عسكر بن محمد، لمنافسة وجدوها في أنفسهم من استقلال بني عمهم حمامة بن محمد بالرياسة دونهم، بعد أن كان أومض عندهم منها في عسكر وابنه المخضب إيماض من أخلف بارقه. فحالفوا عبد الحق أميرهم وقومه إلى مظاهرة أولياء الموحدين، وحامية المغرب من قبائل رياح الموطنين بالهبط وأزغار لحديث عهدهم بالتوحش والعز منذ إنزال المنصور إياهم بذلك القطر من أفريقية، فتحيزوا إليهم وكاثروهم على قومهم.

وصمدوا جميعا للقاء بني مرين سنة أربع عشرة، ودارت بينهم حرب تولى الصبر مقامها. وهلك فيها أميرهم عبد الحق وكبير بنيه إدريس. وتذامر لمهلكها بنو مرين. وجلى في تلك الحومة حمامة بن يصليتن من بني عسكر، والأمير ابن محيو السكمي. فانكشفت رياح آخرا، وقتل منهم أبطال. وولى بنو مرين عليهم بعد مهلك عبد الحق ابنه عثمان تلو إدريس، وشهرته بينهم أدرغال، ومعناه برطانتهم الأعور. وكان لعبد الحق من الولد عشرة، تسعة ذكور وأختهم ورتطليم: فإدريس وعبد الله ورحو لامرأة من بني علي اسمها سوط النساء، وعثمان ومحمد لامرأة من بني ونكاسن اسمها النوار بنت

تصاليت، وأبو بكر لامرأة من بني تنالفت وهي تاغزونت بنت أبي بكر بن حفص، وزيان لامرأة من

بني ورتاجن، وأبو عياد لامرأة من بني دللو إحدى بطون عبد الواد واسمها أم الفرج، ويعقوب أم اليمن بنت محلى من بطوية. وكان أكبرهم إدريس الهالك مع أبيه عبد الحق، فقام بأمر بني مرين من بعد عبد الحق ابنه عثمان، بايعه لوقته حمامة بن بصليتن ولمير بن محيو ومن إليهما من مشيخة قومهما. واتبعوا مهزمة رياح وأثخنوا فيهم. وثار عثمان بأبيه وأخيه حتى شفا نفسه منهم ولاذوا بالسلم، فسالمهم على أتاوة يؤدونها إليه وإلى قومه كل سنة. ثم استشرى من بعد ذلك داء بني مرين وأعضل خطبهم، وكثر الثوار بالمغرب، وامتنع عامة الرعايا عن المغرم، وفسدت السابلة. واعتصم الأمراء والعمال من السلطان فمن دونه بالأمصار والمدن، وغلبوا أولئك على الضاحية. وتقلص ظل الحكام عن البدو جملة. وافتقد بنو مرين الحامية دون الوطن والدفاع، فمدوا إلى البلاد يداً. وسار بهم أميرهم أبو سعيد عثمان بن عبد الحق في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه، ويضع المغارم على أهله حتى دخل أكثرهم في أمره، فبايعه من الطواعن الشاوية والقبائل الآهلة: هوارة وزكارة، ثم تسول ومكناسة، ثم بطوية وفشتالة، ثم سدراتة وبهلولة ومديونة. ففرض عليهم الخراج وألزمهم المغارم، وفرق فيهم العمال. ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس وتازى ومكناسة وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها إليه على رأس كل حول، على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم. ثم غزا ظواعن زناتة سنة ى ين، وأثخن فيهم حتى أذعنوا، وقبض أيديهم عما امتدت إليه من الفساد والنهب. وعطف بعدها على رياح أهل أزغار والهبط وأثار به بأبيه، فأثخن في كلم وأبادهم. ولم يزل دأبه ذلك إلى أن هلك باغتيال علجة سنة سبع وثلاثين.

وقام بأمر بني مرين من بعده أخوه محمد بن عبد الحق، فتقبل سنن أخيه في

تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم والوضائع من ظواعنه وبدوه وسائر رعاياه. وبعث الرشيد أبا محمد بن وانودين لحربهم. وعقد له على مكناسة، فدخلها وأجحف بأهلها في المغارم. ثم نزل بنو مرين بتيجدوغير من ضواحيها، فنادى في عساكره وخرج إليهم، فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين. وبارز محمد بن إدريس بن عبد

الحق قائدا من الروم، واختلفا ضربتين هلك العلج بإحداهما، وانجرح محمد في وجهة بالأخرى. واندمل جرحه، فصار أثر في وجهه لقب من أجله أبا ضربة. ثم شذ بنو مرين على الموحدين، فانكشفوا ورجع ابن وانودين إلى مكناسة

مفلولاً وبقي بنو عبد المؤمن أثناء ذلك في مرض من الأيام، وتثاقل عن الحماية. ثم أومضت دولتهم اخرا إيماض الخمود. وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستماية، وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد، وبايعه أهل المغرب، انصرفت عزائمه إلى غزو بني مرين وقطع أطماعهم عما سمت إليه من تملك الوطن، فأغزى عسكر الموحّدين لقتالهم، ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الروم. فنهضوا سنة اثنتين وأربعين في جيش كثيف يناهز عشرين ألفا فيما زعموا. وزحف إليهم بنو مرين بوادي ياباش، وصبر الفريقان، وهلك الأمير محمد بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الروم. وانكشفت بنو مرين واتبعهم الموحدون، ودخلوا تحت الليل، فلحقوا بجبال غياثة من نواحي تازى واعتصموا بها أياما. ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء، وولوا عليهم أبا يحيى بن عبد الحق، فقام بأمرهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دولة الأمير أبي يحيي بن عبد الحق مديل الأمر لقومه بني مرين وفاتح الأمصار ومقيم الرسوم الملوكية من الآلة وغيرها لمن بعده من أمرائهم:.

لما ولي أبو يحيى بن عبد الحق أمر بني مرين سنة اثنتين وأربعين، كان من أول ما

ذهب إليه ورآه من النظر لقومه، أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين عشائر بني مرين. وأنزل كلا منهم في ناحية تسوغها سائر الأيام طعمة. فاستركبوا الرجل أتباعهم، واستلحقوا من غاشيتهم، وتوفرت عساكرهم. ثم نبضت نار المنافسة بين أحيائهم، وخالف بنو عسكر جماعتهم، وصاروا إلى الموحدين، فحرضوهم على أبي يحيى بن عبد الحق وبني حمامة وأغروهم بهم. وبعثوا الصريخ إلى يغمراسن بن زيان، فوصل في قومه إلى فاس. واجتمعوا جميعا إلى قائد الموحدين. وأعطوا الرهن على صدق البلاء في الأمير أبي يحيى وأتباعه. وصمدوا إليه حتى انتهوا إلى ورغة، ثم إلى كرت. وأعجزهم فانكفوا راجعين إلى فاس. ونذر يغمراسن بغدر الموحدين، فخرج في قومه مع أوليائه بني عسكر. وعارضهم الأمير أبو يحيى بوادي سبو، فلم يطق حربهم. ورجع عنهم عسكر الموحّدين بما صرخ في معسكرهم من موت الخليفة السعيد. ثم بعثوا إليهم لملاطفتهم في الفيئة إلى الطاعة

ومذاهب الخدمة، القائد عنبر الخصي مولى الخليفة في حصة من الروم والناشبة، فتقبّضعليهم بنو عسكر وتمسكوا بهم في رهنهم.

وقتلوا كافة النصارى، فأطلق أبناءهم ولحق يغمراسن وقومه بتلمسان. ثم رجع بنو عسكر إلى ولاية أميرهم أبي يحيى. واجتمع بنو مرين لشأنهم وتملكوا الأعمال. ثم مدوا عينهم إلى تملك الأمصار، فنزل أبو يحيى بجملته جبل زرهون. ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكريا بن أبي حفص صاحب أفريقية، لما كان يومئذ على دعوته وفي ولايته، فحاصرها وضيق عليها بقطع المرافق وترديد الغارات ومعاودة الحرب، إلى أن أذعنوا لطاعته، فافتتحها صلحا بمداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعميها أبي الحسن بن أبي العافية.

وبعثوا بيعتهم إلى الأمير أبي زكريا، وكانت من إنشاء أبي المطرف بن عميرة،

وكان قاضيا فيهم يومئذ، فأقطع السلطان ليعقوب ثلث جبايتها. ثم أحبس الأمير أبو يحيى بن عبد الحق من نفسه الاستبداد، ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة. وبلغ الخبر إلى السعيد بتغلبه على مكناسة وصرفها إلى دعوة ابن أبي حفص، فوجم لها وفاوض الملأ من أهل دولته في أمره، وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئا فشيئا: فابن أبي حفص اقتطع أفريقية. ثم يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الأوسط، وأقاموا فيها دعوة ابن أبي حفص، وأطمعوه في الحركة إلى مراكش بمظاهرتهم. وابن هود اقتطع عدوة الأندلس، وأقام فيها دعوة بني العبّاس، وابن الأحمر في الجانب الآخر مقيم لدعوة ابن أبي حفص. وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب، ثم سموا إلى تملك الأمصار. ثم افتتح أميرهم أبو يحيى مكناسة وأظهر فيها دعوة ابن أبي حفص، وجاهر بالاستبداد. ويوشك إن رضينا هذه الدنية، وأغضينا عن هذه الواقعات، أن يختل الأمر أو تنقرض الدعوة. فتدامروا وامتعضوا وتداعوا للصمود اليهم، فجفز السعيد عساكره. واحتشد عرب المغرب وقبائله، واستنفر الموحّدين والمصامدة، ونهض من مراكش سنة خمس وأربعين يريد مكناسة: وبني مرين أولا، ثم تلمسان ويغمراسن ثانيا، ثم أفريقية وابن أبي حفص آخرا. واعترض العساكر والحشود بوادي بهت. ووصل الأمير أبو يحيى إلى معسكره متواريا عنهم عينا لقومه، حتى صدقهم كنه الخبر. وعلم أن لا طاقة له بهم، فأفرج عن

البلاد. وتناذر بنو مرين بذلك من أماكنهم، فتلاحقوا به واجتمعوا إليه بتازوطا من بلاد الريف. ونزل سعيد مكناسة. ولاذ أهلها بالطاعة وسألوا العفو عن الجريرة. واستشفعوا بالمصاحف، برز بها الأولاد على

رؤوسهم، وانتظموا مع النساء في صعيد حاسرات منكسرات الطرف من الخشوع ووجوم الذنب والتوسل. فعفا عنهم وتقبل فيئهم، وارتحل إلى تازى في اتباع بني مرين. وأجمع بنو أوطاس الفتك بأبي يحيى بن عبد الحق غيرة ومناسفة، ودس إليه بذلك مهيب من مشيختهم، فترحل عنهم إلى بلاد بني يزناسن، ونزل بعين الصفا.

ثم راجع نظره في مسالمة الموحّدين والفيئة إلى أمرهم ومظاهرتهم على عدوهم يغمراسن وقومه من بني عبد الواد، ليكون فيها شفاء نفسه منهم، فأوفد مشيخة قومه عليه بتازى، فأذوا طاعته وفيئته، فتقئلها وصفح لهم عن الجرائر التي أتوها. وسألوه أن يستكفي بالأمير أبي يحيى في أمر تلمسان ويغمراسن، على أن يمده بالعساكر رامحة وناشبة، فاتهمهم الموحدون وحذروا منهم غائلة العصبية، فأمرهم السعيد بالعسكرة معه، فأمده الأمير أبو يحيى بخمسماية من قبائل بني مرين. وعقد عليهم لابن عمه أبي عباد بن يحيى بن أبي بكر بن حمامة، وخرجوا تحت رايات السلطان. ونهض من تازى يريد تلمسان وما وراءها، وكان من خبر مهلكه على جبل تامززدكت بيد بني عبد الواد ما ذكرناه في أخبارهم.

ولما هلك وانفضت عساكره متسابقين إلى مراكش، وجمهورهم مجتمعون إلى

عبد الله بن الخليفة السعيد ولي عهده، وتحت رايات أبيه. وطار الخبر بذلك إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، وهو بجهات بني يزناسن. وقد خلص إليه هنالك ابن عفه أبو عياد. وبعث بني مرين من تيار تلك الصدمة، فانتهز الفرصة وأرصد لعسكر الموحّدين وفلهم بكرسيف، فأوقع بهم وامتلأت أيدي بني مرين من أسلابهم، وانتزعوا الآلة من أيديهم. وأصار إلى كتيبة الروم والناشبة من الغزو، واتخذ الموكب الملوكي. وهلك الأمير عبد الله بن السعيد في جوانب تلك الملحمة، ويئسوا للموحدين بعدها من الكرة. ونهض الأمير أبو يحيى وقومه إلى بلاد المغرب مسابقين إليه يغمراسن بن زيان بما كان ملوك الموحدين، أوجدوهم السبيل إلى ذلك باستجاشة على بني مرين أيام فتنتهم معهم، فكانوا يبيحونه حرم المغرب ويوطئونه عساكر قومه ما

بين تازى إلى فاس إلى القصر مع عساكر الموحدين، فكان ليغمراسن وقومه بذلك طمع فيها لولا ما كبحهم فأس بني مرين وجذع من أنوفهم.

وكان أول ما بدأ به أبو يحيى بن عبد الحق أعمال وطاط، فافتتح حصونهم بملوية

ودوخ جبلهم. ثم رحل إلى فاس، وقد أجمع أمره على انتزاعها من ملكة بني عبد المؤمن، وإقامة الدعوة لابن أبي حفص بها وبسائر نواحيها. والعامل بها يومئذ السيد أبر العبّاس، فأناخ عليها بركابه. وتلطف في مداخلة أهلها، وضمن لهم جميل النظر وحميد السياسة. وكف الأيدي عنهم، والحماية لهم بحسن المغبة، وصالح العائدة، فأجابوه ووثقوا بعهده وعنائه. وأووا إلى ظله وركنوا إلى طاعته، وانتحال الدعوة الحفصية بأمره. ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن يأسا من صريخهم وكثرتهم. وحضر أبو محمد الفشتالي، وأشهده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم، وحسن الملكة والكفالة. وتقبل مذاهب العدل فيهم، فكان حضوره ملاك تلك العقيدة والبركة التي يعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة. وكانت البيعة بالرابطة خارج باب الفتوح. ودخل إلى قصبة فاس لشهرين اثنين من مهلك السعيد، فاتح ست وأربعين. وأخرج السيد أبا العبّاس من القصبة، وبعث معه خمسين فارسا أجازوه أم ربيع ورجعوا. ثم نهض إلى منازلة تازى، وبها السيد أبو علي. فنازلها أربعة أشهر. ثم نزلوا على حكمه، فقتلهم ومن على آخرين منهم. وسد ثغرها، وثقف أطرافها، وأقطع رباط تازى وحصون ملوية لأخيه يعقوب بن عبد الحق. ورجع إلى فاس، فوفد عليه بها مشيخة أهل مكناسة، وجددوا بيعتهم وعاودوا طاعتهم. ولحق بهم على أثرهم أهل سلا ورباط الفتح، فتملك الأمير أبو يحيى هذه البلاد الأربعة أمهات أمصار المغرب. واستولى على نواحيها إلى وادي أم ربيع، فأقام فيها دعوة ابن أبي حفص، وبعث بها إليه. واستبد بنو مرين بملك المغرب الأقصى، وبنو عبد الواد بملك المغرب الأوسط، وبنو أبي حفص بإفريقية. وخمد ذبال آل عبد المؤمن، وركدت ريحهم، وآذنت بالانقراض دولتهم، واشرف على الفناء أمرهم. وإلى الله عاقبة الأمور.

الخبر عن انتقاض أهل فاس علي أبي يحيي بن عبد الحق وظفره بهم بعد إيقاعه بيغمراسن وقومه بايسلي:

لما ملك الأمر أبو يحمى بن عبد الحق بمدينة فاس سنة ست وأربعين، استولى
على بلاد المغرب بعد مهلك السعيد. وقام بأمر الموحّدين بمراكش أبو حفص عمر

المرتضى بن السيد أبي إبراهيم إسحاق الذي كان قائد عسكر الموحّدين في حربهم مع بني مرين عام المشغلة، أبن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. كان السعيد تركه واليا بقصبة رباط الفتح من سلا، فاستدعاه الموحدون وبايعوه بيعة الخلافة. وقام بأمرهم، فلما تغلب الأمير أبو يحمى على بلاد المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرناه، خرج إلى بلاد فازاز والمعدن لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها. واستعمل على فاس مولاه السعود بن خرباش، من جماعة الحشم أحلاف بني مرين وصنائعهم. وكان الأمير أبو يحيى استبقى بها من كان فيها من عسكر الموحّدين من غير عيصهم في السبيل التي كانوا عليها من الخدمة. وكان فيهم طائفة من الروم، استخدمهتم إلى نظر قائدهم شأنه، وكانوا من حصة السعود هنالك. ووقعت بينهم وبين شيع الموحّدين من أهل البلد مداخلة، وفتكوا بالسعود عاملهم وقلبوا الدعوة للمرتضى الخليفة بمراكش سكيت الحلبة ومخلف المضمار. وكان المتولي لكبر تلك الثورة بن حشار المشرف وأخوه وابن أبي طاطو وابنه، اجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المغيلي، زعيم فئة الشورى بينهم يومئذ وتوامروا فيها. وأغروا قائد الروم بقتل السعود، وعدوا عليه بمقعد حكمه من القصبة، وهاجوه ببعض المحاورات فغضت. ووثب عليه الرومي، فقتله وطاف برأسه الهاتف بسكك المدينة في شوال سنة سبع وأربعين. وانتهبت داره، واستبيحت حرمه. ونصبوا قائد الروم لضبط البلد، وبعثوا بيعتهم إلى المرتضى. واتصل الخبر بالأمير أبي يحيى، وهو منازل بلد فازاز، فأفرج عنها. وأغذ السير إلى فاس، فأناخ بعساكره عليها. وشفر لحصارها، وقطع السابلة عنها. وبعثوا إلى المرتضى بالصريخ، فلم يرجع إليهم قولا، ولا ملك لهم ضرا ولا تفعا، ولا وجه لما نزل بهم وجها. حاشا إنه استجاش بالأمير أبي يحيى يغمراسن بن زيان على أمره، وأغراه بعدوه، وأمله لكشف هذه النازلة عمن انحاش إلى طاعته.

وتعلقت أطماع يغمراسن بطروق بلاد المغرب، فاحتشد لحركته. ونهض مى تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي يحيى عن فاس، وإجابة صريخ الخليفة لذلك. وبلغ الأمير أبا يحيى خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته البلد، فجمر الكتائب عليها صمد إليه قبل وصوله من تخوم بلاده، والتقى الجمعان

بإيسلى من بسائط وجدة فتزاحف القوم وأبلوا. وكانوا ملحمة عظيمة، هلك فيها عبد الحق محمد بن عبد الس

بيد إبراهيم بن هشام من بني عبد الواد. ثم انكشف بنو عبد الواد، وهلك يغمراسن بن تاشفين من أكابر مشيختهم، ونجا يغمراسن بن زيان إلى تلمسان. وانكفأ الأمير أبو يحيى إلى معسكره للأخذ بمخنق فاس فسقط في أيدي أهلها، ولم يجدوا وليجة من دون طاعته، فسألوا الأمان، وبذله لهم على غرم ما تلف له من المال بداره يوم الثورة، وقدره ماية ألف دينار، فتحملوها. وأمكنوه من قياد البلد، فدخلها في جمادى من سنة ثمان وأربعين. وطالبهم بالمال، فعجزوا ونقضوا شرطه، فحق عليهم القول. وتقبض على القاضي أبي عبد الرحمن وابن أبي طاطو وابنه، وابن حشار وأخيه المتولين كبر الفعلة فقتلهم، ورفع على الشرفات رؤوسهم. وأخذ الباقين بغرم المال طوعا أو كرها، فكان ذلك مما عبد رعية فاس وقادهم لأحكام بني مرين. وضرب الرهب على قلوبهم لهذا العهد، فخشعت منهم الأصوات وانقادت الهمم، ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة. والله مالك الأرض ومن عليها.

الخبر عن تغلب الأمير أبي يحيي علي مدينة سلا وارتجاعها من يده وهزيمة المرتضي بعدها:

لما كمل للأمير أبي يحيى فتح مدينة فاس، واستوسق أمر بني مرين بها، رجع

إلى ما كان فيه من منازلة بلاد فازاز فافتتحها. ودوخ أوطان زناتة، واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين فيها. ثم تخطى إلى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين، فملكها وتاخم الموحّدين بثغرها. واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق، وعقد له على ذلك الثغر، وضم إليه الأعمال. وبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى، فأهمه الشأن. وأحضر الملأ من الموحّدين وفاوضهم، واعتزم على حرب بني مرين. وسرح العساكر سنة خمسين، فأحاطت بسلا، فافتتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى. وعقد عليها لأبي عبد الله بن أبي يعلو من مشيخة الموحدين. وكان المرتضى قد صمد بنفسه سنة تسع وأربعين إلى محاربة بني مرين في جموع الموحّدين وعساكر الدولة، صمد بنو مرين للقائه. والتقى الجمعان بإيملولين، ففضوا جموعه، وكانت الدبرة عليه والظهور لهم. ثم كان بعدها فتح سلا، وغلب

الموحّدين عليها. وأجمع المرتضى بعدها على احتشاد أهل سلطانه، ومعاودة الخروج بنفسه إلى غزوهم لما خشي من امتداد أمرهم. وتقلص ملك الموحدين، فعسكر خارج حضرته سنة ثلاث وخمسين

وبعث الحاشرين في الجهات، فاجتمع إليه أمم الموحّدين والعرب والمصامدة. وأغذ السير تلقاءهم، حتى إذا انتهى إلى جبال بهلول من نواحي فاس، وصمد إليه الأمير أبو يحيى في عساكر بني مرين، ومن اجتمع إليهم من دونهم. والتقى الجمعان هنالك. وصدقهم بنو مرين القتال، فاختل مصاف السلطافي، وانهزمت عساكره وأسلمه قومه. ورجع إلى مراكش مفلولاً واستولى القوم على معسكره واستاحوا سرادقه وفساطيطه، وانتهبوا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيزة، واستاقوا سائر الكراع والظهر، وامتلأت أيديهم من الغنائم، واعتز أمرهم، وانبسط سلطانهم، وكان يوما له ما بعده. وأغرى أثر هذه الحركة عساكر بني مرين تادلا واستباح بني جابر حاميتها من جشم ببلد أبي نفيس، واستلحم أبطالهم، وألان من حدهم، وخضد من شوكتهم. وفي أثناء هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق، وهو ابن أخي الأمير أبي يحيى. شعر منه بفساد الدخلة والاجتماع للتوثب به، فدس لابنه أبي حديد مفتاح بقتله، بجهات مكناسة سنة إحدى وخمسين. والله تعالى أعلم.

الخبر عن فتح سجلماسة وبلاد القبلة وما كان في ذلك من الأحداث:

لما يئس بنو عبد المؤمن من غلبهم بني مرين على ما صارفي أيديهم من بلاد المغرب، وعادوا إلى مدافعيهم عن صبابة الدولة التي تحلبت إليها شفاههم، لو أطاقوا المدافعة عنها، وملك بنو. مرين عامة بلاد التلول، اعتزم الأمير أبو يحيى بعدها على الحركة إلى بلاد القبلة لفتح سجلماسة ودرعة وما إليها سنة ثلاث وخمسين، فافتتحها بمداخلة من ابن القطراني. غدر بعامل الموحدين، فتقبّضعليه وأمكن منها الأمير أبا يحيى، فملكها وما إليها من درعة وسائر بلاد القبلة. وعقد عليها لابنه أبي حديد. وبلغ الخبر إلى المرتضى، فسرح العساكر سنة أربع وخمسين لاستنقاذها. وعقد عليهم لابن عطوش من مشيخة الموحدين، فأغذ الأمير أبو يحيى السير إليها وابنه أبو حديد مفتاح. وأحس به ابن عطوش، ففر راجعا إلى مراكش. ثم نهض سنة خمس وخمسين إلى محاربة يغمراسن. ولقيه بأبي سليط، فأوقع به واعتزم على اتباعه، فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق، لعهد تأكد

بينه وبين يغمراسن، فرجع. ولما انتهى إلى المقرمدة هذه، بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة لمداخلة من بعض أهلها. أطمعه في

ملكها، فأغذ السير إليها بجموعه ودخلها. ولصبيحة دخوله، وصل يغمراسن لشأنه. فلما مكلم بمكان أبي يحيى من البلد سقا في يديه ويئس من غلابه، ودارت بينهم حرب تكافيا فيها. وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي يحيى. وانقلب يغمراسن إلى بلده. وعقد الأمير أبو يحيى على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة، ليوسف بن يزكاسن. واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وداود بن يوسف. وانكفأ راجعاً إلى فاس. والله تعالى أعلم.

الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيي وما كان أثر ذلك من الأحداث التى تمخضت عن استبدال أخيه يعقوب بن عبد الحق بالأمر:

لما رجع الأمير أبو يحيى من حرب يغمراسن بسجلماسة، أقام أياما بفاس. ثم

نهض إلى سجلماسة متفقدا لكورها، فانقلب منها عليلا. وهلك حتف أنفه على سرير ملكه في رجب سنة ست وخمسين، أمضى ما كان عزما، وأطول إلى تناول الملك يداً. اختطفته يد المنون عن شأنه، ودفن بمقبرة باب الفتوح من فاس، ضجيعا للمولى أبي محمد الفشتالي عما عهد لأهل بيته. وتصدى للقيام بأمره ابنه عمر، واشتمل عليه عامة قومه. ومالت المشيخة وأهل الحل والعقد إلى عمه يعقوب بن عبد الحق، وكان غائبا عن مهلك أخيه بتازى فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس، وتوجهت إليه وجوه الأكابر. وأحس عمر بصاغية الناس إليه. وحرضه أتباعه على الفتك به، فاعتصم بالقصبة. وسعى الناس في الإصلاح بينهما، فتفادى يعقوب من الأمر، ودفعه إلى ابر أخيه، على أن يكون له بلاد نازى وبطوية وملوية. ولما لحق بتازى، واجتمع إليه كافة بني مرين، عذلوه فيما كان منه فاستلام. وحملوه على العودة في الأمر، ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والمؤازرة فأجاب، وبايعوه وصمدوا إلى فاس. وبرز عمر للقائه، فانتهى إلى المسجدين. ولما تراءى الجمعان خذله جنوده وأسلموه، فرجع إلى فاس مفلولا. وجه الرغبة إلى عمه أن يقطعه مكناسة. ونزل له عن الأمر.، فأجابه إلى ذلك. ودخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة فاس مملكا سنة سبع وخمسين، وتمشت طاعته في بلاد المغرب ما بين ملوية

وأم ربيع وسجلماسة وقصر كتامة. واقتصر عمر على إمارة مكناسة، فتملكها أياما. ثم اغتاله من عشيره عمر وإبراهيم ابنا عمه: عثمان بن عبد الحق،

والعباس ابن عفه محمد بن الحق، فقتلوه وثاروا منه بدم كانوا يعتدونه عليه. وهلك لعام وبعض عام مرّ أمارته، فكفى يعقوب شأنه. واستقام لسلطانه، وذهب المنازع والمشاق عن أمره. وكان يغمراسن بعد مهلك قرنه الأمير أبي يحيى سما له الأمل في الأجلاب على المغرب، فجمع لذلك قومه واستجاش بني توجين ومغراوة، وأطمعهم في غيل الأسود. ونهضوا إلى المغرب حتى انتهوا إلى كلدامان.، صمد السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى لقائهم، فغلبهم ورجعوا على تعبية ومرّ يغمراسن ببلاد بطوية، فأحرق وانتسف واستباح، وأعظم فيها النكاية. ورجع السلطان إلى فاس، وتقبل مذهب أخيه الأمير أبي يحيى في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره. وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي النصارى، فكان له فيها أثر جميل وذكر خالد، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فجاءة العدو مدينة سلا واستنقاذها من أيديهم:

كان يعقوب بن عبد الله قد استعمله الأمير أبو يحيى على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه. فلما استرجعها الموحدون من يده، أقام يتقلب في جهاتها مرصدا لأهلها وحاميتها. ولما بويع عمه يعقوب بن عبد الحق أسفته بعض الأحوال، فذهب مغاضبا حتى نزل غبولة. وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدها ذريعة لما أسرفي نفسه، فتمت له الحيلة وركب عماملها ابن يعلو البحر فارا إلى أزمور. وخلف أمواله وحرمه، فتملك يعقوب بن عد الله البلد. وجاهر بالخلعان، وصرف إلى منازعة عمه السلطان أبي يوسف وجوه العزم، وداخل تجار الحرب في الإمداد بالسلاح. فتحاوروا في ذلك، وكثرت سفن المترددين بينهم، حتى كثروا أهلها واهتبلوا غرة يوم الفطر من سنة ثمان وخمسين عند شغل الناس بعيدهم. وثاروا بسلا، وسبوا الحرم وانتهبوا الأموال، وضبطوا البلد. وامتنع يعقوب بن عبد الله برباط الفتح، وطار الصريخ إلى السلطان أبي يوسف. وكان بتازى متشرفاً لأحوال يغمراسن، فنادى في قومه، وطاروا بأجنحة الخيول. ووصلها لوم وليلة، وتلاحقت به أمداد المسلمين من أهل الديوان والمطوعة. ونازلها أربع عشرة ليلة، ثم اقتحمها عليهم عنوة، وأثخن فيهم بالقمل. ثم رم بالبناء ما

كان متثلما من سورها الغربي، حيث أمكنت منه الفرصة في البلد. وتناول البناء فيه بيده. والله لا يضيع عمل عامل.

وخشي يعقوب بن عبد الله بادرة السلطان، فخرج من رباط الفتح وأسلمه، فضبطه السلطان وثقفه. ثم نهض إلى بلاد تامسنا وأنفى، فملكها وضبطها. ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة، فامتنع به. وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته. وسار إلى لقاء يغمراسن لقاءة المهادنة، فلقيه بوادي محرمان. وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب. ورجع السلطان إلى المغرب، فخرج عليه بنو أخيه أولاد إدريس. ولحقوا بقصر كتامة. وشايعوا يعقوب ابن عمهم عبد الله على راية، واجتمعوا إلى كبيرهم محمد بن إدريس، فيمن إليهم من العشير والصنائع، فنهض إليهم واعتصموا بجبال غمارة. ثم استنزلهم واسترضاهم. وعقد لعامر بن إدريس سنة ستين على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المطوعة من بني مرين، أغراهم إلى العدوة لجهاد العدو وحملهم، وفرض لهم. وشفع بها عمله في واقعة سلا، وهو أول جيش أجاز من بني مرين، فكان لهم في الجهاد والمرابطة مقامات محمودة وذكر خالد. تقبل سبيلهم فيها خلفهم من بعدهم حسبما نذكره.

وأقام يعقوب بن عبد الله خارجا بالنواحي منتقلا في الجهات، إلى أن قتله

طلحة بن محلى بساقية غبولة من ناحية سلا سنة ثمان وستين، فكفى السلطان شأنه. وكان المرتضى منذ توالت عليهم الوقائع، واستمر الظهور لبني مرين، انحجز في جدرانه وتوارى بالأسوار عن عدوه، فلم يسم إلى لقاء زحف، ولا حدث نفسه إلى شهود حرب. واستأسد بنو مرين على الدولة، وشرهوا إلى التهام البقية، وأسفوا إلى منازلة مراكش دار الخلافة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن منازلة السلطان أبي يوسف حضرة مراكش دار الخلافة وعنصر الدولة وما في اثر ذلك من نزوع أبي دبوس إليه وكيف نهبه للأمر وكان مهلك المرتضي علي يده ثم انتقض عليه:

لما فرغ السلطان من شأن الخوارج عليه من عشيره، استجمع لمنازلة المرتضى حدين في دارهم. ورأى أنه أوهن لدولتهم وأقوى لأمره عليهم. وبعث قومه واحتشد ممالكه، واستكمل تعبيته. وسار حتى انتهى إلى إيكليز،

فاعتزم على ذلك سنة ستين. وشارف دار الخلافة. ثم نزل بعقرها، وأخذ بمخنقها. وعقد المرتضى على حربهم

للسيد أبي العلاء إدريس المكنى بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، فعبأ كتائبه ورتب مصافه. وبرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة، فكانت بينهم حروب بعد العهد بمثلها، استشهد فيها الأمير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق، وكانوا يسمون برطانتهم أيعجوب. ففت مهلكه في عضدهم، وارتحلوا عنها إلى عملهم، واعترضتهم عساكر الموحّدين بوادي أم ربيع. وعليهم يحيى بن عبد الله بن وانودين، فاقتتلوا في بطن الوادي. وانهزمت عساكر الموحدين. وكان في مسيل الوادي، كدى تحسر عنها غمر الماء وتبدو كأنها أرجل، فسميت الواقعة بها أم الرجلين. ثم سعى بعض سماسرة الفتن عند الخليفة المرتضى، في ابن عفه وقائد حربه السيد أبي دبوس بطلبه الأمر لنفسه. وشعر بالسعاية، فخشي بادرة المرتضى. ولحق بالسلطان أبي يوسف مدخله إلى فاس من منازلته آخر سنة إحدى وستين نازعا إليه، فأقام عنده ملياً. ثم سأل منه الإعانة على أمره بعسكر يمده، وآلة يتخذها لملكه، ومال يصرفه في ضروراته. على أن يشركه في الغنيمة والفتح والسلطان، فأمده بخمسة آلاف من بني مرين، وبالكفاية من المال والمستجاد من الالة. وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل ممالكه ومن سواهم أن يكونوا يدا معه. وسار في الكتائب حتى شارف الحضرة. ودس إلي أشياعه ومن يداخله من الموحّدين في أمره، فثاروا بالمرتضى وأجهضوه عنها، فلحق بازفور مستجيشا بصهره ابن عطوش. ودخل أبو دبوس الحضرة في المحرم فاتح خمس وستين، وتقبض ابن عطوش عامل أزمور على المرتضى، واقتاده أسيراً إلى أبي دبوس. فبعث مولاه مزاحما، اجتز رأسه في طريقه، واستقل بالخلافة، وصبابة آل عبد المؤمن. ثم بعث إليه السلطان في الوفاء بالمشارطة، فعتا واستنكف. ونقض العهد وأساء الخطاب، فنهض إليه في جموع بني مرين وعساكر المغرب، فخام عن اللقاء وانحجر بمراكش. ونازله السلطان أياما تباعا. ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزرع، وينسف الأقوات. وعجز أبو دبوس عن دفاعه، فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفت في عضده، ويشغله من ورائه، ويأخذ بحجزته عن التهامه على ما نذكر لو أمهلته الأيام، وانفسح له الأجل.

الخبر عن وقيعة تلاغ بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان بإغراء، أبي دبوس وتضريبه:

لما نازل السلطان أبو يوسف حضرة ئراكش، وقعد على براثنه للتوثب عليه، لم

يجد أبو دبوس وليجة من دون قصده، إلا استجاشته بيغمراسن وقومه عليه، ليأخذوا بحجزته عنه، ويشغلوه من ورائه. فبعث إليه الصريخ في كشف بلواه ومدافعة عدوه. وأكد العهد وأسنى الهدية، وشمر يغمراسن لاستنقاذه وجذب عدوه من ورائه. وشن الغارات على ثغور المغرب، وأضرمها نارا، فأهاج عليه وعلى قومه من السلطان يعقوب ليثاً عاديفا، وأرهف منه عزما ماضيا. وأفرج يعقوب عن مراكش بعزم النهوض إلى تلمسان، ونزل بفاس، وتلوم بها أياما حتى أخذ أهبة الحرب، وأكمل استعدادها. ورحل فاتح سنة ست وستين، وسلك على كرسيف، ثم على تافراطا وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ، وعبا كل منهم كتائبه ورتب مصافه. وبرز النساء سافرات الوجوه في سبيل التحريض، يحيين ويعدين ويرغبن. ولما فاء الفيء ومال النهار، وكثر حشود المغرب جموع بني عبد الواد ومن إليهم، انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم. وهلك أبو حفص عمر كبير والد يغمراسن وولي عهده في جماعة من عشيره، ذكرناهم في أخباره. وأخذ يغمراسن بأعقاب قومه، فكان له ردءاً إلى أن خلصوا من المعترك، ووصلوا إلى بلادهم في جمادى من سنتهم. وعاد السلطان أبو يوسف إلى مكانه من–ضار مراكش. والله أعلم.

الخبر عن السفارة والمهاداة التي وقعن بين السلطان يعقوب بن عبد الحق وبين المستنصر الخليفة بتونس من أل أبي حفص.

كان الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، منذ دعا لنفسه بتونس

سنة خمس وعشرين طموحاً إلى ملك مراكش، مقر الدعوة، ومنبعث الدولة، وأصل الخلافة. وكان يؤمل لذلك زناتة، وإلا فلما دونه من خضد شوكة آل عبد المؤمن، وتقليم أظفار بأسهم، وردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه. وتغلب على تلمسان سنة أربعين. ودخل يغمراسن بن زيان في دعوته، وصار فئة له وشيعته على عدوه كما ذكرناه، فوصل به جناحه للمدافعة. وناغاه بنو مرين في مراسلة ابن أبي حفص ومخاطبته، وتخفيض الشأن عليه فيما يهمه من شأن عدوه، وحمل ما يفتحون من بلاد المغرب على البيعة له والطاعة: مثل فاس ومكناسة والقصر. وكان هو يلاطفهم

بالتحف والهدايا، ويريهم البر في الكتاب والخطاب والمعاملة وتكريم الوفد، غير سبيل آل عبد المؤمن فكانوا يجنحون

بذلك إلى تجديد مراسلته، وإيفاد قرابتهم عليه. وولي ابنه المستنصر من بعد، سنة سبع وأربعين، فتقبل مذاهب أبيه، وأوفى عليها بالإيعاز إليهم بمنازلة مراكش، وضمان الإنفاق عليهم فيها، فكان يبعث لذلك أحمالا من المال والسلاح وأعداد وافرة من الخيل بمراكبها للحملان، ولم يزل دأبه ذلك معهم. ولما فعل ابن أبي دبوس فعلته في نقض العهد، واستجمع السلطان لمنازلته، قدم بين يدي عمله مراسلة الخليفة المستنصر، يخبره الخبر، ويتلطف له في استنزال المدد، فأوفد عليه ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق، وأصحبه عبد الله بن كندوز العبد الوادي كبير بني كمي، وقريع بني يغمراسن، الذي ثار يغمراسن من أبيه كندوز بأبيه زيان كما ذكرناه في أخبارهم. وكان خلص إليه من حضرة المستنصر، فلقاه مبرة وتكريما. وأوفد معهما الكاتب أبا عبد الله محمد بن محمد الكناني من صنائع دولة آل عبد المؤمن، كان نزع إلى أخيه الأمير أبي يحيى لما رأى من اختلال الدولة، وأنزله مكناسة، وآثره بالصحبة والخلة. فجمع له يعقوب بن عبد الحق في هذا الوفد من الأشراف من يحسن الرياسة، ويعرب عفا في الضمائر، وبدل على شرف مرسله. فوفدوا على المستنصر سنة خمس وستين، وأدوا رسالتهم وحركوا له جوار المظاهرة على صاحب مراكش وكبح عنانه، فحن واهتز سرورا من أعواده، ولقاهم مبرة التكريم وأحسن النزل. ورد الأمير عامر بن إدريس وعبد الله بن كندوز لوقتهما. وتمسك بالكناني من بينهم لمصاحبة وفده، فطال مقامه عنده إلى أن كان من فتح مراكش ما نذكره.

ثم أوفد المستنصر على السلطان يعقوب بن عبد الحق آخر سنة تسع وستين بعدها

شيخ الجماعة من الموحّدين لعهده، أبا زكريا يحيى بن صالح الهنتاتي، مع جماعة من مشيخة الموحّدين في مرافقة محمد الكناني. وبعث معهم إلى السلطان هدية سنية يلاطفه بها ويتاحفه، انتخب فيها من الجياد والسلاح وأصناف الثياب الغريبة العمل ما انتقاه. ووقف رضاه وهمته على الاستكثار منه، فحسن موقعها وتحدث بها. وانقلب وفده أحسن منقلب بعد أن تلطف محمد الكناني في ذكر الخليفة المستنصر على منبر مراكش، فتم له. وشهده وفد الموحدين، فعظم سرورهم وانقلبوا محبورين مسرورين.

واتصلت بعد ذلك مهاداة المستنصر ليعقوب بن عبد الحق إلى أن هلك وجرى ابنه الواثق من بعده على سننه، فبعث إليهم سنة سبع وسبعين هدية حافلة، بعث بها القاضي أبا العبّاس

الغماري قاضي بجاية، فعظم موقعها. وكان لأبي العبّاس الغماري بالمغرب ذكر تحدث به الناس. والله أعلم.

الخبر عن فتح مراكش ومهلك أبي دبوس وانقراض دولة الموحّدين من المغرب:

لما رجع السلطان أبو يوسف من حرب يغمراسن، ورأى أنه قد كف من غربه ورد

من كيده وكيد أبي دبوس صريخه، صرف حينئذ عزائمه إلى منازلة مراكش، والعودة إلي مضايقتها كما كان لأول أمره. ونهض لغزاته من فاس في شعبان من سنته. ولما أجاز أم ربيع، بث السرايا، وسرح الغارات. وأطلق الأيدي والأعنة للنهب، فحطموا من زروعها وانتسفوا آثارها. وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه. ثم غزا عرب الخلط من حشم بتادلا، فأثخن فيهم واستباحهم. ثم نزل وادي العبيد، ثم غزا بلاد صنهاجة. ولم يزل ينتقل ركابه بأنحاء البلاد المراكشية وأحوازها، حتى حصرت صدور بني عبد المؤمن وقومه. وأغراهم أولياء الدولة من عرب جشم بنهوض الخليفة لمدافعة عدوه، فجمع لذلك وبرز في جيوش ضخمة وجموع وافرة. واستجره أبو يوسف بالفرار أمامه ليبعد عن مدد الصريخ، فيستمكن منه حتى نزول عفو. ثم كر إليه والتحم القتال، فاختل مصافه وفر عساكره. وانهزم يريد مراكش، فأدركوه دون أمله. وإعتاقه أجله، فطعن في مفره وخر صريعا لليدين والفم واحتز رأسه. وهلك بمهلكه وزيره عمران، وكاتبه علي بن عبد الله المغيلي. وارتحل السلطان أبو يوسف إلى مراكش. وفر من كان بها من الموحدين، فلحقوا بجبل تينملل. وبايعوا لإسحق أخي المرتضى، فبقي ذبالة هنالك سنين. ثم تقبض عليه سنة أربع وسبعين، وسيق إلى السلطان هو وأبو سعيد ابن عمه السيد أبي الربيع والقبائلي وأولاده فقتلوا جميعا. وانقرض أمر بني عبد المؤمن. والله وارث الأرض ومن عليها.

وخرج الملأ وأهل الشورى من الحضرة إلى السلطان، فأمنهم ووصلهم. ودخل مراكش في بروز فخم فاتح سنة ثمان وستين. وورث ملك آل عبد المؤمن وتولاه، واستوسق أمره بالمغرب، وتطامن الناس لبأسه، وسكنوا لظل سلطانه. وأقام بمراكش إلى رمضان من سنته. وأغزى ابنه الأمير أبا

مالك إلى بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوخ أقطارها. ثم خرج بنفسه إلى المغرب لبلاد درعة، فأوقع بهم الواقعة المشهورة

التي خضدت من شوكتهم. ورجع لشهرين من غزاته. ثم أجمع الرحلة إنى داره بفاس فعقد على مراكش وأعمالها لمحمد بن علي من كبار أوليائهم، ومن أهل خؤلته، وكان من طبقة الوزراء، حسبما يأتي التعريف به وبعشيره. وأنزله بقصبة مراكش، وجعل المصالح في أعمالها إلى نظره. وعهد إليه بتدويخ الأقطار، ومحو آثار بني عبد المؤمن. وفصل إلى حضرته وأراح بسلا، فكان من خبر عهده لابنه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن عهد السلطان لابنه أبي مالك. وما كان عقب ذلك من خروج القرابة عليه أولاد أخيه إدريس و إجازتهم إلي الأندلس:

لما تلوم السلطان بسلا، منصرفه من رباط الفتح، وأراح بها ركابه، عرض له طائف من المرض، ووعك وعكاً شديداً. فلما أبل جمع قومه، وعهد بأمره فيهم لابنه أبي مالك عبد الواحد كبير ولده، بما علم من أهليته لذلك. وأخذ له البيعة عليهم، وأعطوها طواعية. وأسف القرابة من ولد أخويه عبد الله وإدريس لأمهما سوط النساء، ووجدوا في أنفسهم لما يرون أن عبد الله وإدريس أكابر ولد عبد الحق، ولهما التقدم على من بعدهما من ولده، وأنهما أحق بالأمر. فعادت هيف إلى أديانها، ونفسوا على ابن السلطان ما أخذ له من البيعة والعهد. ونزعوا عنه إلى جبل علودان من جبال غمارة، عش خلافهم، ومدرج فتنتهم، وذلك سنة تسع وستين. ورياستهم يومئذ لمحمد بن إدريس وموسى بن رحو بن عبد الله. وخرج معهم ولد أبي عياد بن عبد الحق. وأغزاهم السلطان ولده أبا يعقوب يوسف في خمسة آلاف من عسكره، فأحاط بهم وأخذ بمخنقهم. ولحق به أخوه مالك في عسكره، ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان. ثم خرج في أثرهم السلطان أبو يوسف، واجتمع معسكرهم بتافركا ونازلوهم ثلاثا. وهلك في حروبهم منديل بن ورتطليم. ولما رأوا أن قد احيط بهم سألوا الأمان، فبذله وأنزلهم. واستل سخائمهم، ومسح ما في صدورهم، ووصل بهم إلى حضرته. وسألوا منه الإذن في اللحاق بتلمسان حياء من كبر ما ارتكبوا، فأذن لهم. وأجازوا البحر إلى الأندلس، وخالفهم عامر بن إدريس، لما أنس من صاغية السلطان إليه، فتخلف عنهم بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد إلى قومه بعد منازلة

السلطان تلمسان كما نذكره الآن. واحتل بنو إدريس وعبد الله وابن عمهم عياد بالأندلس، على حين أقفر من الحامية

جوها، واستأسد العدو على ثغرها. وتحلبت شفاههم لالتهامها، فاحتلوها اسودا ضارية، وسيوفاً ماضية، معودين لقاء الأبطال ولراع الحتوف والنزال. مستغلظين بخشونة البداوة وصرامة الغزو وبسالة التوحش، فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا شجى في صدره دون الوطن الذي كان طعمة له في ظنه. وارتدوه على عقبه، ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر، وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم. وزاحموا أمير الأندلس في رياستها بمنكب، فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدوة من أعياصهم وقبائلهم ومن سواهم من امم البرابرة. وتناقلوها، وساهموه في الجباية، بفرض العطاء والديوان فبذله لهم واستمروا على ذلك لهذا العهد. وحسن أثرهم فيها كما سنذكره بعد في أخبار القرابة. ثم أعمل السلطان نظره في غزو تلمسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة السلطان أبي يوسف إلى تلمسان وواقعته علي يغمراسن وقومه بإيسلي:

لما غلب السلطان أبو يوسف على بني عبد المؤمن، وفتح مراكش، واستولى على ملكهم سنة ثمان وستين، وعاد إلى فاس كما فكرنا، تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن وبني عبد الواد، وما أسفوا به من تخذيل عزائمه ومجاذبته عن قصده. ورأى أن واقعة تلاغ لم تشف صدره، ولا أطفأت نار موجدته، فأجمع أمره على غزوهم. واقتدر بما صار إليه من الملك والسلطان على حشر أهل المغرب لحربهم وقطع دابرهم، فعسكر بظاهر فاس. وسرح ولده وولي عهده أبا مالك إلى مراكش في خواصه ووزرائه، حاشرين في مدائنها وضواحيها، وقبائل العرب والمصامدة، وبني ورا وغمرة وصنهاجة، وبقايا عساكر الموحّدين بالحضرة، وحامية الأمصار من جند الروم وناشبة الغزو. فاستكثر من أعدادهم، واستوفى حشدهم. واحتفل السلطان بحركته، وارتحل إلى فاس سنة سبعين وستماية وتلوم بملوية إلى أن لحقته الحشود، وتوافت إليه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا، الذين هم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر، ومن معهم من الاثبج، قبائل ذوي حسان والشبانات من المعقل أهل السوس الأقصى، وقبائل رياح أهل أزغار والهبط. فاعترض هنالك عساكره، وعبأ مواكبه،

فيقال بلغت ثلاثين ألفا. وارتحل يريد تلمسان. ولما انتهى إلى أنكاد، وافته رسل ابن الأحمر هنالك، ووفد المسلمين

بالأندلس صريخاً على العدو. ويستجيشون بإخوانهم المسلمين ويسألونه الإعانة، فتحركت همته للجهاد ونصر المسلمين من عدوهم. ونظر في صرف الشواغل عن ذلك، وجنح إلى السلم مع يغمراسن. وصوب الملأ في ذلك رأيه لما كانوا عليه من إيثار الجهاد. وانتدب جماعة من المشيخة إلى السعي في إصلاح بينهما، والكف عن غرب عداوتهما.

وساروا إلى يغمراسن، فوافوه بظاهر تلمسان قد أخذ أهبة الحرب واستعد للقاء. واحتشد زناتة أهل ممالكه بالشرق من بني عبد الواد وبني راشد ومغراوة وأحلافهم من العرب زغبة. فلج في ذلك واستكبر، وصم عن إسعافهم. وزحف في جموعه والتقى الجمعان بوادي ايسلى من بسائط وجدة، والسلطان أبو يوسف قد عبأ كتائبه، ورتب مصافه. وجعل ولديه الأميرين أبي مالك وأبي يعقوب في الجناحين. وسار في القلب، فدارت بينهم حرب شديدة، انجلت عن مهلك فارس بن يغمراسن، وجماعة من بني عبد الواد. وكاثرتهم حشود المغرب الأقصى وقبائله، وعسكر الموحّدين والبلاد المراكشية، فولوا الأدبار. وهلك عامة عسكر الروم لثباتهم بثبات السلطان، فطحنتهم رحى الحرب. وتقبض على قائدهم بيرنبس. ونجا يغمراسن بن زيان في ففه مدافعا دون أهله إلى تلمسان. ومرّ بفماطيطة، فأضرمها نارا. وانتهب معسكره، واستبيحت حرمه. وأقام السلطان أبو يوسف على وجدة حتى خربها، وأضرع بالتراب أسوارها، وألصق بالرغام جدرانها. ثم نهض إلى تلمسان، فحاصرها أياما وأطلق الأيدي في ساحاتها بالنهب والعيث. وشن الغارات على البسائط، فاكتسحها سبيا ونسفها نسفا.

وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي، وكان من علية وزرائه وحماة ميدانه، له في ذلك أخبار مذكورة. وكان مهلكه في شوال من هذه السنة. ووصله بمثواه من حصارها محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، ومستصرخه على بني عبد الواد، لما نال منه يغمراسن من صيم القهر وذل الغلب والتحيف. وصله في كافة قبيله مباهياً بآلته، فأكرم السلطان أبو يوسف وفادته، واستركب الناس للقائه وبرور مقدمه. واتخذوا زينة السلاح لمباهاته. وأقام محاصرا لتلمسان معه أياماً حتى وقع اليأس وامتنع البلد، واشتدت شوكة حاميته. ثم أجمع السلطان أبو يوسف على

الإفراج عنها، وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي وقومه بالفصول قبل قفوله، وأن يغذوا السير إلى

بلادهم. وملأ حقائبهم بإتحافه، وجنب لهم ماية من المقربات بمراكبها، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب. وعمهم بالصلات من الخلع والكساء الفاخرة. واستكثر لهم السلاح والفازات والفساطيط، وحملهم على الظهر، وارتحلوا وتلوم السلطان أياما لمنجاتهم إلى مقرهم من جبل وانشريش حذرا من غائلة يغمراسن في انتهاز فرصة فيهم.

ثم قفل إلى فاس ودخلها مفتتح إحدى وسبعين. وهلك ولده الأمير أبو مالك ولي

عهده لأيام من مقدمه. فأسف لمهلكه. ثم تعزى بالصبر الجميل عن فقده، ورجع إلى حاله في افتتاح بلاد المغرب. وكان في غزوته هذه ملك حصن تاونت، وهو معقل مطغرة، وشحنه بالأقوات لما رآه ثغرا مجاورا لعدوه. وأسلمه لنظر هارون شيخ مطغرة. ثم ملك حصن مليلة بساحل الريف مرجعه من غزاته هذه. وأقام هارون بحصن تاونت، ودعا لنفسه. ولم يزل يغمراسن يردد الغزو إليه حتى فر من الحصن وأسلمه سنة خمس وسبعين. ولحق بالسلطان أبي يوسف كما ذكرناه في أخباره عند ذكر قبيلة مطغرة. وكان من شأنه ما ذكرناه هنالك.

الخبر عن افتتاح مدينة طنجة وطاعة أهل سبتة وفرض الأتاوة عليهم وما قارن ذلك من الأحداث:

كانت هاتان المدينتان سبتة وطنجة، مذ أول دولة الموحّدين من أعظم عمالاتهم وأكبر ممالكهم، بما كانت ثغر العدوة ومرقى الأساطيل، ودار إنشاءة الآلة البحرية، وفرضة الجواز إلى الجهاد. فكانت ولايتها مختصة بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن. وقد ذكرنا أن الرشيد كان عقد على أعمالها لأبي علي بن خلاس من أهل بلنسية، وأنه بعد استفحال الأمير أبي زكريا بإفريقية، ومهلك الرشيد، صرف الدعوة إليه سنة أربعين. وبعث إليه بالمال والبيعة مع ابنه أبي القاسم. وولى على طنجة يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني المعروف بابن الأمين، قائدا على الرجل الأندلسيين، وضابطا للقصبة. وعقد الأمير أبو زكريا على سبتة لأبي يحيى بن أبي زكريا، ابن عفه يحيى الشهيد، ابن الشيخ أبي حفص فنزل بها. فاستراب أبو علي بن خلاص من العواقب عند مهلك ابنه الوافد على السلطان غريقا

في البحر، فرحل بجملته إلى تونس في السفن. وأراح ببجاية، فكان فيها هلاكه سنة ست وأربعين. ويقال بل

هلك في سفينته، ودفن ببجاية. ولما هلك الأمير أبو زكريا في سنة سبع بعدها انتقض أهل سبتة على ابنه المستنصر، وطردوا ابن الشهيد، وقتلوا العضال الذين كانوا معه، وصرفوا الدعوة إلى المرتضى. وتولى كبر ذلك حجبون الزنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي كبير المشيخة بسبتة، وأعظم تجلة. ونشأ في حجر أبيه الفقيه الصالح أبي العبّاس أحمد مكفوفا بالجلالة، مغذواً بالعلم والدين، بما كان له فيهما. قدم إلى أن هلك. فأوجب أهل البلد لابنه ما عرفوه لحقه وحق أبيه من قبله، فكانوا يفزعون إليه في المهمات. ويسلمون له في الشورى، فأغري الزنداحي بهذه الفعلة ففعلها، فعقد المرتضى لأبي القاسم العزفي على سبتة مستقلا من غير إشراف أحد من السادة ولا من الموحدين. واكتفى بغنائه في ذلك الثغر. وعقد لحجبون الزنداحي على قيادة الأساطيل بالمغرب، فورثها عنه بنوه إلى أن زاحمهم العزفي بمناكب رياسته، فقوضوا عن سبتة: فمنهم من نزل بمالقة على بني الأحمر، ومنهم من نزل ببجاية على آل أبي حفص. ولهم في الدولتين آثار تشهد برياستهم. واستقل الفقيه أبو القاسم العزفي برياسة سبتة، وأورثها بنيه من بعده على ما نذكره بعد.

وكانت طنجة تالية سبتة في سائر الأحوال وتبعاً لها، فاتبع ابن الأمين صاحبها أمارة الفقيه أبي القاسم. ثم انتقض عليه لسنته واستبد، وخطب لابن أبي حفص، ثم للعباسي، ثم لنفسه. وسلك فيها مسلك العزفي في سبتة. ولبثوا كذلك ما شاء الله حتى إذا ملك بنو مرين المغرب، وانبثوا في شعابه، ومدوا اليد إلى ممالكه فتناولوها، ونازلوا معاقله وحصونه فاقتحموها. وهلك الأمير أبو يحيى بن عبد الحق وابنه عمر من بعده. وتحيز بنوه في ذويهم وأتباعهم وحشمهم إلى ناحية طنجة وأصيلا، فأوطنوا ضاحيتها، وأفسدوا سابلتها، وضيقوا على ساكنها، واكتسحوا ما حواليها. وشارطهم ابن الأمين على خراج معلوم، على أن يكفوا الأذية، ويحموا الحوزة، ويصلحوا السابلة. فاتصلت يده بأيديهم، وترددوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم. ثم مكروا وأضمروا الغدر. ودخلوا في بعض أيامهم متأبطين السلاح، وفتكوا بابن الأمين غيلة، فثارت به العامة لحينهم. واستلحموا لمصرع واحد سنة وستين. واجتمعوا إلى ولده وبقيت في ملكتهم خمسة

أشهر. ثم استولى عليها العزفي، فنهض إليها بعساكره من الرجل برأ وبحرا واستولى عليها. وفر ابن الأمين، ولحق بتونس، ونزل على المستنصر. واستقرت طنجة في إيالة

العزفي، فضبطها وقام بأمرها، وولى عليها من قبله. وأشرك الملأ من إشرافه في الشورى. ونازلها الأمير أبو مالك سنة ست وستين، فامتنعت عليه. وأقامت على ذلك ستاً، حتى إذا انتظم السلطان أبو يوسف بلاد المغرب في ملكته، واستولى على حضرة مراكش، ومحا دولة بني عبد المؤمن، وفرغ من أمر عدوه يغمراسن، وهم بتلك الناحية واستضافة عملها، فأجمع الحركة إليها ونازل طنجة مفتتح اثنتين وسبعين، بما كانت في البسيط من دون سبتة، وأقام عليها أياما. ثم اعتزم على الإفراج، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وافترق بينهم. وتنادى بعض الناشبة من السور بشعاب بني مرين، فبادر سرعان الناس إلى تسور حيطانها، فملكوه عليهم وقاتلوا أهل البلد ظلام ليلتهم. ثم دخلوا البلد من صبيحتها عنوة، ونادى منادي السلطان في الناس بالأمان والعفو عن أهل البلد، فسكن ومهد وفرغ من شأن طنجة. ثم بعث ولده الأمير أبا يعقوب في عساكر ضخمة، لمنازلة العزفي بسبتة، وإرغامه على الطاعة، فنازلها أياما، ثم لاذ بالطاعة على المنعة. واشترط على نفسه خراجاً يؤديه كل سنة، فتقبل السلطان منه. وأفرجت عساكره عنهم، وقفل إلى حضرته. وصرف نظره إلى فتح سجلماسة، وإزعاج بني عبد الواد المتغلبين عليها، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح سجلماسة الثاني ودخولها عنوة علي بني عبد الواد والمنبات من عرب المعقل:

قد ذكرنا ما كان من تغلب الأمير أبي يحيى بن عبد الحق على مدينة سجلماسة

وبلاد درعة، وأنه عقد عليها وعلى سائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن، وأنزل معه ابنه مفتاحا المكنى بأبي حديد في مشيخة لحياطتها. وأن المرتضى سرح وزيره ابن عطوش سنة أربع وخمسين في العساكر لاسترجاعها، فنهض إليه الأمير أبو يحيى وشرده عنها ورجعه على عقبه. وأن يغمراسن بن زيان، من بعد واقعة أبي سليط سنة خمس وخمسين، قصدها لعورة دل عليها، وغرة أمل أصابتها. فسابقه إليها أبو يحيى، ومانعه من دونها، ورجع عنها خائب المسعى، مفلول الحامية. وكان الأمير أبو يحيى من

بعد ما عهد عليها ليوسف بن يزكاسن، عقد عليها من بعده لسنة ونصفها من ولايته ليحيى بن أبى منديل كبير بني عسكرأقتالهم، ومقاسميهم نسب محمد بن ورصيص ثم عقد عليها

لشهرين لمحمد بن عمران بن عبلة من بني يرنيان صنائع دولتهم. واستعمل معه على الجباية أبا طالب بن الحبسي، وجعل مصلحة الجند بها إلى نظر أبي يحيى القطراني، وملكه قيادتهم. وأقاموا على ذلك سنتين اثنتين.

ولما هلك الأمير أبو يحيى، وشغل السلطان أبو يوسف بحرب يغمراسن، ومنازلة مراكش، سما للقطراني أمل في الاستبداد بها ودخل في ذلك بعض أهل الفتن وظاهره يوسف بن فرج العزفي وفتكوا بعمار الورندغزاني شيخ الجماعة بالبلد. وائتمروا بمحمد بن عمران بن عبلة، فخرج ولحق بالسلطان، فاستبد القطراني بها. ثم ثار به أهل البلد سنة ثمان وخمسين، لسنة ونصفها من لدن استبداده، وقتلوه. وصرفوا بيعتهم إلى الخليفة المرتضى بمراكش. وتولى كبر ذلك القاضي ابن حجاج وعلي بن عمر، فعقد له المرتضى عليهم. وأقام بها أميرا. ونازلته عساكر بني مرين والسلطان أبو يوسف سنة ستين. ونصب عليها آلات الحصار، فأحرقوها وامتنعوا، فأفرج عنهم. وأقام علي بن عمر في سلطانه ذلك ثلاث سنين، ثم هلك. وكان الأمير يغمراسن بن زيان، منذ غلب الموحّدين على تلمسان والمغرب الأوسط، وصار في ملكته، تحيز إليه من عرب المعقل قبيل المنبات من ذوي منصور، بما كانت مجالات المعقل مجاورة لمجالات بني بادين في القفر. وإنما ارتحلوا عنها من بعد ما جأجأ يغمراسن ببني عامر من مجالاتهم بمصاب ببلاد بني يزيد، فزاحموا المعقل بالمناكب عن مجالاتهم ببلاد فيكيك وصا. ورحلوهم إلى ملوية وما وراءها من بلاد سجلماسة، فملكوا تلك المجالات.

ونبذ يغمراسن العهد إلى ذوي عبيد الله منهم. واستخلص المنبات هؤلاء، فكانوا

له حلفا وشيعة ولقومه ودعوته خالصة. وكانت سجلماسة في مجالاتهم، ومنقلب ظعنهم وناجعتهم، ولهم فيها طاعة معروفة. فلما هلك علي بن عمر آثروا يغمراسن بملكها، فحملوا أهل البلد على القيام بدعوته. وخاطبوه وجأجأوا به، فغشيهم بعساكره وملكها وضبطها. وعقد عليها لعبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع من ولد محمد بن زكدان بن تيدوكسن، ويعرف، بابن حنينة نسبة إلى أم أبيه أخت يغمراسن بن حمامة.

وأنزل معهما ولده الأمير يحيى لا"قامة الرسم الملوكي. ثم أداله بأخيه من السنة الأخرى وكذا كان شأنه في كل سنة. ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب، وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته، وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم، ومحا رسمهم، وافتتح

طنجة، وطوع سبتة مرقى الجواز إلى العدوة وثغر المغرب، سما أمله إلى بلاد القبلة، فوجه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وإدالة دعوته فيها من دعوتهم، فنهض إليها في العساكر، والحشود في رجب من سنة اثنتين وسبعين. فنازلها وتد حشد إليها أهل المغرب أجمع، من زناتة والعرب والبربر، وكافة الجنود والعب عساكر، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة في البارود، بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها. فأقام عليها حولا كريتا يغاديها القتال ويراوحها، إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بإلحاح الحجارة من المنجنيق عليه. فبادروا إلى اقتحام البلد، فدخلوها عنوة من تلك الفرجة في صفر من سنة ثلاث وسبعين. فقتلوا المقاتلة والحامية، وسبوا الرعية، وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة، ومن كان معهم من بني عبد الواد وامراء المنبات. وكمل فتح بلاد المغرب للسلطان أبي يوسف، وتمشت طاعته في أقطاره. فلم يبق فيه معقل يدين بغير دعوته، ولا جماعة تتحيز إلى غيرفيئته، ولا أمل ينصرف إلى سواه، ولما كملت له نعم الله في استيساق ملكه وتمهيد أمره، انصرف أمله إلى الغزو وإيثار طاعة الله بجهاد أعدائه، واستنقاذ المستضعفين وراء البحر من عباده على ما نذكر. ولما انكفأ راجعا من سجلماسة، قصد مراكش من حيث جاء. ثم قفل إلى سلا، فأراح بها أياما، ونظر في شؤونها، وسد ثغرها. وبلغه الخبر بوفادة أبي طالب ابن صاحب سبتة الفقيه أبي القاسم العزفي على فاس، فأكد السبر إلى حضرته، وأكرم وفادته، وأحسن منقلبه إلى أبيه، مملوء الحقائب ببرة، رطب اللسان بشكره. ثم شرع في إجازة ولده إلى العدو، كما نذكر الآن إن شاء الله نعالى.

الخبر عن شأن الجهاد وظهور السلطان أبي يوسف علي النصاري وقتل زعيمهم دننه وما قارن ذلك:

كانت عدوة الأندلس مذ أول الفتح ثغرا للمسلمين، فيه جهادهم ورباطهم ومدارج شهادتهم وسبيل سعادتهم. وكانت مواطنهم فيه على مثل

الرضف، وبين الظفر والناب من أسود الكفر، لتوفر أمتهم في جوارها، وأحاطتهم بها من جميع جهاتها وحجز البحر

بينهم وبين إخوانهم المسلمين. وقد كان عمر بن عبد العزيز رأى أن يخرج المسلمين منها لانقطاعهم عن قومهم وأهل دينهم، وبعدهم عن الصريخ. وشاور في ذلك كبار التابعين وأشراف العرب، فرأوه رأياً. واعتزم عليها لولا ما اعتاقه من المنية. وعلى ذلك، فكان للإسلام فيها اعتزاز على من جاورهم من أهل الكفر، بطول دولة العرب من قريش ومضر واليمن. وكانت نهاية عزهم وسورة غلبهم أيام بني امية بها، الطائرة الذكر، الباسطة جناحها على العدوتين منذ ثلاث مئين من السنين، أو ما يقاربها.

حتى انتشر سلكها بعد الماية الرابعة من الهجرة، وافترقت الجماعة طوائف، وفشلت ريح المسلمين وراء البحر بفناء دولة العرب. واعتز البربر بالمغرب، واستفحل شأنهم. وجاء دولة المرابطين، فجمعت ما كان مفترقا بالمغرب من كلمة الإسلام. وتمسكوا بالسنة، وتشوفوا إلى الجهاد. واستدعاهم إخوانهم من وراء البحر للمدافعة عنهم، فأجازوا إليهم وأبلوا في جهاد العدو أحسن بلاء. وأوقعوا بالطاغية ابن أذفونش يوم الزلاقة وغيرها. وفتحوا حصوناً واسترجعوا أخرى. واستنزلوا الثوار ملوك الطوائف، وجمعوا الكلمة بالعدوتين. وجاء على أثرهم الموحدون سالكين أحسن مذاهبهم، فكانت لهم في الجهاد آثار على الطاغية وأيام: منها يوم الأرك ليعقوب المنصور، وغيره من الأيام. حتى إذا فشلت ريح الموحدين، وافترقت كلمتهم. وتنازع الأمر سادة بني عبد المؤمن الأمراء بالأندلس، وتحاربوا على الخلافة. واستجاشوا بالطاغية وأمكنوه من كثير من حصون المسلمين طعمة على الاستظهاه، فخشي أهل الأندلس على أنفسهم وثاروا بالموحّدين وأخرجوهم.

وتولى كبر ذلك ابن هود بمراسية، وشرق الأندلس. وعم بدعوته سائر أقطارها،

وأقام فيها الدعوة للعباسيين، وخاطبهم ببغداد كما ذكرناه في أخباره، واستوفينا كلا مما وصفناه في مكانه. ثم عجز ابن هود عن الغربية لبعدها عنه، وفقده للعصابة المتناولة لها، وأنه لم تكن صنعته في الملك مستحكمة. وتكالب الطاغية على الأندلس من كل جهة. وكثر اختلاف المسلمين بينهم. وشغل بنو عبد المؤمن بما دهم المغرب من شأن بني مرين وزناتة، فتلافى

محمد بن يوسف بن الأحمر أمر الغربية، وثار بحصنه أرجونة. وكان شجاعا قدما ثبتا في الحروب، فتلقف الكرة من يد ابن هود. خلع الدعوة العباسية، ودعا للأمير أبي زكريا بن أبي حفص سنة تسع وعشرين. فلم يزل في فتنة ابن هود

يجاذبه الحبل ويقارعه على عمالات الاندلس واحدة بعد أخرى، إلى أن هلك ابن هود سنة خمس وثلاثين.

وتكالب العدو خلال ذلك على جزيرة الأندلس من كل جانب. ووفر له ابن هود في الجزية، وبلغ بها أربعماية ألف من الدنانير في كل سنة. ونزل له عن ثلاثين من حصون المسلمين. وخشي ابن الأحمر أن يستغلظ عليه بالطاغية، فجنح هو إليه وتمسك بعروته، ونفر في جملته إلى منازلة إشبيلية نكاية لأهلها. ولما هلك الأمير أبو زكريا نبذت دعوة الحفصية، واستبد لنفسه، وتسمى بأمير المسلمين. ونازعه بالشرق أعقاب ابن هود، وبنو مردنيش. ودعاه الأمر إلى النزول للطاغية عن بلاد الفرنتيرة، تول عنها بأسرها. وكانت هذه المدة من سنة اثنتين وعشرين، إلى سنة سبعين، فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين، واستبيح حماهم، والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحرب، ووضيعة ومداراة في السلم. واستولى طواغيت الكفر على أمصارها وقواعدها، فملك ابن أذفونش قرطبة سنة ست وثلاثين، وجيان سنة أربع وأربعين، وإشبيلية سنة ست وأربعين.

وتملك قمص برشلونة مدينة بلنسية سنة سبع وثلاثين، إلى ما بينها من الحصون والقواعد والمعاقل، التي لا تعد ولا تحصى. وانقرض أمر الثوار بالشرق وتفرد ابن الأحمر بغرب الأندلس، وضاق نطاقه عن الممانعة دون البسائط الفيح من أرض الفرنتيرة وما قاربها. ورأى أن التمسك بها مع قلة العدد وضعف الشوكة مما يوهن أمره ويطمع فيه عدؤه، فعقد السلم للطاغية على النزول عنها أجمع. ولجأ بالمسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوعاره من عدوهم. واختار لنزله مدينة غرناطة. وابتنى بها لسكناه حصن الحمراء حسبما شرحنا ذلك كله في مواضعه. وفي أثناء هذا كله لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر، والملأ من أهل الأندلس يفدون على أمير المسلمين أبي يوسف للإعانة ونصر الملة، واستنقاذ الحرم والولدان من أنياب العدو. فلا يجد مفزعا إلى ذلك بما كان فيه من مجاذبة ا أحبل مع الموحدين، ثم مع يغمراسن. ثم تشغله بفتح بلاد المغرب وتدويخ أقطاره، إلى أن هلك السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر، المعروف بالشيخ وبأبي دبوس، لقبين كانا له على حين استكمل أمير

المسلمين فتح المغرب وفراغه من شأن عدوه سنة إحدى وسبعين. على أن بني مرين كانوا يؤثرون الجهاد ويسمون إليه، وفي نفوسهم جنوح إليه وصاغية.

ولما استوحش بنو إدريس بن عبد الحق، وخرجوا سنة إحدى وستين على السلطان يعقوب بن عبد الحق واستصلحهم، انتدب الكثير منهم للغزو وإجازة البحر لصريخ المسلمين بالأندلس. واجتمع إليهم من مطوعة بني مرين عسكر ضخم من الغزاة، ثلاثة آلاف أو يزيدون. وعقد السلطان على ذلك العسكر لعامر بن إدريس، وفصلوا إلى الأندلس، فكان لهم فيها ذكر ونكاية في العدو. وكان الشيخ ابن الأحمر عهد إلى ولده القائم بإلأمر من بعده محمد، الشهير بالفقيه، لانتحاله طلب العلم أيام أبيه. وأوصاه بأن يتمسك بعروة أمير المسلمين، ويخطب نصره، ويدرأ به وبقومه عن نفسه وعن المسلمين تكالب الطاغية فبادر لذلك حين موراة أبيه، وأوفد مشيخة الأندلس كافة عليه، ولقيه وفدهم منصرفا من فتح سجلماسة، خاتم الفتوح بالثغور المغربية ومقاد الملك. وتنادوا للإسلام بالثأر، وألقوا إليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين، وثقل وطأته، فحيا وفادتهم وبر وساهم. وبادر لإجابة داعي الله واستنام الجنة. وكان أمير المسلمين منذ أول أمره مؤثرا عمل الجهاد، كلفا به مختارا له متى اعطي الخيار من سائر آماله. حتى لقد كان اعتزم على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي يحيى، وطلب إذنه في ذلك عندما ملكوا مكناسة سنة ثلاث وأربعين فلم يأذن له. وفصل إلى الغزو في حشمه وذويه ومن أطاعه من عشيره. وأوعز الأمير أبو يحيى لصاحب الأمر بسبتة لذلك العهد أبي علي بن خلاص بأن يمنعه الإجازة، ويقطع عنه أسبابها. ولما انتهى إلى قصر الجواز ثنى عزمه عن ذلك الولي يعقوب بن هارون الخيري، ووعده بالجهاد أميرا مستنصرا للمسلمين ظاهرا على العدو، فكان في نفسه من ذلك شغل وإليه صاغية.

فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزائمه وذكوا همته، فأعمل في الاحتشاد وبعث في النفير. ونهض من فاس في شهر شوال من سنة ثلاث وسبعين إلى فرضة المجاز من طنجة. وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عللهم واستوفى عطاءهم وعقد عليهم لابنه منديل وأعطاه الراية. واستدعى من العزفي صاحب سبتة السفن لإجازتهم، فوافاه بقصر الجواز عشرون من الأساطيل، فأجاز العسكر ونزل بطريف. وأراح ثلاثا، ودخل دار الحرب، وتوغل فيها، وأجلب على ثغورها وبسائطها. وامتلأت أيديهم من

الغنائم، وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار. حتى نزل بساحة شريش، فخام حاميتها عن اللقاء وانحجزوا في البلد، فقفل عنها إلى الجزيرة، وقد امتلأت أيديهم من

الأموال وحقائبهم من السبي وركابهم من الكراع والسلاح.

ورأى أهل الأندلس أن قد ثاروا بعام العقاب، حتى جاءت بعدها الطامة الكبرى

على أهل الكفر. واتصل الخبر بأمير المسلمين، فاعتزم على الغزو بنفسه وخشي على ثغور بلاده من عادية يغمراسن في الفتنة، فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن، والرجوع إلى الاتفاق والموادعة. ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد، فأكبر موصله وموصل قومه. وبادر إلى الإجابة والألفة، وأوفد مشيخة بني عبد الواد على السلطان لعقد السلم. وبعث معهم الرسل، وأسنى الهدية. وجمع الله كلمة المسلمين. وعظم موقع هذا السلم من أمير المسلمين لما كان في نفسه من الصاغية إلى الجهاد، وإيثاره مبرورات الأعمال. وبث الصدقات بشكر الله على ما منحه من التفرع لذلك. ثم استنفر الكافة، واحتشد القبائل والجموع، ودعا المسلمين إلى الجهاد. وخاطب في ذلك كافة أهل المغرب من زناتة والعرب والموحّدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة، وجميع قبائل البرابرة، وأهل المغرب من المرتزقة والمطوعة. وأهاب بهم وشرع في إجازة البحر، فأجازه من فرضة طنجة لصفر من سنة أربع وسبعين. واحتل بساحل طريف.

وكان لما استصرخه السلطان ابن الأحمر، وأوفد عليه مشائخ الأندلس، اشترط

عليه النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره، فتجافى له عن رندة وطريف. ولما احتل بطنجة، بادر إليه ابن هشام الثائر بالجزيرة الخضراء، أجاز البحر إليه. ولقيه بظاهر طنجة، فأدى له طاعته وأمكنه من قياد بلده وكان الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو إسحاق صهر السلطان بن الأحمر تبعا له في أمره ومؤازرا على شأنه كله. وأبوهما أبو الحسن هو الذي تولى له كبر النورة على ابن هود، ومداخلة أهل إشبيلية في الفتك بابن الباجي. فلما استوت قدمه في ملكه، وغلب الثوار بالأندلس، واستوى على أمره، فسد ما بينهما بعد أن كان ولى أبا محمد على مالقة،

وأبا إسحاق على وادي آش، فامتنع أبو محمد بن أشقيلولة بمالقة واستأثر بها وبغربيتها دونه. ومع ذلك كانوا على الطاغية فيئة ولحمة. ولما أحس أبو محمد بن أشقيلولة بإجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق، قدم إليه الوفد من أهل مالقة ببيعتهم وصريخهم، وانحاش إلى جانب السلطان وولايته، وأمحضه المخالصة والنصيحة. فلما احتل السلطان بساحة طريف

ملأت كتائبه ساحة الأرض ما بينها وبين الجزيرة، وتسابق السلطان ابن الأحمر، وهو محمد الفقيه بن محمد الشيخ أبي دبوس صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد أشقيلولة صاحب مالقة والغربية، وأخوه أبو إسحاق صاحب وادي آش إلى لقاء السلطان. وتناغوا في برور مقدمه والإذعان له ففاوضهما في أمور الجهاد ورجعهما لحينه إلى بلادهما. وانصرف ابن الاحمر مغضبا ببعض النزعات أحفظته. وأغذ السلطان السير إلى الفرنتيرة، وعقد لولده الأمير أبي يعقوب على خمسة آلاف من عسكره. وسرح كتائبه في البسائط. وخلال المعاقل، ينسف الزرع، وتحطم الغروس، ويخرب العمران، وتنتهب الأموال، وتكتسح السرح، وتقاتل المقاتلة، وتسبى النساء والذرية. حتى انتهى إلى المدور وبايسة وأبدة واقتحم حصن بلمة عنوة. وأتى على سائر الحصون في طريقه، فطمس معالمها واكتسح أموالها. وقفل والأرض تموج سبيا إلى أن عرس بأستجة من تخوم دار الحرب. وجاءه النذير باتباع العدو آثارهم لاستنقاذ أسراهم وارتجاع أموالهم. وإن زعيم الروم وعظيمهم دننه خرج في طلبهم بأمم بلاد النصرانية من المحتلم فما فوقه. فقدم السلطان الغنائم بين يديه، وسرح ألفا من الفرسان أمامها سار يقفيها. حتى إذا أطلت رايات العدو من ورائهم كان الزحف، فرتب المصاف وحرض وذكر. وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها، وتحركت هممها، وأبلت في طاعة ربها والذب عن دينها. وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقعها. ولم يك إلا كلا ولا، حتى هبت ريح النصر، وظهر أمر الله، وانكشف جموع النصرانية، وقتل الزعيم دننه والكثير من جموع أهل الكفر. ومنح الله المسلمين أكتافهم، واحتل القتل فيهم. وأحصي القتلى في المعركة، فكانوا ستة آلاف. واستشهد من المسلمين ما يناهز ثلاثين أكرمهم الله بالشهادة، وآثرهم بما عنده. ونصر الله حزبه وأعز أولياءه وأظهر دينه، وبدا للعدو ما لم يحتسبه بمحاماة هذه العصابة عن الملة وقيامهم بنصر الكلمة. وبعث أمير المسلمين برأس الزعيم دننه إلى ابن الأحمر، فرده زعموا سرا إلى قومه، بعد أن طيبه وأكرمه، ولاية أخلصها لهم، مداراة وانحرافا عن أمير المسلمين، ظهرت شواهده عليه بعد حين كما نذكره. وقفل أمير المسلمين من غزاته إلى الجزيرة منتصف ربيع من سنته، فقسم في المجاهدين

الغنائم، وما نفله الله من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم، بعد الاستيثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه. ويقال كان مبلغ الغنائم في هذه

الغزاة من البقر ماية ألف وأربعة وعشرين ألفا، ومن الأسرى سبعة آلاف وثمانماية وثلاثين، ومن الكراع أربعة عشر ألفا وستماية. وأما الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة، حتى لقد زعموا بيعت الشاة في الجزيرة بدرهم واحد. وكذلك السلاح. وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياما. ثم خرج لجمادى غازيا إلى إشبيلية، فجاس خلالها وتقرى نواحيها وأقطارها. وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها. وارتحل إلى شريش، فأذاقها وبال العيث والاكتساح. ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته. ونظر في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزل عسكره، منتبذا عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العساكر وجفائهم. وتخير لها مكانا لصق الجزيرة، فأوعز ببناء المدينة جوارها المشهورة بالبنية. وجعل ذلك إلى نظر من وثق به من دونه. ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب سنة أربع وسبعين، فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر. واحتل بقصر مصمودة، وأمر ببناء السور على بادس مرفاً الجواز ببلاد غمارة. وتولى ذلك إبراهيم بن عيسى كبير بني وسناف بن محيو. ثم رحل إلى فاس، فدخلها في شعبان. وصرف النظر إلى أحوال دولته واختطاط البلد الجديد لنزله، ونزل حاشيته، واستنزال الثوار عليه بالمغرب، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن اختطاط البلد الجديد بفاس وما كان علي تفيئة ذلك من الأحداث:

لما قفل أمير المسلمين من غزاته الجهادئة، وتم صنع الله لديه في ظهور الإسلام

يده، واعتزاز أهل الأندلس بفيئته، راح بالمغرب إلى نعمة أخرى من ظهور أوليائه، وحسم أدواء الفساد في دولته، شفعت مواهب السعادة، وأكملت عوائد الصنع. وذلك أن صبابة بني عبد المؤمن وفلهم، لما فروا من مراكش عند الفتح، لحقوا بجبل تينملل جرثومة أمرهم، ومنبعث دعوتهم، وملاحد خلفائهم، وحضرة سلفهم، ودار إمامهم، ومسجد مهديهم. كانوا يعكفون عليه متيمنين بطيره، ملتمسين بركة زيارته. ويقدمون ذلك أمام غزولتهم قربة بين يدي أعمالهم، يعتدونها من صالح مساعيهم. فلما خلص الفل إليه اعتصموا بمعقله، وأووا إلى وكونه، ونصبوا للقيام بأمرهم عيصاً من أعياص خلفائهم بني عبد المؤمن، ضعيف المنية خاسر الصفقة من مواهب الحظ،

وهو إسحاق.أخو عمر المرتضى. وبايعوه سنة تسع وستين، يرجون منه رجع الكرة، وإدالة الدولة.

وكان المتولي لكبر ذلك وزير دولتهم ابن عطوش.

ولما عقد السلطان يعقوب بن عبد الحق لمحمد بن علي بن محلى على أعمال مراكش، لم يقدم عملا على محاربتهم، وتخذيل الناس عنهم، واستمالة أشياعهم. وجمعوا له سنة أربع وسبعين على غرة ظنوها، فأوقع بهم وفل من غربهم. ثم صمد إلى الجبلى لشهر ربيع من سنته، فافتض عذرته وفض ختامه، واقتحمه عليهم عنوة بعد مداولة النزال والحرب. وهلك الوزير ابن عطوش في جوانب الملحمة، وتقبض على خليفتهم المستضعف وابن عمه أبي سعيد بن السيد أبي الربيع ومن معهما من الأولياء. وجنبوا إلى مصارعهم بباب الشريعة من مراكش، فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم. وكان فيمن قتل منهم كاتبه القبائلي وأولاده. وعاثت العساكر في جبل تينملل واكتسحت أمواله. وبعثرت قبور الخلفاء من بني عبد المؤمن. واستخرج شلو يوسف وابنه يعقوب المنصور، فقطعت رؤوسهم. وتولى كبر ذلك أبو علي المليانى النازع إلى السلطان أبي يوسف من مليانة عش غوايته، وموطن انتزائه كما قدمناه. وكان السلطان أقطعه بلد أغمات إكراما لوفادته، فحضر هذه الغزاة في جملة العساكر. ورأى أن قد شفا نفسه بإخراج هؤلاء الخلفاء من أرماسهم، والعيث بأشلائهم، لما نقم منه الموحدون. وأزعجوه من قراره فنكرها السلطان لجلاله. وتجاوز عنها للمليانى تأنيسا لقربته وجواره، وعدها من هناته. ولما وصل أمير المسلمين إلى حضرته من غزاة الجهاد ترادفت عليه أخبار هذه الملحمة، وقطع دابر بني عبد المؤمن، فتظاهر السرور لديه، وارتفعت إلى الله كلمات الشكر طيبة منه. ولما سكن غرب الثوار، وتمهد أمر المغرب، ورأى أمير المسلمين أن أمره قد استفحل، وملكه قد استوسق، واتسع نطاق دولته، وعظمت غاشيته وكثر وافده، رأى أن يختط بلدا يتميز بسكناه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه الحاملين سرير ملكه. فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس، بساحة الوادي المخترق وسطها من أعلاه، وشرع في تأسيسها لثالث شوال من سنة أربع وسبعين هذه. وجمع الأيدي عليها، وحشد الصناع والفعلة لبنائها. وأحضر لها الحزى والمعدلين لحركات الكواكب، فاعتاموا في الطوالع النجومية ما يرضون أثره، ورصدوا أوانه. وكان فيهم الإمامان أبو

الحسن بن القطان وأبر عبد الله بن الحباك المقدمان في الصناعة، فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم وكما رضي. ونزلها بحاشيته وذويه سنة أربع وسبعين كما ذكرناه. واختطوا بها الدور والمنازل،

وأجرى فيها المياه إلى قصوره، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام. ثم أوعز بعد ذلك ببناء قصبة مدينة مكناسة، فشرع في بنائها من سنته. وكان لحين إجازته البحر قافلاً من غزاته لحق طلحة بن محلى بجبل أزور نازعا إلى قبائل زناتة من صنهاجة، فأغذ إليه السلطان بعساكره وأناخ عليه. واستنزله لشهر على ما سأل من الأمان والرتبة. وحسم الداء من خروجه. واستوزر صنيعته فتح الله السدراتي، وأجرى له رزق الوزارة على عوائدهم. ثم بعث إلى يغمراسن كفاء هديته التي أتحفه بها بين يدي غزاته. وكان شغله عنها أمر الجهاد، فبعث له فسطاطا رائقا كان صنع له بمراكش، وحكمات مموهة بالذهب والفضة، وثلاثين من البغال الفارهة ذكورا وإناثا بمراكبها الفارسية من السروج، والنسوانية من الولايا، وأحمالا من الأديم المعروف دباغه بالشركسي، إلى غير ذلك مما يباهي به ملوك المغرب وينافسون فيه. وفي سنة خمس وسبعين من بعدها أهدى له محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، وصاحب جبل وانشريش أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة، ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية. وفي نفسه أثناء هذا كله من الجهاد شغل شاغل يتخطى إليه سائر أعماله حسبما نذكر.

الخبر عن إجازة أمير المسلمين ثانية وما كان فيها من الغزوات:

لفا قفل أمير المسلمين من غزاته الأول، واستنزل الخوارج وثقف الثغور، وهادى الملوك واختط المدينة لنزله كما ذكرنا ذلك كله. ثم خرج فاتح سنة ست وسبعين إلى جهة مراكش لسد ثغوره، وتثقيف أطرافه. وتوغل في أرض السوس. وبعث وزيره نتح الله بالعساكر، فجاس خلاله، ثم انكفأ راجعاً. وخاطب قبائل المغرب كافة بالنفير الى الجهاد فتباطأوا واستمر على تحريضهم. ونهض إلى رباط الفتح وتلوم بها في انتظار الغزاة وثبطوا، فخص هو في خاضته وحاشيته. واحتل بالفرضة من قصر المجاز. وتلاحق به الناس فأجاز البحر، واحتل بطريف لآخر محرم. ثم ارتحل إلى الجزيرة، ثم إلى رندة. ووافاه هناك الرئيسان أبو إسحاق بن أشقيلولة صاحب قمارش، وأبو محمد صاحب مالقة للغزو معه. وارتحلوا إلى منازلة إشبيلية فعرسوا عليها يوم المولد النبوي. وكان بها ملك الجلالقة ابن أذفونش، فخام عن

اللقاء وبرز إلى ساحة البلد محاميا عن أهلها. ورتب أمير المسلمين مصافه، وجعل ولده الأمير أبا يعقوب في المقدمة. وزحف في

التعبية، فأحجز العدو البلد واقتحموا أثرهم الوادي، وأثخنوا فيهم. وباتت العساكر ليلتهم بجولان في متون جيادهم، وقد أضرموا النيران بساحتها. وارتحل من الغد إلى أرض الشرق، وبث السرايا والغوار في سائر النواحي. وأناخ بجمهور العساكر عليها، فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها. ودخل حصن قطنيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة، وأثخن بالقتل والسبي. ثم قفل بالغنائم والأنفال إلى الجزيرة لسرار شهره، فأراح وقسم الغنائم في المجاهدين. ثم خرج غازيا إلى شريش منتصف ربيع الآخر، فنازلها وأذاقها نكال الحرب. وأفقر نواحيها وقطع أشجارها، وأباد غضراءها، وحرق ديارها. ونسف آثارها، وأثخن فيها بالقتل والأسر. وبعث ولده الأمير أبا يعقوب في سرية من معسكره للغوار على إشبيلية وحصون الوادي، فبالغ في النكاية. واكتسح حسن روطة وشلوقة ومليانة والقناطر. ثم صبح إشبيلية بغارة فاكتسحها. وانكفأ إلى أمير المسلمين، فقالوا جميعا إلى الجزيرة وأراح وقسم في المجاهدين غنائمهم. ثم ندب إلى غزو قرطبة، ورغبهم في عمرانها، وثروة ساكنها، وخصب بلادها، فأهطعوا إلى إجابته. وخاطب ابن الأحمر يستنفره. وخرج لأول جمادى من الجزيرة. ووافاه ابن الأحمر بناحية أرشدونة، فكرم وصوله وشكر خفوفه إلى الجهاد وبداره. ونازلوا حصن بني بشير فدخل عنوة، وقتلت المقاتلة وسبيت النساء ونقلت الأموال، وخرب الحصن. ثم بث السرايا والغارات في البسائط، فاكتسحها، وامتلأت الأيدي. وأثرى المعسكر. وتقروا المنازل والعمران في طريقهم، حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها، وانحجزت حامية العدو من وراء أسوارها. وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها، فنسفوا آثارها، وخربوا عمرانها واكتسحوا قراها وضياعها. وتردد على جهاتها فدخل حصن بركونة عنوة، ثم أرجونة كذلك. وقدم بعثا إلى جيان قاسمها حظها من الخسف والدمار. وخام الطاغية عن اللقاء. وأيقن بخراب عمرانه وتلاف بلاده، فجنح إلى الصلح. وخطبه من أمير المسلمين، فدفعه إلى ابن الأحمر. وجعل الأمر في ذلك إليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه، فأجابهم ابن الأحمر إليه بعد عرضه إلى أمير المسلمين والتماس إذنه فيه وإبداء ما فيه من المصلحة، وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدة الطويلة، فانعقد السلم.

وقفل أمير المسلمين من غزاته، وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر. وخرج له عن الغنائم كلها، فاحتوى عليها. ودخل أمير المسلمين إلى الجزيرة في أول

رجب من عام يومئذ، فأراح ونظر في ترتيب المسالح على الثغور، وتملك مالقة كما نذكره.

الخبر عن تملك السلطان مدينة مالقة من يد ابن أشقيلولة:

كان بنو. أشقيلولة هؤلاء من رؤساء الأندلس المؤملين لمدافعة العدو، وكانوا نظراء

لابن الأحمر في الرياسة: وهم أبو محمد عبد الله وأبو إسحاق إبراهيم، ابنا أبي الحسن بن أشقيلولة. وكان أبو محمد منهم صهرا له على ابنته، فكانوا له بذلك خالصة، فأشركهم في أمره. واعتضد بعصابتهم وبأبيهم من قبل على مقاومة ابن هود وسائر الثوار. حتى إذا استمكن من فرصته، واستوى على كرسيه، استبد دونهم وأنزلهم إلى مقامات الوزراء. وعقد لأبي محمد، صهره على ابنته، على مدينة مالقة والغربية. وعقد لأبي الحسن، صهره على أخته، على وادي آش وما إليه. وعقد لابنه أبي إسحاق إبراهيم بن علي على قمارش وما إلى ذلك. ووجدوا في أنفسهم، واستمر الحال على ذلك. ولما هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين، وولي ابنه محمد الفقيه، سموا إلى منازعته. وأوفد أبو محمد صاحب مالقة ابنه أبا سعيد على السلطان يعقوب بن عبد الحق، وهو منازل طنجة. ووفد معه أبو عبد الله بن منديل، فكرم وفادتهما وأحسن موعدهما. وانكفيا راجعين، فبعث الرئيس أبو محمد إلى السلطان بطاعته وبيعة أهل مالقة سنة ثلاث وسبعين، وعقد له عليها. ونزع ابنه أبو سعيد فرج إلى دار الحرب. ثم رجع لسنته، فقتل بمالقة. ولما أجاز السلطان إلى الأندلس إجازته الأولى سنة أربع وسبعين، تلقاه أبو محمد بالجزيرة مع ابن الأحمر، وفاوضهما السلطان في شؤون الجهاد، وردهما إلى أعمالهما. ولما أجاز إجازته الثانية سنة ست وسبعين لقيه بالجزيرة الرئيسان ابنا أشقيلولة أبو محمد صاحب مالفة، وأخوه أبو إسحاق صاحب وادي آش وقمارش، فشهدا معه الغزاة. ولما قفل اعتل أبو محمد صاحب مالقة، ثم هلك غرة جمادى من سنته، فلحق ابنه محمد بالسلطان آخر شهر رمضان. وهو متلوم بالجزيرة مصرفه من الغزو كما ذكرناه، فنزل له عن البلد ودعاه إلى احتيازها، فعقد عليها لابنه أبي زيان منديل، فسار إليها في بعث. وكان ابن أشقيلولة لحين فصوله إلى لقاء

السلطان، أمر ابن عمه محمد الأزرق بن أبي الحجاج يوسف بن الزرقاء بإخلال منازل للسلطان

بالقصبة وإعدادها، فتم ذلك لثلاث ليال. وضرب الأمير أبو زيان معسكره بخارجها. وأنفذ محمد بن عمران بن عبلة في رهط من رجال بني مرين إلى القصبة، فنزلها وملك أمر البلد. وكان السلطان ابن الأحمر، لما بلغه وفاة أبي محمد بن أشقيلولة، سما أمله إلى الاستيلاء على مالقة، وأن ابن أخته شيعة له. وبعث لذلك وزيره أبا سلطان عزيز الداني، فوافى معسكر الأمير أبي زيان بساحتها. ورجا أن يتجافى عنها لسلطانه، فأعرض عن ذلك وتجهم له. ودخل إليها لثلاث بقين من رمضان. وانقلب الداني عنها بخفي حنين. ولما قضى السلطان بالجريرة صومه ونسكه، خرج إلى مالقة، فوافاها سادس شوال وبرز إليه أهلها في يوم مشهود، احتفلوا له احتفال أيام الزينة سرورا بمقدم السلطان، ودخولهم في إيالته. وأقام فيهم إلى خاتم سنته. ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلى من صنائع دولتهم. وأنزل معه المسالح، وزيان بن أبي عياد بن عبد الحق في طائفة لنظره من أبطال بني مرين. واستوصاه بمحمد بن أشقيلولة، وارتحل إلى الجزيرة. ثم أجاز إلى المغرب سنة سبع وسبعين، وقد اهتزت الدنيا لقدومه. وامتلأت القلوب بما كنفه الله من نصر المسلمين بالعدوة، وعلو راية السلطان على كل راية. وعظمت لذلك موجدة ابن الأحمر، ونشأت الفتنة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تظاهر ابن الأحمر والطاغية علم منع السلطان أبي يوسف من إجازة البحر وإصفاق يغمراسن بن زيان معهم من وراء البحر علي الأخذ بحجزته عنهم وواقعة السلطان علي يغمراسن بخرزوزة:

لما أجاز أمير المسلمين إلى العدوة إجازته الأولى، ولقي العدو بأستجة، وقتل الله

دننه بأيدي عسكره. وصنع له من الظهور والعز ما لا كفاء له، ارتاب ابن الأحمر بمكانه، فبدا له من ذلك ما لم يحتسب. وظن بأمير المسلمين الظنون، واعترض ذكره شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس. وأكد ذلك عنده جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه وانقيادهم لأمره، فغص بمكانه وحذر غوائله. وتكدر الجو بينهما. وأجاز إجازته الثانية، فانقبض ابن الأحمر عن لقائه ودارت بينهما مخاطبات شعرية في معنى العتاب على ألسنة كتابهما، نسردها الآن. فمن ذلك قصيدة كتبها

إليه ابن الأحمر سنة أربع وسبعين بعد واقعة دننه، واعتزامه على الرجوع إلى

المغرب. فخاطبه بها ليلة الإقامة بالجزيرة حذرا من غائلة العدو، وينحو فيها منحى الاستعطاف، وهي من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط:

هل من معيني في الهوى أو منجدي!	من متهم في الارض أومن منجد
هذا الهوى داع فهل من مسعف؟	بإجابة وإنابة أو مسعد
هذي سبيل الرشد قد وضحت فهل؟	بالعدوتين من امرىء مسترشد
يرجو النجاة بجنة الفردوس أو	يخشى المسير إلى الجحيم الموقد؟
يا آمل النصر العزيزعلى العدى	أجب الهدى تسعد به وتؤيد
سرالنجاء إلى النجاة مشمرا	إن الهدى لهو النجاة لمن هدي
يا من يقول غدا أتوب ولا غد	ألديك علم ان تعيش إلى غد
لا تغترر بنسيئة الأجل الذي	إن لم يحن لك نقده فكان قد
سفر عليك طويلة أيافه	لم تستعد لطوله فاستعدد
أو ما علمت بأنه لا بد من	زاد لكل مسافر فتزود
هذا الجهاد رئيس أعمال التقى	خذ منه زادك لارتحالك تسعد
هذا الرباط بأرض أندلس فرح	منه لما يرضي إلاهك واغتدي
سودت وجهك بالمعاصي فألتمس	وجها للقيا الله غيرمسوّد
وامح الخطايا بالدموع فربما	محت الدموع خطية المتعمد
من ذا يتوب لربه من ذنبه	أو يمتدي بنبيه أو يهتدي
من ذا يطهر نفسه بعزيمة	مشحوذة في نصردين محمد
أتعز من أرض العدو مدائن	والله في اقطارها لم يعبد
وتذل أرض المسلمين وتبتلى	بمثلثين سطوا بكل موحد
كم جامع فيها أعيد كنيسة	فأهلك عليه أسى فلا تتجفد
القس والناقوس فوق مناره	والخمر والخنزير وسط المسجد
أسفا عليها أقفرت صلواتها	من قانتين وراكعين وسجد
وتعوضت منهم بكل معاند	مستكبرمذ كان لم يتشهد
كم من أسير عندهم واشيرة	فكلاهما يبغي الفداء فما فدي

كم من عقيلة معشبرمعقولة	فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من وليد بينهم قد ود من	ولداه ودا أنه لم يولد
كم من تقيي في السلاسل موثقي	يبكي لآخرفي الكبول مقيد
وشهيد معترك توزعه الردى	ما بين حدي ذابل ومهند
ضجت ملائكة السماء لحالهم	ورثى لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا	مما دهانا من ردى أو من ردي
أفلا تراعون الأذمة بيننا	من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في إخوانكم	وسيوفكم للثأر لم تتقلد
يا حسرة لحمية الإسلام قد	خمدت وكانت قبل ذات توقد
أين العزائم ما لها لا تنقضي	هل يقطع الهندي غيرمجرد
أبني مرين أنتم جيراننا	وأحق من في صرخة بهم ابتدي
فالجار كان به يوصي المصطفى	جبريل حقا في الصحيح المسند
أبني مرين والقبائل كلها	في المغرب الأدنى لنا والأبعد
كتب الجهاد عليكم فتبادروا	منه إلى فرض الأحق الأوكد
وارضوا بإحدى الحسنيين وأقرضوا	حسنا تفوزوا بالحسن الخرد
هذي الجنان تفتحت أبوابها	والحور قاعدة لكم بالمرصد
من بائع من ربه من مشتر	منه الحصول على النعيم السرمد
لله في نصرالحنيفة موعد	صدق فثوروا بانتجاز الموعد
هذي الثغور بكم إليكم تشتكي	شكوى العديم إلى الغنى الأوجد
ما بال شمل المسلمين مبدد	فيها وشمل الكفر غيرمبدد
أنتم جيوش الله ملء فضائه	تأسون للدين الغريب المفرد
ما ذا اعتذاركم غداً لنبيكم	وطريق هذا العذر غيرممهد
إن قال لم فرطتم في أمتي	وتركتموهم للعدو المعتدي
لله لو أن العقوبة لم تخف	لكفى الحيا من وجه ذاك السيد
إخواننا صلوا عليه وسلموا	وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد
واسعوا لنصرة دينه يسفيكم	من حوضه في الحشر أعذب فورد

وصدر جوابها من نظم عبد العزيز شاعر السلطان يعقوب بن عبد الحق بما نصه:

لبيك لا تخش اعتداء المعتدي... إلى آخرها:

وكذلك أجاب عنها أيضا مالك بن المرحل بقوله:

شهد الإله. وأنت يا أرض اشهدي... إلى آخرها.

فأجابهم أبو عمر بن المرابط كاتب ابن الأحمر بقوله:

قل للبغاة وللعداة الحسد... إلى آخرها.

ولما أجاز السلطان يعقوب بن عبد الحق إجازته الثانية سنة ست وسبعين كما نذكره، وصار ابن الأحمر إلى الاستعتاب والرضى ولقي يعقوب بن عبد الحق، فأنشده كاتبه أبو عمر بن المرابط يوم اجتماعهما بقوله: "بشرى لحرب الله والإيمان "... إلى آخرها. ولما انقضى المجلس أمر السلطان شاعره عبد العزيز بمساجلته قصيدته فأنشدها ثاني المجلس بحضرة ابن الأحمر ونصها: "اليوم كن في غبطة وأمان " إلى آخرها. ثم كان أثناء ذلك ما وقع من استيلاء السلطان يعقوب بن عبد الحق على مدينة مالقة والغربية، جل عمله بعد مهلك صاحبها أبي محمد بن أشقيلولة، فبرم لذلك وخيل عليه، ففزع إلى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده. وأن يعود إلى مكان أبيه من ولايته ليدفع به السلطان وقومه عن أرضه، ويأمن معه من زوال سلطانه، لما كانت كلمة الإسلام حجزا دونه. فاهتبل الطاغية غرتها، وانتكث عهد أمير المسلمين، ونقض السلم، ونبذ إليه العهد. وأغزى أساطيله بالجزيرة الخضراء، حيث مسالح السلطان وعسكره. وأرست بالزقاق حيث فراض الجواز. وانقطع المسلمون من جنود السلطان وقومه وراء البحر، ويئسوا من صريخه. وانتبذ عمر بن يحيى بن محلى عن قومه بمكان إمارته من مالقة. وكان بنو محلى هؤلاء من كبار قومهم بطوية، وكانوا حلفاء بني حمامة بن محمد منذ دخولهم المغرب. وأصهر عبد الحق أبو ملاك إلى أبيهم محلى في ابنته أم اليمن، فكان من ولده السلطان يعقوب بن عبد الحق. وكانت امرأة صالحة. خرجت إلى الحج سنة ثلاث و أربعين، فقضت فريضة الله عليها وعادت إلى المغرب لرابعة من السنين

سنة سبع وأربعين. ثم خرجت ثانية سنة اثنتين وخمسين، فتطوعت بحجة أخرى. وهلكت بمصر منصرفها من تلك السنة سنة ثلاث وخمسين، فكان لبني محلى أبيها مكان من الدولة

ودالة على السلطان، لخؤولتهم ووشايج قرابتهم وغنائهم في قومهم. وما استولى السلطان على حضرة الموحّدين مراكش، عقد لمحمد بن علي بن محلى على جميع أعمالها، فكانت له في الاضطلاع بها مقامات محمودة. واتصلت أيام ولايته عليها من سنة ثمان. وستين إلى سنة سبع وثمانين وسبعمائة. ثم كان مهلكه أيام يوسف بن يعقوب كما نذكره. ولما نزع محمد بن أشقيلولة إلى السلطان بالجزيرة سنة ست وسبعين، متجافيا له عن ولاية مالقة بعد وفاة أبيه الرئيس أبي محمد، واستولى السلطان عليها، واعتزم على الإجازة كما قدمناه، عقد على مالقة والغربية وسائر ثغورها وأعمالها لعمر بن يحيى بن محلى. وكان أخوه طلحة بن يحيى بن محلى ذا بأس وصرامة وقوة شكيمة، واعتزاز على السلطان بمكان الخؤلة. وهو الذي قتل يعقوب بن عبد الحق بغبولة سنة ثمان وستين كما قلناه، وظاهر فتح الله السدراتي مولى السلطان ووزيره على قتال أبي العلا بن أبي طلحة بن أبي قريش، عامل المغرب بكدية العرائش من ظاهر فاس، سنة اثنتين وسبعين. ونزع سنة أربع وسبعين. إلى جبل أزور عند مرجع السلطان من إجازته الأولى، فاستنزله ورجعه إلى مجلسه من جملته. ثم نزع من الجزيرة إلى غرناطة سنة ست وسبعين عند مرجع السلطان من أمر مالقة، وأجاز البحر إلى بلاد الريف. ثم رجع إلى القبلة، وأقام بين بني توجين. ثم أجاز إلى الأندلس سنة سبع وسبعين عندما اضطرم نار هذه الفتنة بين السلطان وبين ابن الأحمر والطاغية. واحتل أسطول النصارى بالزقاق، وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر. وأحس أخوه عمر صاحب مالقة بإظلام الجو بينه وبين السلطان، بما كان من أمر أخيه طلحة من قبل. فلاطفه ابن الأحمر عند استقراره بغرناطة في مداخلة أخيه عمر في النزول عن مالقة، والاعتياض عنها بشلوبانية والمنكب طعمة. وخاطبه في ذلك أخوه طلحة فأجاب. وخرج ابن الأحمر بعساكره إلى مالقة. وتقبض عمر بن محلى على زيان بن بو عياد قائد بني مرين، ومحمد بن أشقيلولة. وأمكن ابن الأحمر من البلد، فدخلها آخر رمضان من سنته.

وأنزل ابن محلى بشلوبانية، واحتمل ذخيرته، وما كان السلطان ائتمنه عليه من

المال والعدة الجهادية. واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية على منع أمير المسلمين من الإجازة، وراسلوا يغمراسن بن زيان من وراء البحر، وراسلهم في مشاقة السلطان وإفساد ثغوره، وإنزال العوائق به المانعة من حركته، والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الجهاد.

وأسنوا فيما بينهم الإتحاف والمهاداة. وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين من عتاق الخيل، مع ثياب من عمل الصوف. وبعث إليه ابن الأحمر صحبة ابن مروان التجاني كفاء ذلك عشرة آلاف دينار، فلم يرض بالمال في هديته ورده. واصطفقت أيديهم جميعا على السلطان، ورأوا أن قد بلغوا في إحكام أمرهم وسد مذاهبه إليهم. واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش. كان صمد إليها مرجعه من الغزو في شهر محرم فاتح سبع وسبعين، لما كان من عيث العرب جشم بتامسنا، وإفسادهم السابلة. فثقف أطرافها، وحسم أدواءها. ولما بلغه خبر ابن محلى ومالقة، ومنازلة الطاغية للجزيرة، نهض لثالثة من شوال يريد طنجة. ولما انتهى إلى تامسنا، وافاه الخبر بنزول الطاغية على الجزيرة، وإحاطة عساكره بها سادس شوال، بعد أن كانت أساطيله منازلتها منذ ربيع، وأنه مشرف على التهامها. وبعثوا إليه يستعدونه، فاعتزم على الرحيل.

ثم اتصل به الخبر بخروج مسعود بن كانون أمير سفيان من جشم ببلاد نفيس من المصامدة خامس ذي القعدة، وأن الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم. فكر إليه راجعاً، وقدم بين يديه حافده تاشفين بن بو مالك، ووزيره يحيى بن حازم. وجاء على ساقتهم، وفروا أمام جيوشه، وانتهب معسكرهم وحللهم. واستباح عرب الحارث من سفيان. ولحق مسعود بمعقل السكسيوي، ونازله السلطان بعساكره أياما. ثم سرح ابنه الأمير أبا زيان بن منديل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها، فأوغل في ديارها وتفل إلى أبيه خاتم سنته. واتصل بالسلطان ما نال أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وأعواز الأقوات، وأنهم قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر، فأهمه ذلك وأعمل النظر فيه. وعقد لولي عهده ابنه الأمير أبي يعقوب من مراكش على الغزو إليها. وأغزى الأساطيل في البحر إلى جهاد عدوهم، فوصل إلى طنجة لصفر من سنة ثمان وسبعين. وأوعز إلى البلاد البحرية لإعداد الأساطيل للغزاة بسبتة وطنجة وسلا، وقسم الاعطيات، وتوفرت همم المسلمين على الجهاد، وصدقت عزائمهم على الموت. وأبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبتة لما بلغه خطاب أمير

المسلمين في ذلك البلاء الحسن، وقام فيه المقام المحمود. واستنفر كافة أهل بلده، فركبوا البحر أجمعين من المحتلم فما فوقه.

ورأى ابن الأحمر ما نزل بالمسلمين في الجزيرة، وإشراف الطاغية! على أخذها،

فندم في ممالأته. ونبذ عهده، وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة مددا للمسلمين. واجتمعت الأساطيل بمرفأ سبتة تناهز السبعين، قد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زي وأحسن قوة وأكمل عدة وأوفر عديد. وعقد لهم الأمير أبو يعقوب رايته، وأقلعوا عن طنجة ثامن ربيع الأول. وانتشرت قلوعهم في البحر فأجاز"، وباتوا ليلة المولد الكريم بمرقى الجبل، وصبحوا العدو وأساطيلهم تناهز الأربعماية، فتظاهروا في دروعهم وأسبغوا من سكتهم، وأخلصوا لله عزائمهم، وصدقوا مع الله نياتهم، وتنادوا بالجنة شعارهم. ووعظ وذكر خطباؤهم، والتحم القتال، ونزل الصبر. ولم يك إلا كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل، فانكشفوا وتساقطوا في العباب. واستلحمهم السيف، وغشيهم اليم. وملك المسلمون أساطيلهم. ودخلوا مرمى الجزيرة وفرضتها عنوة، فاختل معكسر الطاغية. ودخلهم الرعب من إجازة الأمير أبي يعقوب ومن معه من الحامية، فأفرج لحينه عن البلد. وانتشر النساء والصبيان بساحته، وغلبت المقاتلة كثيرا من المعسكر على مخلفهم، فغنموا من الحنطة والأدم والفواكه ما ملا أسواق البلد أياما، حتى وصلتها الميرة من النواحي.

وأجاز الأمير أبو يعقوب لحينه، فأرهب العدو في كل ناحية وصده عن الغزو إلى دار الحرب شأن الفتنة مع ابن الأحمر، فرأى أن يعقد مع الطاغية سلما ويصل به لمنازلة غرناطة يدا. وأجابه إلى ذلك الطاغية رهبة من بأسهم، وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة. وبعث أساقفته لعقد ذلك، فأجازهم الأمير أبو يعقوب إلى أبيه أمير المسلمين، فغضب لها ونكرها على ابنه. وزوى عنه وجه رضاه، ورجعهم إلى طاغيتهم مخفقي السعي.

وأجاز أبو يعقوب ابن السلطان إلى أبيه ومعه وفد أهل الجزيرة، فلقوا السلطان بمكانه من بلاد السوس. وولى عليهم ابنه أبا زيان منديل، فنزل بالجزيرة وأحكم العقدة مع الطاغية. ونازل مربلة من طاعة ابن الأحمر برا وبحرا، فامتنعت عليه. ورجع إلى الجزيرة، وانضوى إليه أهل الحصون الغربية بطاعتهم حذرا من الطاغية فتقبلهم. ثم جاءه المدد من المغرب، ونازل رندة فامتنعت. والطاغية أثناء ذلك يجوس خلال الأندلس. وتنازل ابن الأحمر بغرناطة مع بني أشقيلولة وابن الدليل. ثم راجع ابن الأحمر مسالمة

بني مرين، وبعث لأبي زيان ابن السلطان بالصلح. واجتمع معه بأحواز مربلة كما نذكر بعد.

ولما ارتحل السلطان من معسكره على جبل السكسيوي يريد السوس. ثم أغزى

العساكر، ورجع من طريقه إلى مراكش. حتى إذا انقضت غزاة البربر قفل إلى فاس، وبعث خطابه إلى الآفاق مستنفرا للجهاد. وفصل في رجب من سنة ثمان وسبعين حتى انتهى إلى طنجة، وعاين ما اختل من أحوال المسلمين في تلك الفترة، وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية، وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية ومن فيها. وظاهره على ابن الأحمر منافسوه في رياسته بنو أشقيلولة، فاستجره الرئيس أبو الحسن بن أبي إسحاق صاحب وادي آش، ونازل معه غرناطة سنة تسع وسبعين خمسة عشر يوماً. ثم أفرجوا عنها، ولقيتهم عساكر غرناطة من زناتة فعذ ذلك من سنتهم. وعليهم طلحة بن محلى وتاشفين بن معط كبير تيربيغين بحصن المسلى، فأظهرهم الله عليهم. وهلك من النصارى ما يناهز سبعماية من فرسانهم. واستشهد فيها من أعياص بني مرين عثمان بن محمد بن عبد الحق. واستجر الطاغية سنة ثمانين بعدها الرئيس أبو محمد عبد الله صاحب وادي آش إلى منازلة غرناطة، فنازلها الطاغية وأقام عليها إماما.

ثم ارتحل وقد اعتز عليهم. وأشفق السلطان على المسلمين وعلى ما نال ابن الأحمر من خسف الطاغية، فراسله في الموادعة واتفاق الكلمة وشرط عليه النزول عن مالقة. وامتنع فرجع السلطان إلى إزالة العوائق المانعة عن شأنه من الجهاد، وكان من أعظمها فتنة يغمراسن. واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية وابن أخي أدفونش من الاتصال والإصفاق، فبعث إليه في تجديد الصلح والاتفاق، فلج وكشف الوجه في العناد. وأعلن بما وقع بينه وبين أهل العدوة مسلمهم وكافرهم من الوصلة، أنه معتزم على وصل بلاد المغرب. فصرف أمير المسلمين عزمه إلى غزو يغمراسن. وقفل إلى فاس لثلاث أشهر من نزوله بطنجة، فدخلها آخر شوال. وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجة عليه، والتجلي بمسالمة بني توجين والتجافي عنهم لموالاتهم أمير المسلمين. فقام يغمراسن في ركائنه وقعد، ولج في طغيانه. وارتحل أمير المسلمين من فاس خاتمة سنة تسع. وتدم ابنه أبا يعقوب في العساكر، وأدركه بتازى. ولما انتهى إلى ملوية تلوم في انتظار العساكر. ثم ارتحل إلى نامة ثم إلى تافنا وصمد إليه يغمراسن، بحشي زناتة والعرب،

بحللهم وكافة ناجعتهم. والتقت عيون القوم، فكانت بينهم حرب. وركب على آثارهما العسكران، فالتحم القتال. وكان الزحف بخرزوزة من ملعب تيفنى. ورتب أمير المسلمين مصافه، وجعل كتيبته وكتيبة ابنه الأمير أبي يعقوب جناحين للعسكر. واشتد

القتال سائر النهار، وانكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم، وانتهب جميع مخلفهم وما كان في معسكرهم من المتاع والكراع والسلاح والفساطيط، وبات معسكر أمير المسلمين ليلتهم في صهوات خيلهم، واتبعوا من الغد آثار عدوهم. واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن، وامتلأت أيدي بني مرين من نعمهم وشائهم. ودخلوا بلاد يغمراسن وزناتة. ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، لقيه بناحية القصبات، وعاثوا جميعا في بلاده نهبا وتخريبا. ثم أذن لبني توجين في اللحاق ببلادهم، وأخذ هو بمخنق تلمسان متلوماً لوصول محمد بن عبد القوي وقومه، إلى منجاتهم من جبل وانشريش حذرا عليهم من غائلة يغمراسن. ثم أفرج عنها وقفل إلى المغرب، ودخل فاس شهر رمضان من سنة ثمانين. ثم نهض إلى مراكش، فاحتل بها فاتح إحدى وثمانين وسبعمائة بعدها. وسرح ابنه الأمير أبا يعقوب إلى السوس لتدويخ أقطاره. ووافاه بمراكش صريح الطاغية على ابنه شانجة الخارج عليه، فاغتنم الفرصة في فساد بينهم لقضاء إربه من الجهاد. وارتحل مبادرا بالإجازة إلى الأندلس. والله تعالى أعلم.

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف ثالثة باستدعاء الطاغية لخروج ابنه شانجة عليه وافتراق كلمة النصرانية وما كان في هذه الإجازة من الغزوات:

لما خرج السلطان من غزاة تلمسان إلى فاس، وارتحل إلى مراكش، وافاه بها وفد الطاغية من بطارقته وزعماء دولته، وقواميص ملته، صريخا على ابنه شانجة. خرج عليه في طائفة من النصارى وغلبوه على أمره، فاستنصر أمير المسلمين منهم ودعاه لحربهم. وأمله لاسترجاع ملكه من أيديهم، فأجاب أمير المسلمين داعية رجاء للكرة بافتراقهم. وارتحل حتى انتهى إلى قصر المجاز، وأوعز إلى الناس بالنفير إلى الجهاد. وأجاز إلى الخضراء فاحتل بها لربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين وسبعمائة. واجتمعت إليه مسالح الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عياد فوافاه بها الطاغية ذليلا لعز الإسلام مؤملا صريخ السلطان، فأكبر وفادته وكرم موصله وعظم قدره وأمده لنفقاته بماية ألف من مال المسلمين، استرهن فيها التاج الذخيرة عند سلفه، وبقي بدارهم فخرا للأعقاب لهذا العهد. ودخل معه دار الحرب غازيا حتى نازل قرطبة، وبها شانجة ابن الطاغية الخارج

عليه مع طائفته فقاتلها أياما. ثم أفرج عنها، وتنقل في جهاتها ونواحيها.
وارتحل إلى

طليطلة، فعاث في جهاتها. وخرب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر، فامتلأت أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها. وقفل إلى الجزيرة، فاحتل بها لشعبان من سنته. وكان عمر بن محلى نزع إلى طاعة السلطان، فهم به ابن الأحمر ونبذ إليه عهده. وارتجع المنكب من يده. ونازله بعساكره فاتح هذه السنة فجهز السلطان إليه لوصوله الجزيرة أسطوله. وأفرج ابن الأحمر عنه، فبادر إلى السلطان بطاعته. ووصل ببيعة شلوبانية، فأبقاه فيها بدعوته. ثم راجع طاعة ابن الأحمر في شوال من سنته، فتقبل فيئته وأعاضه عنها بالمنكب. إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن شأن السلم مع ابن الأحمر وتجافي السلطان عن مالقة ثم تجديد الغزو بعد ذلك:

لما اتصلت يد السلطان بيد الطاغية، خشي ابن الأحمر غائلته، فجنح إلى موالاة شانجة الخارج على أبيه. ووصل يده بيده، وأكد له العقد على نفسه. واضطرمت له الأندلس نارا وفتنة. ولم يغن شانجة عن ابن الأحمر شيئاً. ورجع السلطان من غزاته مع الطاغية، وقد ظهر على ابنه، فأجمع على منازلة مالقة. ونهض إليها من الجزيرة فاتح اثنتين وثمانين وسبعمائة، فتغلب على الحصون الغربية كلها. ثم أسف إلى مالقة، فأناخ عليها بعساكره. وضاق النطاق على ابن الأحمر وبدا له سوء المغبة في شأن مالقة، ومداخلة ابن محلى في الغدر بها، وأعمل نظره في الخلاص من ورطتها. ولم ير لها إلا ولي عهد السلطان ابنه أبا يوسف، فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخا لرقع هذا الخرق، وجمع كلمة المسلمين على عدوهم، فأجابه واغتنم المثوبة في مسعاه. وأجاز لشهر صفر، فوافى أمير المسلمين بمعسكره على مالقة. ورغب منه السلم لابن الأحمر عن شأن مالقة والتجافي له عنها، فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضى الله في جهاد عدوه واعلاء كلمنه. وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر، وتجددت عزائم المسلمين، وقفل السلطان إلى الجزيرة. وبث السرايا في دار الحرب، فأوغلوا وأثخنوا. ثم استأنف الغزو بنفسه الى طليطلة، فخرج غازيا

غرة ربيع الثاني من سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، حتى انتهى إلى قرطبة.
فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون. ثم ارتحل نحو البيرة وخلف

معسكرا بظاهر بياسة، وأغذ السير في أرض قفر. ولليلتين انتهى إلى البيرة من نواحي طليطلة، فسرح الخيل في البسائط حتى تقرت جميع ما فيها. ولم ينته إلى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم، وأثخن في القتل. وقفل على غير طريقه، فأثخن وخرب، وانتهى إلى أبدة. ووقف بساحتها والعدو منحجزون ثم رجع إلى معسكره ببياسة، وأراح ثلاثاً ينسف آثارها ويقتلع شجراءها. وقفل إلى الجزيرة، فاحتل بها شهر رجب، وقسم الغنائم وقفل من الخمس. وولى على الجزيرة حافده عيسى بن الأمير أبي مالك ابنه، فهلك شهيدا بالمعترك لشهرين من ولايته. وأجاز السلطان غرة شعبان إلى المغرب، ومعه ابنه أبو زيان منديل. وأراح بطنجة ثلاثاً. وأغذ السير إلى فاس، فاحتل بها آخر شعبان. ولما قضى صيامه ونسكه، ارتحل إلى مراكش لتمهيدها وتفقد أحوالها. وقسم من نظره لنواحي سلا وازور، فأقام برباط الفتح شهرين اثنين. واحتل مراكش فاتح ثلاث وثمانين وسبعمائة. وبلغه مهلك الطاغية ابن أدفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانجة الخارج عليه، فتحركت إلى الجهاد عزائمه. وسرح الأمير أبا يعقوب ولي عهده بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب وكف عاديتهم، ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة. فأجفلوا أمامه واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس، فهلك أكثر العرب في تلك القفار مسغبة وعطشاً. وقفل لما بلغه من اعتلال أمير المسلمين، ووصل إلى مراكش وقد أبل واعتزم على الجهاد والغزو، شكرا لله كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف الرابعة ومحاصرة شريش وما تخلل ذلك من الغزوات:

لما اعتزم أمير المسلمين على الإجازة، واعترض جنوده وحاشيته وأزاح عللهم وبعث في قبائل المغرب بالنفير. ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وسبعمائة. واحتل رباط الفتح منتصف شعبان، فقضى به صومه ونسكه. ثم ارتحل إلى قصور مصمودة وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمطوعة خاتمة سنته. ثم أجاز البحر بنفسه، غرة صفر من سنة أربع بعدها. واحتل بطريف. ثم سار منها إلى

الخضراء، وأراح أياماً. ثم خرج غازيا، حتى انتهى إلى وادي لك. وسرح الخيول في

بلاد العدو وبسائطها تغير وتحرق وتنسف. فلما خرب بلاد النصرانية ودمر أرضهم، قصد مدينة شريش، فنزل بساحتها وأناخ عليها، وبث السرايا والغارات في جميع نواحيها. وبعث عن المسالح التي كانت بالثغور، فتوافت لديه. ولحق حافده عمر بن أبي مالك بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرسانا ورجالا، ووافته حصة العزفي من سبتة غزاة ناشبة تناهز خمس ماية من الرجل. وأوعز إلى ولي عهده الأمير أبي يعقوب باستنفار قن بقي بالعدوة من المسلمين إلى الجهاد. وعقد لحافده الآخر منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من الغزاة. وأعطاه الراية وسرحه لغزو إشبيلية لآخر صفر من سنته، فغنموا ومروا بقرمونة في منصرفهم، فاستباحوها وأثخنوا بالقتل والأسار ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم. وبعث وزيره محمد بن عتو ومحمد بن عمران بن عبلة عيونا، فوافوا حصن القناطر وروطة، واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور، فعقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان لثلاثة من ربيع وأعطاه الراية، وسرحه إلى بسائط وادي لك، فرجعوا من الغنائم بما ملا العساكر، بعد أن أثخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار وأبادوا عمرانها. ثم شح ثامن ربيع عسكرا للإغارة على حصن اركش. ووافوه على غرة، فاكتسحوا أموالهم. ثم عقد تاسع ربيع لابنه أبي معروف على ألف من الفرسان. وسرحه لغزو إشبيلية، فسار حتى توقف. وانحجزت منه حاميتها، فخرب عمرانها وحرق زروعها وقطع شجراءها. وامتلأت أيدي عسكره سبياً وأموالا، ورجع إلى!عسكر السلطان مملوء الحقائب. ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع لغزو حصن كان بالقرب من معسكره، وسرح معه الرجل من الناشبة والفعلة بالآلات. وأمده بالرجل من المصامدة وغزاة سبتة، فاقتحموه عنوة على أهله. وقتلوا المقاتلة، وسبوا النساء والذرية، وأضرعوا خده بالتراب.

ولسبع عشرة من الشهر ركب السلطان إلى حصن سقوط قريباً من معسكره، فخربه

وحرقه بالنار واستباحه. وقتل مقاتلته وسبى أهله. ولعشرين من شهره وصل ولي عهده الأمير أبو يعقوب من العدوة بنفير أهل المغرب وكافة

القبائل، في جيوش ضخمة وعسكر موفورة. وركب أمير المسلمين للقائهم وبرور مقدمهم. واعترض العساكر الموافية يومئذ، فكانت ثلاثة عشر ألفا من المصامدة، وثمانية آلاف من برابرة المغرب المتطوعون كلهم بالجهاد، فعقد له السلطان على خمسة آلاف من المرتزقة، وألفين من المطوعة وثلاثة

عشر ألفا من الرجل، وألفين من الناشبة. وسرحه لغزو إشبيلية والإثخان في نواحيها، فعبا كتائبه ونهض لوجهه. وبث الغارات بين يدين، فأثخنوا وسبوا وقتلوا. واقتحموا الحصن، واكتسحوا الأموال. وعاج على الشرف والغابة من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقتحم من حصونها عدة. وقفل إلى معسكر أمير المسلمين ظاهرا عزيزا غانما. ولسادس ربيع الثاني وصل الأمير أبو زيان منديل بن طريف بعسكر وافر من المسلمين، فعقد له غداة وصوله وأمده بعكسر آخر. وأغزاه قرمونة والوادي الكبير، فأغار على قرمونة. وطمعت حاميتها في المدافعة، فبرزوا له. وصدقهم القتال، فانكشفوا حتى أحجزوهم في البلد. ثم أحاطوا ببرج كان قريبا من البلد، قاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة ولم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة إشبيلية، فأغار واكتسح واقتحم برجا كان هنالك عينا على المسلمين وأضرمه نارا. وامتلأت أيدي عساكره، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين.

ولثلاث عشرة من ربيعب الثاني عقد للأمير أبي يعقوب لمنازلة جزيرة كبوتر، فصمد إليها وقاتلها واقتحمها عنوة. وفي ثاني جمادى عقد لطلحة بن يحيى بن محلى. وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مالقة سنة خمس وسبعين، خرج إلى الحج، فقضى فرضه ا ورجع. ومرّ في طريقه بتونس. واتهمه الدعي ابن أبي عمارة كان بها يومئذ، فاعتقله سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة. ثم سرحه، ولحق بقومه بالمغرب. ثم أجاز إلى الأندلس غازيا في ركاب السلطان، فعقد له في هذه الغزاة على مايتين من الفرسان. وسرحه إلى إشبيلية ليكون ربية للمعسكر. وبعث معه لذلك عيونا من اليهود، والمعاهدين من النصارى، يتعرفون له أخبار الطاغية شانجة. وأمير المسلمين أثناء ذلك يغادي شريش ويراوحها بالقتال والتخريب، ونسف الاثار وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو. فلا يخلو يوما عن تجهيز عسكر، أو إغزاء جيش، أو عقد راية، أبو بعث سرية، حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية، وخرب بسائط إشبيلية ولبلة وقرمونة وأستجة وجبال الشرف، وجميع بسائط الفرنتيرة. وأبلى في هذه الغزوات عياد العاصمي من شيوخ جشم، وخضر الغزي أمير الأكراد بلاء عظيما، وكان لهم

فيها ذكر. وكذلك غزاة سبتة وسائر المجاهدين والعرب من جشم وغيرهم. فلما دمرها تدميرا، ونسفها تخريبا، واكتسحها غارة ونهبا، وزحم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن المعسكر، اعتزم على القفول، وأفرج عن شريش لآخر رجب. ووافاه مدد غرناطة من عساكر الغزاة، وقائدهم

يعلى بن أبي عياد بن عبد الحق بوادي بردة، فلقاهم مبرة وتكريما، وانقلبوا إلى أهلهم. واتصل به أن العدو أوعز إلى أساطيله باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض، فأوعز أمير المسلمين إلى جميع سواحله من سبتة وطنجة والمنكب والجزيرة وطريف وبلاد الريف ورباط الفتح. واستدعى أساطيله، فتوافت منها سنة وثلاثون أسطولا متكاملة في عدتها وعديدها، فأحجمت أساطيل العدو عنها وارتدت على أعقابها. واحتل بالجزيرة غرة رمضان. واستيقن الطاغية شانجة وأهل ملته أن بلادهم قد فنيت، وأرضهم خربت. وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية، فجنحوا إلى السلم. وضرعوا إلى أمير المسلمين في كف عاديته عنهم على ما يذكر. ووصل إلى السلطان بمكانه من منازلة شريش عمر بن أبي يحيى بن محلى نازعا إلى طاعته، فاتهمه لما سبق من تلاعبه. وأمر أخاه طلحة بنكبه. واحتمل إلى طريف، فاعتقل بها. وسار طلحة إلى المنكب، فاستصفى أموال أخيه عمر وذخائره وحملها إلى السلطان. وأقر ثانية أخاه موسى على عمله بالمنكب، وأمده بعسكر من الرجل. ثم أطلق عمر لليال من اعتقاله. وأجاز طلحة وعمر في ركاب السلطان. ونزع منصور بن أبي مالك حافد السلطان إلى غرناطة. ثم لحق منها بالمنكب وأقام مع موسى بن يحيى بن محلى، فأقره السلطان ورضي مقامه. والله تعالى أعلم.

الخبر عن وفادة الطاغية شانجة وانعقاد السلم ومهلك السلطان علي تفيئة ذلك:

لما نزل با 4 مم النصرانية في بلاد ابن أدفونش من أمير المسلمين ما نزل من تدمير تراهم، واكتساح أموالهم، وسبي نسائهم، وإبادة مقاتلتهم، وتخريب معاقلهم، وانتساف عمرانهم، زاغت منهم الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر. واستيقنوا أن لا عاصم من أمير المسلمين، فاجتمعوا إلى طاغيتهم شانجة، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، يتوجعون مما أذاقهم جنود الله من

سوء العذاب وأليم النكال. وحملوه على الضراعة إلى أمير المسلمين في السلم، وإنفاذ الملأ من كبار النصرانية عليه في ذلك. وإلا فلا تزال تصيبهم منه قارعة، أو تحل قريبا من دارهم. فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخسف والهضيمة لدينه. وأوفد على أمير المسلمين وفدا من بطارقتهم وقمامصتهم وأساقفتهم. ووضع أوزار الحرب، فردهم أمير المسلمين اعتزازا عليهم. ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة، على

أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه. فأسعفهم أمير المسلمين وجنح إلى السلم لما تيقن صاغيتهم إليه، وذلهم لعز الإسلام. وأجابهم إلى ما سألوه، واشترط عليهم ما تقبلوه من كسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه، والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم، ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده، وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة. وبعث ثقته عبد الحق ابن الترجمان لاشتراط ذلك وأحكام عقده، فاستبلغ وأكد في الوفاء. ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية، وهو عنده لعقد السلم معه دون أمير المسلمين وعلى مدافعته عنه، فأحضرهم بمشهد ابن الترجمان وأسمعهم ما عقد لأمير المسلمين على قومه وأهل ملته. وقال لهم: إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم أو الحرب، وهذا ملك المسلمين ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا. ولما رأى عبد الحق صاغيته إلى مرضاة السلطان، وسوس له بالوفادة لتتمكن الألفة وتستحكم العقدة. وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة وتمكين الألفة، فصغى إلى وفاقه. وسأل لقى الأمير أبي يعقوب ولي عهده من قبل ليطمئن عليه، فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش. وباتا بمعسكر المسلمين هنالك. ثم ارتحلا من الغد للقاء أمير المسلمين، وقد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه وإظهار شعار الإسلام وابهته، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية.

ولقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة، وأتم كرامة يلقى بها مثله من عظماء الملل.

وقدم الطاغية بين يديه هدية أتحف بها أمير المسلمين وابنه من ظرف بلاده: كان فيها زوج من الحيوان الوحشي المسمى بالفيل، وحمارة من حمر الوحش، إلى غير ذلك من الظرف. تقبلها السلطان وابنه وقابلوها بكفائها ومضاعفتها، وكمل عقد السلم. وتقبل الطاغية سائر الشروط، ورضي بعز الإسلام عليه. وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضى والمسرة. وسأل منه أمير المسلمين أن يبعث من كتب العلم التي بأيدي النصارى من لدن

استيلائهم على مداين الإسلام، فاستكثر من أصنافها في ثلاثة عشر حملا بعث بها إليه، فوقفها السلطان بمدرسته التي أسسها بفاس لطلب العلم.

وقفل أمير المسلمين إلى الجزيرة لليلتين بقيتا لرمضان، فقضى صومه ونسكه.

وجعل من قيام ليله جزءا لمحاضرة أهل العلم. وأعد الشعراء كلمات أنشدوها يوم الفطر

بمشهد الملأ في مجلس أمير المؤمنين. وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة عزوز المكناسي. ذكر فيها سير أمير المسلمين وغزواته على نسق.

ثم أعمل أمير المسلمين نظره في الثغور، فرتب بها المسالح وعقد عليها لابنه الأمير أبي زيان منديل. وأنزله بزكوان مقربة مالقة، واستوصاه بأن لا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثا. وعقد لعباد بن أبي عياد العاصمي على مسلحة أخرى، وأنزله بأصطبونة. وأجاز ابنه الأمير أبا يعقوب لتفقد أحوال المغرب ومباشرة أموره، فأجاز في أسطول القائد محمد بن أبى القاسم الرنداحي قائد سبتة. وأوعز إليه بالبناء على قبر أبيه الملوك عبد الحق وابنه إدريس بتافرطست، فاختط هنالك رباطا، وبنى على قبورهم أسنمة من الرخام، ونقشها بالكتاب. ورتب عليها قراء لتلاوة القران، ووقف على ذلك ضياعا وفدنا. وهلك خلال ذلك وزيره يحيى بن أبي منديل العسكري لمنتصف رمضان. ثم اعتل بعد ذلك أمير المسلمين لشهر ذي الحجة، ومرض واشتد وجعه. وهلك لاخر محرم سنة خمس وثمانين وسبعمائة وستماية من الهجرة. والله أعلم.

الخبر عن دولة السلطان أبي يعقوب وما كان فيها من الأحداث وشأن الخوارج عليه لأول دولته:

لما اعتل أمير المسلمين أبو يوسف بالجزيرة مرضه نساؤه، وطير بالخبر إلى ولي

العهد الأمير أبي يعقوب وهو بمكانه من المغرب، فأغذ السير. وقضى أمير المسلمين قبل وصوله، فأخذ له البيعة على الناس وزراء أبيه وعظماء قومه. وأجاز إليهم البحر، فجددوا بيعته غرة صفر من سنة خمس وثمانين وسبعمائة وأخذوها على الكافة. وانعقد أمر السلطان يومئذ، ففرق الأموال، وأجزل الصلات، وسرح من في السجون، ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر، ووكلهم فيها إلى أمانتهم. وقبض أيدي العمال عن الظلم والاعتداء والجور على الرعايا، ورفع المكوس ومحى رسوم الرتب، وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة. وكان أول شيء أحدث من أمره أن بعث عن ابن الأحمر وضرب موعدا للقائه، فبادر إليه ولقيه بظاهر مربالة لأول ربيع. ولقاه مرة

وتكريما، وتجافى له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت لمملكته ما عدى الجزيرة وطريف. وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة، ورجع السلطان إلى الجزيرة. ووافاه بها وفد الطاغية شانجة، مجددين حكم

السلم الذي عقد له أمير المسلمين عفا الله عنه فأجابهم. ولما تمهد أمر الأندلس، وفرغ من النظر إليها، عقد لأخيه أبي عطية العبّاس على الثغور الغربية والأمارة عليها. وعقد لعلي بن يوسف بن يزكاسن على مسالحها، وأمده بثلاثة آلاف من عساكره.

وأجاز إلى المغرب، فاحتل بقصر مصمودة سابع ربيع الثاني. ثم ارتحل إلى فاس، واحتل بها لاثنتي عشرة خلت من جمادى. ولحين استقراره بدار ملكه، خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في إخوته وبنيه وذويهم، ولحق بجبال درعة، ودعا ل!سه. وسرح إليهم السلطان أخاه أبا معرف، فبدا له في النزوع إليهم، فلحق بهم. وأغزاهم السلطان بعساكره، وردد إليهم البعوث والكتائب. وتلطف في استنزال أخيه، فنزل عن الخلاف وعاد إلى حسن طاعته. وفر أولاد إدريس إلى تلمسان، وتقبض عليهم أثناء طريقهم. وسرح السلطان أخاه أبا زيان إلى تازى، وأوعز إليه بقتلهم بمليلى خارج تازى لرجب من سنة خمس وثمانين وسبعمائة. ورهب الأعياص عند ذلك من بادرة السلطان، فتفرقوا ولحقوا بغرناطة. أولاد أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، وأولاد أبي يحيى بن عبد الحق، وأولاد عثمان بن يزول. ورجع أولاد أبي يحيى إلى السلطان بعد انقضاء عهده وأمانه. وهلك أخوه محمد أجليلد بن يعقوب بن عبد الحق لشعبان من سنته. وهلك عمر ابن أخيه أبي مالك بطنجة. ثم خرج على السلطان عمر بن عثمان بن يوسف العسكري بقلعة قندلاوة، ونبذ الطاعة، وأذن بالحرب. وأوعز السلطان إلى بني عسكر ومن إليهم من القبائل المجاورين لها، فاحتشدوا له ونازلوه. ثم نهض بركابه وعساكره إلى منازلته، واحتل بنبدورة. وخافه عمر على نفسه وأيقن أن قد احيط به، فسأل الأمان. وبذله السلطان على شريطة اللحاق بتلمسان، فبعث من توثق له من الخيرة فنزل. فوفى له السلطان بعده، ولحق بتلمسان بأهله وولده.

ثم ارتحل السلطان في رمضان من سنته إلى مراكش لتمهيد أنحائها، وتثقيف أطرافها، واحتل بها في شؤال، واعتمل النظر في مصالحها. ونزع خلال ذلك طلحة بن يحيى بن محلى البطوي إلى بني حسان من المعقل، وخرج على السلطان ودعا لنفسه. وعقد السلطان لمنصور ابن أخيه أبي

مالك على العساكر، وعهد له بولاية السوس، وسرحه لاستنزال الخوارج، ومحو آثار الفساد. وارتاب بمكان أخيه عمر، فغربه إلى

غرناطة، فقتله أولاد أبي العلاء يوم وصوله إليها، فسار الأمير منصور في الجيوش والكتائب، وغزا عرب المعقل وأثخن فيهم. وقتل طلحة بن محلى في بعض حروبهم لثلاث عشرة من جمادى سنة ست وثمانين وسبعمائة. وبعث برأسه إلى سدة السلطان، فعلق بتازى. ثم نهض السلطان في رمضان لغزو المعقل بصحراء درعة بما أضروا العمران وأفسدوا السابلة. وسار إليهم في اثني عشر ألفا من الفرسان. ومرّ على بلاد هسكورة معترضا جبل درن. وأدركهم بالقفر نواجع، فأثخن فيهم بالقتل والسبي. واستكثر من رؤوسهم، فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس. وعاد من غزوه إلى مراكش آخر شوال، فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية عليها من لدن غلب الموحدين، لما وقع من الارتياب بأولاد محلى بما أتاه كبيره طلحة، فنكب غرة المحرم من سنة سبع. وهلك في محبسه لشهر صفر بعده. وهلك على أثر ذلك المزوار قاسم بن عبو. وعقد السلطان على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطو الجاناتي من موالي دولتهم ولاء الحلف. وترك معه ابنه أبا عامر. ثم ارتحل إلى حضرة فاس، فاحتل بها منتصف ربيع. ووافته بها عروسه ابنة موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق من غرناطة في وفد من وزراء ابن الأحمر وأهل دولته، فأعرس بها وكان بعث إلى أبيها من قبل في الإصهار بها. ووافت معها رسل ابن الأحمر يسألون التجافي عن وادي آش، فأسعفهم بها كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دخول وادي آش في طاعة السلطان ثم رجوعها إلى طاعة ابن الأحمر:

كان أبو الحسن بن أشقيلولة ظهير السلطان ابن الأحمر على ملكه ومعينه على شأنه، وكان له في الدولة بذلك مكان. ولما هلك خلف من الولدان أبا محمد عبد الله وأبا إسحاق إبراهيم، فعقد ابن الأحمر لأبي محمد على مالقة ولأبي إسحاق على قمارش ووادي آش. ولما هلك السلطان ابن الأحمر حدثت مغاضبات ومنافسات بينهما وبينه، وتأدى ذلك إلى الفتنة كما قلناه. ودخل أبو محمد في طاعة السلطان أبي يوسف. ثم هلك فلحق ابنه محمد بالسلطان، ونزل له عن البلد سنة ست وسبعين. ثم هلك أبو اسحاق سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، وغلب ابن الأحمر على حصن قمارش وصار

إليه. وكان الرئيس أبو إسحاق قد عقد لابنه أبي الحسن على وادي آش وحصونها، واتصلت الفتنة

بينه وبين ابن الآحمر، وظاهر أبو الحسن عليه الطاغية. وأجلب أخوه أبو محمد على غرناطة هو وابن الدليل. وطال أمر الفتنة بينهم وبين ابن الأحمر. وأجلب أخوه أبو محمد على غرناطة مع الطاغية. تم انعقد السلم بين المسلمين والنصرانية، وخشي أبو الحسن بن أشقيلولة على نفسه عادية ابن الأحمر، فتذمم بطاعة صاحب المغرب. وأقام دعوته بوادي آش سنة ست وثمانين وسبعمائة، فلم يعرض لها ابن الأحمر، حتى إذا وقعت المواصلة بينه وبين السلطان أبي يعقوب وكان شأن هذا الصهر على يده، بعث رسله إلى السلطان يسأو، التجافي عن وأدي آش، فتجافى له عنها. وبعث إلى أبي الحسن بن أشقيلولة بذلك، فتركها. وارتحل إليه سنة سبع وثمانين وسبعمائة. ولقيه بسلا، فأعطاه القصر الكبير وأعماله طعمة سوغه إياها. ثم نزل لبنيه آخر دولتهم. واستمكن ابن الأحمر في وادي آش وحصونها. ولم يبق له بالأندلس منازع في قرابته. والله يؤتي ملكه من يشاء.

الخبر عن خروج الأمير أبي عامر ونزوعه إلى مراكش ثم فيئته إلي الطاعة:

لما احتل السلطان بفاس وأقام بها، خرج عليه ابنه أبو عامر، ولحق بمراكش،

ودعا لنفسه أخريات شوال من سنة سبع وثمانين وسبعمائة. وساعده على الخلاف والانتزاء عاملها محمد بن عطو. وخرج السلطان في أثره إلى مراكش، فبرز إلى لقائه، فكانت الدائرة عليهم، وحاصرهم السلطان بمراكش أياما. ثم خلص أبو عامر إلى بيت المال، فاستصفى ما فيه، وقتك المشرف ابن أبي البركات، ولحق بحلل المصامدة. ودخل السلطان من غده إلى البلد يوم عرفه، فعفا وسكن. ونهض منصور ابن أخيه أبي مالك من السوس إلى حاحة، فدوخ أنحاءها. ثم سرح إليه المدد من مراكش، فأوقعوا بزكنة من برابرة السوس. وقتل منهم ما يناهز أربعين من سرواتهم. وكان فيمن قتل شيخهم حبون بن إبراهيم. ثم إن ابنه أبا عامر ضاق ذرعه بسخط أبيه وأجلابه في الخلاف، فلحق بتلمسان ومعه وزيره ابن عطو فاتح سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، فأواهم عثمان بن يغمراسن. ومهد لهم المكان ولبثوا عنده أياما. ثم عطف السلطان على ابنه رحم لما عطفت ابنته عليه،

فرضي عنه وأعاده إلى مكانه. وطالب عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان أن يسلم إليه ابن عطو الناجم في النفاق مع ابنه، فأبى من إضاعة جواره وإخفار ذمته. وأغلظ له الرسول في القول، فسطا به واعتقله، فثارت من السلطان الحفائظ الكامنة وتحركت

الأحن القديمة والتراث المتواترة. واعتزم على غزو تلمسان. والله أعلم.

الخبر عن تجدد الفتنة مع عثمان بن يغمراسن وغزو السلطان مدينة تلمسان ومنازلته إياها:

كانت الفتنة بين هذين الحيين قديمة من لدن مجالاتهم بالقفار من صحراء ملوية،

الى صا، إلى فيكيك، إلى مصاب. ولما انتقلوا إلى التلول، وتغلبوا على الضواحي بالمغرب الأقصى والأوسط، لم تزل فتنتهم متصلة، وأيام حروبهم فيها مذكورة. كانت لمحولة الموحّدين عند اعتلالها والتياثها تستنصر منهما بالتضريب بينهم والفتنة، فتأكدت لذلك أحوالها واتصلت أيامها. وكان بين يغمراسن بن زيان وأبي يحيى بن عبد الحق ما وقائع ومشاهد، نقلنا منها بعضاً من كل. واستظهر الموحدون بيغمراسن عليه في بعضها. وكان الغلب أكثر ما يكون لأبي يحيى بن عبد الحق لوفور قبيله. إلا أن .يغمراسن كان يتصدى لمقاومته في سائر وقائعه. ولما طمس أثر بني عبد المؤمن، استولى يعقوب بن عبد الحق على ملكهم، وصارت في جملته عساكرهم، فضاعف عليه، أسف على ملك يغمراسن ملكه. وجمع له، فأوقع به في تلاغ الواقعة المعروفة. ثم أوقع به ثانية وثالثة. ولما استولت قدم يعقوب بن عبد الحق في ملكه، واستكمل فتح المغرب وسائر أمصاره، وكبح يغمراسن عن التطاول إلى مقاومته، وأوهن قواه بفل جموعه ومنازلته في داره، ومظاهرة أقتاله من زناتة من بني توجين ومغراوة عليه. فانصرف ع ذلك إلى الجهاد، فكان له فيه شغل عما سواه كما نقلناه في أخباره. ولما ارتاب ابن الأحمر بمكان السلطان يعقوب بن عبد الحق من الأندلس، وحذره على ملكه، وتظاهر الطاغية على منعه من الإجازة إلى عدوتهم، خشوا أن يستقلوا بمدافعته، فراسلوا يغمراسن في الأخذ بحجزته. وأجابهم إليها، وجرد عزائمه لها، واتصلت أيديهم في ، التظاهر عليه. ثم فسد ما بين ابن الأحمر والطاغية ولم يكن له بد من ولاية يعقوب بن الحق، فتولاه بواسطة ابنه يوسف بن يعقوب كما ذكرناه. وأطلعوه على خباء يغمراسن في مظاهرتهم، فأغزاه سنة تسع وسبعين وهزمه بخرزوزة. ونازله بتلمسان وأوطأ "ه من بني توجين ساحته كما ذكرناه. ثم انصرف إلى شأنه من

الجهاد. وهلك يغمراسن بن زيان على تفيئة ذلك سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، وأوصى ابنه عثمان ولي عهده.

زعموا أن لا يحدث نفسه بمقاومة بني مرين ومساماتهم في الغلب، وأن لا يبرز إلى لقائهم بالصحراء، وأن يلوذ منهم بالجدران متى سموا إليه. وألقى إليه، زعموا أن بني مرين بعد تغلبهم على مراكش، وإضافة سلطان الموحّدين إلى سلطانهم ازدادت قوتهم وتضاعف غلبهم، وقال له: زعموا فيما أوصاه : لاّ يغرنك أني زحفت بعدها إليهم، وبرزت إلى لقائهم. فإني أنفت أن أرجع عن مقاومتهم بعد اعتيادها، وأترك مبارزتهم وقد عرفها الناس. وأنت فلا يضرك العجز عن مبارزتهم والنكول عن لقائهم، فليس لك في ذلك مقام معلوم، ولا عادة سالفة واجهد جهدك في التغلب على أفريقية وراءك، فإن فعلت كانت المناهضة". وهذه الوصاة زعموا هي التي حملت عثمان وبنيه من بعده على طلب ملك أفريقية، ومنازلته بجاية، وحربهم مع الموحدين. ولما هلك يغمراسن ذهب عثمان ابنه إلى مسالمة بني مرين، فبعث أخاه محمدا إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق، وأجاز البحر إليه بالأندلس. ووافاه مراكش في إجازته الرابعة سنة أربع وثمانين وسبعمائة، فعقد له على ما جاء إليه من السلم والمهادنة. ورجعه إلى أخيه وقومه ممتليا كرامة وسرورا. وهلك يعقوب بن عبد الحق إثر ذلك سنة خمس وثمانين وسبعمائة، وقام بالأمر ابنه يوسف بن يعقوب. وانتزى الخوارج عليه بكل جهة، فشمر لهم واستنزلهم وحسم أدواءهم. ثم خرج ابنه عليه آخرا كما ذكرناه بممالأة الشيطان محمد بن عطو. ثم فاء إلى طاعة أبيه، ورضي عنه، وأعاده إلى مكانه من حضرته. وطالب عثمان بن يغمراسن كما ذكرناه في ابن عطو المنتزي عليه مع ابنه، فأبى عثمان من إسلامه. وتحركت حفيظة السلطان واعتزم على غزوهم، فارتحل من مراكش لصفر من سنة تسع وثمانين وسبعمائة. وعهد عليها لابنه الأمير أبي عبد الرحمن. ثم نهض لغزاته من فاس آخر ربيع من سنته في عساكره وجنوده. وحشد القبائل وكافة أهل المغرب، وسار حتى نزل تلمسان. فانحجر عثمان وقومه بها، ولاذوا منه بجدارنها. فسار في نواحيها ينسف الآثار، ويخرب العمران ويحطم الزرع. ثم نزل بذراع الصابون من ساحتها. ثم انتقل منه إلى ثمامة وحاصرها أربعين يوما، وقطع شجراءها، وأباد غضراءها. ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعا إلى المغرب. وقضى نسك الفطر بعين الصفا من

بلاد بني يزناتن، ونسك الأضحى وقربانه بتازى، وتلبث بها، ومنها كان فصوله للغزو عند انتقاض الطاغية كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض الطاغية وإجازة السلطان لغزوه.

لما رجع السلطان من غزو تلمسان، وافاه الخبر بأن الطاغية شانجة انتقض ونبذ العهد، وتجاوز التخوم. وغار على الثغور، فأوعز إلى قائد المسالح علي بن يوسف بن يزكاسن بالدخول إلى دار الحرب، ومنازلة شريش. وشن الغارات على بلاد الطاغية، فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين. وجاس خلالها، وتوغل في أقطارها، وأبلغ في النكاية. وفصل السلطان من تازى غازيا على أثره في جمادى، واحتل قصر مصمودة، واستنفر أهل المغرب وقبائله. ونفروا وشرع في إجازتهم البحر. وبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزا دون الإجازة، فأوعز السلطان إلى قواد أساطيله بالسواحل وأغزاهم. التقت الأساطيل ببحر الزقاق في شعبان، فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصهم الله. ثم أغزاهم ثانية، وخامت أساطيل العدو عن اللقاء، وصاعدوا عن الزقاق. وملكته أساطيل السلطان، فأجاز أخريات رمضان واحتل بطريف. ثم دخل دار الحرب غازياً، فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر وضيق عليهم. وبث السرايا في أرض العدو، وردد الغارات على شريش وإشبيلية ونواحيهما إلى أن أبلغ في النكاية والإثخان، وقضى من الجهاد وطرأ. وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع الميرة عن المعسكر، فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة. ثم أجاز إلى المغرب فاتح إحدى وتسعين وسبعمائة، فتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منعه الإجازة، كما نذكره إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبرعن انتقاض ابن الأحمر ومظاهرته الطاغية علي طريف أعادها الله:

ولما قفل السلطان من غزاته فاتح إحدى وتسعين وسبعمائة كما ذكرناه، وقد أبلغ في نكاية العدو، وأثخن في بلاده، فأهم الطاغية أمره، وثقلت عليه وطأته، والتمس الوليجة من لمحونه. وحذر ابن الأحمر غائلته، ورأى أن مغبة حاله الاستيلاء على الأندلس وغلبه على أمره، ففاوض الطاغية، وخلصوا نجيا. وتحدثوا أن استمكانه من الإجازة إليهم إنما هو نجرب مسافة بحر الزقاق، وانتظام ثغور المسلمين حفافيه بتصرف شوانيهم وسفنهم متى أرادوا فضلا عن الأساطيل. وإن أم تلك الثغور طريف، وإنهم إذا استمكنوا منها كانت ربيئة لهم على بحر الزقاق. وكان

أسطولهم من مرقاها بمرصد لأساطيل صاحب المغرب الخائضين لجة ذلك البحر، فاعتزم الطاغية على منازلة طريف. وزعم له ابن الأحمر

بمظاهرته على ذلك، وشرط له المدد، والميرة لأقوات العسكر أيام منازلتها على أن تكو له إن حصلت. وتعاونوا على ذلك، وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف. وألح عليها بالقتال، ونصب الآلات، وانقطع عنها المدد والميرة. واحتلت أساطيله ببحر الزقاق، فحالت دون الصريخ من السلطان وإخوانهم المسلمين. وضرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريبا منه، وسرب إليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الأقوات وبعث عسكرا لمنازلة أصطبونة، وتغلب عليه بعد مدة من الحصار. واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار، فراسلوا الطاغية لى الصلح والنزول عن البلد، فصالحهم واستنزلهم سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. ووفى لهم بعهد واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية عنها كما عهدا عليه، فأعرض عن ذلك واستا بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضا منها، ففسد ذات بينهما. ورجع ا الأحمر إلى تمسكه بالسلطان واستغاثته به لأهل ملته على الطاغية. وأوفد ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني، في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة، وتقرير المعذرة من شأن طريف. فوافوه مكانه منازلة تازوطا كما نذكر بعد، فأبرموا العقد وأحكموا الصلح. وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة بإسعاف غرضه من المؤاخاة واتصال اليد. وهلك خلال ذلك قائد المسالح بالأندلس علي بن يزكاسن في ربيع سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة. وعقد السلطان لا وولي عهده الأمير أبي عامر على ثغور الأندلس التي في طاعته، وعهد له بالنظر مصالحها. وأنفذه إلى المجاز بعسكره، فوافاه هنالك السلطان ابن الأحمر، كما نذكر شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن وفادة ابن الأحمر علي السلطان والتقائهما بطنجة:

لما رجعت الرسل إلى ابن الأحمر، وقد كرمت وفادتهم، وقضيت حاجاتهم وأحكمت في المؤاخاة مقاصدهم، وقع ذلك من ابن الأحمر أجمل موقع، وطار سر من أعواده. وأجمع الرحلة إلى السلطان لاستحكام العقد، والاستبلاغ في العذر واقعة طريف وشأنها، واستعدادهم لإغاثة المسلمين

ونصرهم من عدوهم. فاعتزم ذلك وأجاز البحر ذا القعدة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، واحتل بنيونش من ساحة سبتة ثم

ارتحل إلى طنجة، وقدم بين يدي نجواه هدية سنية، أتحف بها السلطان، كان من أحفلها وأحسنها موقعا لديه فيما زعموا المصحف الكبير، أحد مصاحل عثمان بن عفان الأربعة المنبثقة إلى الآفاق، المختص هذا منها بالمغرب، كما نقله السلف. كان بنو امية يتوارثونه بقرطبة، فتلقاه الأمير أبو عامر هنالك وأخوه الأمير أبو عبد الرحمن ابنا السلطان واحتفلا في مبرته. ثم جاء السلطان على أثرهما من حضرته لتلقيه وبرور مقدمه، ووافاه بطنجة وأبلغ في تكرمته، وبر وفادته بما يكرم به مثله. وبسط ابن الأحمر العذر عن شأن طريف، فتجافى السلطان عن العذل. وأعرض عنه وقبل منه، وبر واحتفى، ووصل وأجزل.. ونزله له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغربية، وعشرين حصنا من ثغور الأندلس، كانت من قبل لطاعة صاحب المغرب ونزل عساكره. وعاد ابن الأحمر إلى الأندلس خاتم اثنتين وتسعين وسبعمائة محبوا محبورا. وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف. وعقد على حربها ومنازلتها لوزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرباش الجشمي، فنازلها مدة، وامتنعت فأفرج عنها. وصرف السلطان همه إلى غزو تلمسان، وحصارها كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتزاء ابن الوزير الوطاسي بحصن تازوطا من جهة الريف واستنزال السلطان إياه:

كان بنو الوزير هؤلاء رؤساء بني وطاس من قبائل بني مرين، ويرون أن نسبهم دخيل في بني مرين. وأنهم من أعقاب علي بن يوسف بن تاشفين لحقوا بالبدو، ونزلوا على بني وطاس ورسخت فيهم عروقهم، حتى لبسوا جلدتهم. ولم يزل السرو متربعا بين أعينهم لذلك، والرياسة شامخة بأنوفهم. وكانوا يرومون الفتك بالأمراء من أولاد عبد الحق، فلم يطيقوه. ولما احتل السعيد بتازى غازيا إلى تلمسان كما ذكرناه، ولحق ببلدهم الأمير أبو يحيى بن عبد الحق، ائتمروا في الفتك به. ونذر بشأنهم فارتحل، ففر الى غبولة وعين الصفا من بلاد بني يزناسن. وهنالك بلغه خبر مهلك السعيد. وكانت بلاد الريف لبني وطاس من لدن دخول بني مرين المغرب واقتسامهم لأعماله، فكانت ضواحيها لنزلهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم. وكان حصن

تاوزطا بها من أمنع معاقل المغرب، وكان الملوك من أولاد عبد الحق يعتنون بشأنه وينزلون به من أوليائهم من

يثقون بغنائه واضطلاعه، ليكون آخذا بناصية م!ت هؤلاء الرهط وشجا في صدورهم عما يسمون إليه. وكان السلطان قد عقد عليه لمنصور ابن أخيه الأمير أبي مالك، بعد مهلك أبيه أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق. وكان عمر بن يحيى بن الوزير وأخوه عامر رئيسين على بني وطاس لذلك العهد، فاستوهنوا أمر السلطان بعد مهلك أبيه. وحدثوا أنفسهم بالانتزاء بتازوطا والاستبداد بتلك الناحية، فوثب عمر منهم بمنصور ابن أخي السلطان شهر شؤال من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وفتك برجاله وذويه، وأزعجه عنه، وغلبه على مال الجباية الذي كان بقصره، فاستصفاه واستأثر به. واستبد وشحن الحصن برجاله وحاشيته ووجوه قومه. ووصل منصور إلى السلطان، وهلك لليال من منجاته أسفا لما أصابه. وسرح السلطان وزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرباش بالعساكر لمنازلته، فأناخ عليه. ثم نهض السلطان على أثره، ووافاه وضرب معسكره بساحته. وخالف عامر أخاه عمر إلى السلطان بقومه حذرا من مغبة الأمر، وأشفق عمر لشدة الحصار ويئس من الخلاص، وظن أن قد احيط به. ودس إلى أخيه عامر، فاذن السلطان في مداخلته في النزول عن الحصن، فاذن له. واحتمل ذخيرته، وفر إلى تلمسان. وبدا لعامر في رأيه عندما خلص إلى الحصن وخلا له من عمر أخيه الجو. وحذر غائلة السلطان وخشي أن يثأر منه بأخيه، فامتنع بالحصن. ثم ندم وسقط في يده. وفي خلال ذاك كان وصول وفد الأندلس، وأرسوا أساطيلهم بمرقى غساسة. فبعث إليهم عامر أن يشفعوا له عند السلطان لوجاهتهم لديه، فتقبلت شفاعتهم على شريطة إجازته إلى الأندلس. وكره ذلك وقدم بين يديه بعض حاشيته إلى الأسطول مكرا بهم. وخاض الليل إلى تلمسان، فتقبّضالسلطان على ولده وقتل. وأسلم أهل الأسطول من كان من حاشيته لديهم، وتجافوا عن إجازتهم على السلطان لما مكر بهم عامر. فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذويهم. وتملك السلطان حصن تازوطا، وأنزل به عماله ومسلحته، وقفل إلى حضرته بفاس آخر جمادى من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة. والله تعالى أعلم.

الخبر عن نزوع أبي عامر ابن السلطان إلى بلاد الريف وجبال غمارة:

كان الأمير أبو عامر بعد إجازة ابن الأحمر إلى السلطان أبيه ورضاه عنه، وتأكيد مؤاخاته وإغزاء وزيره عمر بن السعود لمنازلة طريف، واستنزاله أولاد الوزير المنتزين

بحصن تازوط، رجع من قصر مصمودة إلى بلاد الريف، بإيعاز أبيه إليه بذلك لتسكين أحوالها. وكان أولاد الأمير أبي يحيى بن عبد الحق قد نزعوا إلى تلمسان لسعاية فيهم وقرت في صدر السلطان، فأقاموا بها أياما. ثم استعطفوا السلطان واسترضوه، فرضي وأذن لهم في الرجوع إلى محلهم من قومهم ودولتهم. وبلغ الخبر الأمير أبا عامر، وهو بمعسكره من الريف، فأجمع على اغتيالهم في طريقهم يظن أنه يرضي بذلك أباه. واعترضهم بوادي القطف من بلاد ملوية سنة خمس وتسعين وسبعمائة، فاستلحمهم. وانتهى الخبر إلى السلطان، فقام في ركائبه وقعد، وتبرأ إلى الله من إخفار ذمته، ومن صينع ابنه. وسخطه وأقصاه، فذهب مغاضبا ولحق ببلاد الريف. ثم صعد إلى جبال غمارة، فلم يزل طريدا بينهم. ونازلته عساكر أبيه لنظر ميمون بن ودران الجشمي، ثم لنظر زيكن بن المولاة تاميمونت. وأوقع بهم مرارا اخرها بيرزيكن سنة تسع وتسعين وسبعمائة. وذكر الزليخي مؤرخ دولتهم أن خروجه بجبل غمارة كان سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وقتله لأولاد الأمير أبي يحيى كان سنة خمس وتسعين وسبعمائة بعدها، أغرا بهم من مثوى انتزائه، وقتلهم كما ذكرناه والله أعلم. ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك ببني سعيد من جبال غمارة سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، ونقل شلوه إلى فاس فووري بباب الفتوح بملجد قومهم هنالك. وأعقب ولدين كفلهما السلطان جدهما، فكانا الخليفتين من بعده، على ما نذكر إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن ترديد الغزو إلي تلمسان ومنازلتهما:

كان عثمان بن يغمراسن بعد إفراج السلطان عنه سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وانتقاض الطاغية وابن الأحمر عليه كما قلناه، صرف إلى ولايتهما وجه تدبيره. وأوفد على الطاغية ابن بريدي من صنائع دولته سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ورجعه الطاغية مع الريك ريكسن رسول من كبار قومه. ثم أعاد إليه الحاج المسعود من حاشيته، ووصل يده بيده يظن ذلك دافعا عنه. واعتدها السلطان عليه، وطوى له على النث. حتى إذا فرغ من شأن الأندلس، وهلك الطاغية شانجة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة لإحدى عشرة من سني ملكه. وارتحل السلطان الى طنجة لمشارفة أحوال

الأندلس سنة أربع وتسعين وسبعمائة، فأجاز إليه السلطان ابن الأحمر ولقبه بطنجة، وأحكم معه المؤاخاة. ولما استيقن سكون أحوالها، نزل لابن الأحمر عن جميع الثغور التي بها لطاعته، وأجمع غزو تلمسان. ولحق به بين يدي ذلك ثابت بن

منديل المغراوي صريخاً على ابن يغمراسن ومستجيشاً بقومه، فتقبله وأجاره.

وكان أصاب الناس أعوام اثنتين وتسعين وسبعمائة وما بعدها قحط، ونالتهم سنة وهنوا لها.

ثم إن الله رحم خلاقه وأدر نعمته، وأعاد الناس إلى ما عهدوه من سبوغ نعمهم وخصب عيشهم. ووفد عليه سنة أربع وتسعين وسبعمائة ثابت بن منديل أمير مغراوة مستصرخا به من عثمان بن يغمراسن، فبعث من كبار قومه موسى بن أبي حمّو إلى تلمسان شفيعا لثابت بن منديل، فرده عثمان أقبح رد وأساء في إجابته، فعاود الرسالة إليه في شأنه، فلم تزدهم إلا ضررا، فاعتزم على غزو بلادهم واستعد لذلك. ونهض سنة أربع وتسعين وسبعمائة حتى انتهى إلى بلاد لاوريرت، وكان تشما لعمل بني مرين وبني عبد الواد: في جانبها عامل السلطان أبي يعقوب، وفي جانبها الآخر عامل عثمان بن يغمراسن. فطرد السلطان عامل يغمراسن وتميز بها. واختط الحصن الذي هنالك لهذا العهد. تولاه بنفسه يغادي الفعلة ويراوحهم. وأكمل بناءه في شهر رمضان من سنته، واتخذه ثغرا لملكه. وأنزل بني عسكر لحياطته وسد فروجه. وعقد عليه لأخيه أبي يحيى بن يعقوب، وانكفأ راجعا إلى ا لحضرة.

ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين وسبعمائة غازيا إلى تطمسان. ومرّ بوجدة فهدم أسوارها، وتغلب على مسيفة والزعارة. وانتهى إلى ندرومة، ونازلها أربعين يوما ورماها بالمجانيق. وضيق عليها، فامتنعت عليه، فأفرج عنها ثاني الفطر. ثم غزا تلمسان سنة ست وتسعين وسبعمائة، وبرز لمدافعته عثمان بن يغمراسن، فهزمه وأحجزه بتلمسان ونزل بساحته، وقتل خلقا من أهلها، ونازلها أياما، ثم أقلع عنها، وقفل إلى المغرب، وقضى منسك الأضحى من سنته بتازى. فأعرس هنالك بحافدة ثابت بن منديل، كان أصهر فيها إلى جذها قبل مهلكه سنة ست وتسعين وسبعمائة قتيلا ببحيرة الزيتون من ظاهر فاس. قتله بعض بني ورتاجن في دم كان لهم في قومه، فثار السلطان به من قاتله وأعرس بحافدته. وأوعز ببناء القصر بتازى، وقفل إلى فاس فاتح سبع وتسعين وسبعمائة. ثم ارتحل إلى مكناسة وانكفأ

إلى فاس. ثم نهض في جمادى غازيا تلمسان. ومرّ بوجدة فأوعز ببنائها وتحصين أسوارها، واتخذ فيها قصبة ودارا لسكناه ومسجدا وأغزى إلى تلمسان. ونزل بساحتها، وأحاطت عساكره إحاطة الهالة بها، ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار ازدلف إليه الصناع والمهندسون بعملها، وكانت توقر على أحد عشر بغلا.

ثم لما امتنعت عليه تلمسان، أفرج عنها فاتح سنة ثمان. ومرّ بوجدة، فأنزل بها الكتائب من بني عسكر لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت. وأوعز إليهم، فتردد الغارات على أعمال ابن يغمراسن وإفساد سابلتها. وضاقت أحوالهم ويئسوا من صريخ صاحبهم، فأوفدوا على الأمير أبى يحيى وفدا منهم يسألون الأمان لمن وراءهم من قومهم، على أن يمكنوه من قياد بلدهم، ويدينوا بطاعة السلطان فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم، ودخل البلد بعسكره. واتبعهم أهل تاوونت. وأوفد مشيختهم جميعا على السلطان اخر جمادى، فقدموا عليه بحضرته. وأدوا طاعتهم، فقبلها. ورغبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوهم ابن يغمراسن. ووصفوا من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية، ما استنهض السلطان لذلك، على ما نذكر إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن الحصار الكبير لتلمسان وما تخلل ذلك من الأحداث:

لما توفرت عزائم السلطان على النهوض إلى تلمسان، ومطاولة حصارها إلى أن

يظفر بها وبقومها، واستيقن أنه لا مدافع له عن ذلك، فنهض من فاس في شهر رجب سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، بعد أن استكمل حشده. ونادى في قومه، واعترض عساكره وأجزل أعطياتهم، وأزاح عللهم. وارتحل في التعبية، واحتل بساحة تلمسان ثاني شعبان وأناخ عليها وضرب معسكره بفنائها. وأحجز عثمان بن يغمراسن وحاميتها من قومه، وأدار الأسوار سياجاً على عمرانها كله، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى. ورتب المسالح على أبوابها وفرجها. وسرح عساكره إلى هنين، فافتتحها وأتوا طاعتهم، وأوفدوا مشيختهم وسط شعبان. ثم سرح عساكره لمحاصرة وهران وتقري البسائط ومنازلة الأمصار، فأخذت مازونة في جمادى الآخرة من سنة تسع وتسعين وسبعمائة. ونهض في شعبان بعده فافتتح تاللوت والقصبات وتامززدكت في رمضان منه. وفيه كان فتح مدينة وهران. وسارت عساكره في الجهات إلى أن بلغت بجاية كما نذكره. وأخذ الرعب بقلوب الأمم بالنواحي، وتغلب على ضواحي مغراوة وتوجين، وسارت فيها عساكره ودوختها كتائبه، واقتحمت أمصارها راياته: مثل مليانة ومستغانم وشرشال

والبطحاء ووانشريش والمدية وتافركينت. وأطاعه زيري المنتزي ببرشك، وأتى بيعته. وابن علان المنبري بالجزائر،

وأتى بيعته. وأزعج الناكبين منهم عن طاعته. واستألف أهل الصاغية كما نذكره. وحذره الموحدون من ورائهم بإفريقية ملوك بجاية وملوك تونس، فمدوا إليه يد المواصلة ولاطفوه بالمتاحفة والمهاداة وخاطب صاحب الديار المصرية ملك الترك، وهاداه وراجعه كما نذكره. ووفد عليه شرفاء مكة بنو أبي نمي كما نذكر. وهو في خلال ذلك مستجمع لمطاولة الحصار والتضييق، متجاف عن القتال إلا في بعض الأيام، لم تبلغ زعموا أربعة أو خمسة، ينزل شديد العقاب والسطو بمن يميرها ويأخذ بالمراصد على من يتسلل بالأقوات إليها. قد جعل سرادق الأسوار المحيطة ملاكا لأمره في ذلك، فلا يخلص إليهم الطيف ولا يكاد يصل إليهم العيث مدة مقامه عليها، إلى أن هلك بعد ماية شهر كما نذكره. واختط بمكان فساطيط المعسكر قصرا لسكناه، واتخذ فيه مسجدا لمصلاه. وأدار عليها السور، وأمر الناس بالبناء، فابتنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين وأجروا المياه. ثم أمر بإدارة السور سياجا على ذلك سنة اثنتين وسبعماية وصيرها مصرا، فكانت من أعظم الأمصار والمدن، وأحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق أسواق واحتفال بناء وتشييد منعة. وأمر باتخاذ الحمامات والخانات والمارستان، وابتنى بها مسجدا جامعا. وشيد له مأذنة رفيعة، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها. وسماها المنصورة، واستبحرت عمارتها، وهالت أسواقها. ورحل إليها التجار بالبضائع من الافاق، فكانت أحد مدائن المغرب. وخربها آل يغمراسن عند مهلكه، وارتحال كتائبه عنها، بعد أن كان بنو عبد الواد أشرفوا على الهلاك، وأذنوا بالانقراض كما نذكره، فتداركهم من لطف الله ما شأنه أن يتدارك المتورطين في الهلاك والله غالب على أمره.

الخبر عن افتتاح بلاد مغراوة وما تخلل ذلك من الأحداث:

لما أناخ السلطان عن ظمسان، وتغلب على ضواحي بني عبد الواد، وافتتح أمصارهم سما إلى التغلب على ممالك مغراوة وبني توجين. وكان ثابت بن منديل قد وقد على السلطان بمقر ملكه من فاس سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وأصهر إليه في حافدته، فعقد له عليها. وهلك ثابت بمكان وفادته من دولتهم، وأعرس السلطان بحافدته سنة ست وتسعين

وسبعمائة كما ذكرنا ذلك كله من قبل، فلما تغلب السلطان على أعمال بني عبد الواد،

جهز عساكره إلى بلاد مغراوة وعقد عليها لعلي بن محمد الخيري من عظماء بني ورتاجن، فتغلبوا على الضواحى وشردوا مغراوة إلى رؤوس المعاقل. واعتصم راشد بن محمد بن ثابت بن مندا!ل صهر السلطان بمليانة، فنازلوه بها. ثم استنزلوه على الأمان سنة نسع وسعين، وأوفدوه على السلطان، فلقاه مبرة وتكرمة، وخلطه بجملته المكان أصهره معه.

ثم افتتحوا مدينة تنس ومازونه وشرشال. وأعطى زيري بن حماد المنتزي على برشك من بلادهم يد الطاعة. وأوفد على السلطان للبيعة واستولوا على ضواحي شلف كلها. ولاذت مغراوة بطاعة السلطان. وعقد عليهم وعلى جميع بلادهم لعمر بن ويغرن بن منديل فأسف لذلك راشد بن محمد لما كان يراه لنفسه من الاختصاص. ولما كانت أخته حظية السلطان وكريمته، ونافس عمر بن ويغرن في إمارة قومه، فلحق بجبال متيجة، وأجلب على من هنالك من عمال السلطان وعساكره. وانحاش إليه مرضى القلوب من قومه، فاعصوصبوا عليه. وداخل أهل مازونة، فانتقضوا على السلطان وملكوه أمرهم في شهر ربيع من الماية السابعة. ثم بيت عمر بن ويغرن بمعسكره من وازمور، فقتله واستباح المعسكر. وبلغ الخبر إلى السلطان، فسرح العساكر من بني مرين. وعقد لعلى بن الحسن بن أبي الطلاق على قومه من بني عسكر، ولعلي بن محمد الخيري قومه من بني ورتاجن، وجعل الأمر شورى بينهما، وأشرك معهما عليا الحساني من صنائع دولته، وأبا بكر بن إبراهيم بن عبد القوي من أعياص بني توجين. وعقد على مغراوة لمحمد بن عمر بن منديل، وأشركه معهم، وزحفوا إلى راشد. ولما أحس بالعساكر لجأ إلى معقل بني بو سعيد فيمن معه من شيعته مغراوة. وأنزل بمازونة عليا ابني عمه يحيى بن ثابت واستوصاهم بضبط البلد، وأنه مشرف عليهم من الجبل.

وجاءت عساكر السلطان إلى بلاد مغراوة، فتغلبوا على البسائط وأناخوا بمازونة، وضربوا معسكرهم بساحتها وأخذوا بمخنقها، واهتبل علي وقومه غرة في معسكر بني مرين، فبيتهم سنة إحدى وسبعماية. وانفض المعسكر وتقبض على علي بن محمد الخيري، ثم امتنعوا عليه وعاد المعسكر إلى مكانه من حصارهم. وجهدهم حالهم، فنزل إليهم حمّو بن

يحيى على حكم السلطان. وأنفذوه إليه، فتقبّضعليه. ثم نزل علي ثانية من غير عهد فأشخصوه إلى السلطان ولقاه مبرة وتكريما، تأنيسا لراشد المنتزي

بمعقله. واقتحمت مازونة على أهلها عنوة سنة ثلاث، فمات منهم عالم واحتملت رؤوسهم إلى سدة السلطان، فرميت في حفائر البلد المحصور إرهابا لهم وتخذيلا. ولما عقد السلطان لأخيه أبي يحيى على بلاد الشرق، وسرحه لتدويخ التخوم، نازل راشدا بمعقله من بني بوسعيد. فبيت راشد معسكرهم إحدى لياليه، فانفضوا وقتل طائفة من بني مرين. ووجد لها السلطان، فأمر بقتل علي وحمّو ابني عمه يحيى، ومن كان معتقلا معهما من قوه هم. رفعوهم على الجذوع، وأثبتوهم بالسهام. ونزل راشد بعدها عن معقله ولحق بمتيجة، وانحاش إليه عمه منيف بن ثابت، وأوشاب من مغراوة. وتحيز الاخرون إلى أميرهم محمد بن عمر بن منديل الذي عقد له السلطان عليهم. ثم تأشبت على راشد ومنيف خوارج الثعالبة ومليكش، وصمد إليهم الأمير أبو يحيى في عساكره ثانية ونازلهم بمعاقلهم ورغبوا في السلم، فبذله السلطان لهم. وأجاز منيف بن ثابت إلى الأندلس فيمن إليه من بنيه وعشيره، فاستقروا بها آخر الأيام. ولحق راشد ببلاد الموحدين. ووفد محمد بن عمر بن منديل سنة خمس على السلطان، فأوسعه حبا وتكريما. وتمهدت بلاد مغراوة، واستبد بملكها السلطان، وصرف إليها العمال ولم يزل كذلك إلى أن هلك سنة ست. والله تعالى أعلم.

الخبر عن افتتاح بلاد بني توجين وما تخلل ذلك:

لما نازل يوسف بن يعقوب تلمسان وأحاط بها، وتغلب على بلاد بني عبد الواد،

سما إلى تملك بلاد بني توجين. وكان عثمان بن يغمراسن قد غلبهم على مواطنهم، وملك جبل وانشريش وتصرف في بلاد عبد القوي بالولاية والعزل وأخذ الأتاوة سنة إحدى وسبعماية. وأوعز إليه السلطان ببناء البطحاء التي هدمها محمد بن عبد القوي، فبناها وتوغل في قاصية الشرق ثم انكفأ راجعا إلى حضرة أخيه وعطف على بلاد بني توجين سنة اثنتين، وفر بنو عبد القوي إلى ضواحيهم بالقفر، ودخل جبل وانشريش، وهدم حصونهم به، ورجع إلى الحضرة. ثم بادره أهل تافركنيت سنة ثلاث بإتيان الطاعة، ونقضوا بعدها. ثم بعث أهل المدية بطاعتهم للسلطان، فتقبلها وأوعز ببناء قصبتها. وراجع بنو عبد القوي بعد ذلك بصائرهم في طاعة السلطان، ووفدوا عليه بمكانه من

المنصورة مدينته المحيطة على تلمسان سنة ثلاث، فتقبل طاعتهم وراعى سابقتهم

وأعادهم إلى بلادهم وأقطعهم، وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي. وأوعز ببناء قصبة المدية سنة أربع، وكملت سنة خمس. وهلك علي بن الناصر خلال ذلك، فعقد عليهم لمحمد بن عطية الأصم كما ذكرناه، فاستمر على الطاعة. ثم انتقض سنة ست، وحملى قومه على الخلاف وانتبذوا عن الوطن، إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما ذكرناه والله تعالى أعلم.

الخبر عن مراسلة الموحّدين ملوك أفريقية بتونس وبجاية وأحواله معهم:

كان لبني أبي حفص ملوك أفريقية مع زناتة هؤلاء أهل المغرب من بني مرين وبني
عبد الواد سوابق مذكورة، فكانت لهم على يغمراسن وبنيه طاعة معروفة يودون بيعتها ويخطبون على منابرهم بدعوتها مذ تغلب الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد على تلمسان، وعقد عليها ليغمراسن، واستمر حالهم على ذلك. وكانت لهم أيضا مع بني مرين ولاية سابقة، بما كان بنو مرين مذ أول أمرهم يخاطبون الأمير أبا زكريا، ويبعثون له ببيعة البلاد التي تغلبوا عليها: مثل مكناسة والقصر ومراكش آخرا. ثم صارت خالصة من لدن عهد المستنصر ويعقوب بن عبد الحق. وكانوا يتحفونهم بالمال والهدايا في سبيل المدد على صاحب مراكش وقد ذكرنا السفارة التي وقعت بينهما سنة خمس وستين، وإن يعقوب أوفد عامر بن إدريس وعبد الله بن كندوز ومحمد الكناني وأوفد عليه المستنصر سنة سبع بعدها كبير الموحّدين يحيى بن صالح الهنتاتي في وفد من مشيخة الموحدين، ومعهم هدية سنية. ثم أوفد الواثق ابنه سنة سبع وسبعين قاضي بجاية المذكور أبا العبّاس أحمد الغماري، وأسنى الهدية معه. ولم يزل الشأن بينهم هذا إلى أن افترق أمر آل أبي حفص. وصار الأمير أبو زكريا ابن الأمير أبي إسحاق بن يحيى بن عبد الواحد من عشه بتلمسان في وكر عثمان بن يغمراسن. وأسف إلى بجاية، فاستولى عليها سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة. واستضاف إليها قسنطينة وبونة، وصيرها عملا لملكه، ونصب بها كرسيا لأمره. وأسف عثمان بن يغمراسن لفراره من بلده، لما كان عليه من التمسك بدعوة عفه أبي حفص صاحب تونس، فشق ذلك عليه ونكره، واستمرت الحال على ذلك. ولما أخذ السلطان يوسف بن يعقوب بمخنق تلمسان، وأوسع قواعد ملكه بساحتها،

وسرح عساكره لالتهام الأمصار والجهات، توجس الموحدون الخيفة منه على

أوطانهم. وكان الأمير أبو زكريا في جهات تدلس محاميا عن حوزته وعمله. ووصله هنالك راشد بن محمد نازعا عن السلطان أبي يعقوب. ثم طلعت العساكر على تلك الجهات في أتباعه، فزحف إليه عسكر الموحّدين سنة تسع وتسعين وسبعمائة بناحية جبل الزاب، ففضوا جمعه. وأوقعوا به واستلحموا جنوده واستبحر القتل فيهم، وبقيت عظامهم ماثلة بمصارعهم سنين.

ورجع الأمير أبو زكريا إلى بجاية، فانحصر بها. وهلك تفيئة ذلك على رأس الماية السابعة. وقارن ذلك مغاضبة بينه وبين أمير الزواودة لعهده عثمان بن سباع بن يحيى بن دريد بن مسعود البلط، فوفد على السلطان اخريات إحدى وسبعماية. ورغبه في ملك بجاية، واستغذه للسير إليها، فأوعز إلى أخيه الأمير أبي يحيى بمكانه من منازلة مغراوة ومليكش والثعالبة، بأن ينهض إلى عمل الموحدين. وسار عثمان بن سباع وقومه بين يدي العساكر يتقصون الطريق، إلى أن تجاوز الأمير أبو يحيى بعساكره بجاية. واحتل بتاكرارت من أوطان سدويكش من أعمال بجاية. وأطل على بلاد سدويكش، وانكفأ راجعا، فأوطأ عساكره بساحة بجاية، وبها الأمير خالد بن يحيى. وناشبهم القتال ببعض أيام جلا فيها أولياء السلطان أبي البقاء عن أنفسهم وسلطانهم. وأمر بروض السلطان المسمى بالبديع، فخربه وكان من أنيق الرياض وأحفلها. وقفل إلى مكانه من تدويخ البلاد. وأعرض عن أعمال الموحدين. وكان صاحب تونس لذلك العهد محمد المستنصر الملقب بأبي عصيدة بن يحيى الواثق، فأوفد على السلطان شيخ الموحّدين بدولته محمد بن أكمازير في أسباب الولاية، ومحكما مذاهب الوصلة ومقررا سوابق السلف، فوفد في مشيخة من قومه لشعبان سنة ثلاث. وناغاه الأمير أبو البقاء خالد صاحب بجاية، فأوفد مشيخة من أهل دولته كذلك. وبر السلطان وفادتهم وأحسن منقلبهم.

ثم عاد ابن أكمازير سنة أربع وسبعماية، ومعه شيخ الموحّدين وصاحب السلطان

أبو عبد الله بن يرزيكن في وفد من عظماء الموحدين. وأوفد صاحب بجاية حاجبه أبا محمد الرخامي، وشيخ الموحّدين بدولته عياد بن سعيد بن عثيمن.

ووفدوا جميعاً على السلطان ثالث جمادى، فأحسن السلطان في تكرمتهم ما شاء، وأوصلهم إلى نفسه بمساكن داره وأراهم أبهة ملكه وأطافهم قصوره ورياضه، بعد أن فرشت ونمقت، فملأ

قلوبهم جلالا وعظمة. ثم بعثهم إلى المغرب ليطوفوا على قصور الملك بفاس ومراكش، وشاهدوا آثار صلفهم،. وأوعز إلى عمال المغرب بالاستبلاغ في تكرمتهم وإتحافهم. فانتهوا من ذلك إلى الغاية، وانقلبوا إلى حضرته آخر جمادى، وانصرفوا إلى ملوكهم بالحديث عن شأن رسالتهم وكرامة وفدهم.

ثم أعاد ملوكهم مراسلة السلطان سنة خمس بعدها فوفد أبو عبد الله بن أكمازير من تونس، وعياد بن سعيد بن عثيمن من بجاية. وأوفد السلطان على صاحب تونس مع رسوله صاحب الفتيا بحضرته الفقيه أبا الحسن التنسي وعلي بن يحيى البرشكي رسولين يسألانه المدد بأسطوله، فقضوا رسالتهم سنة خمس، ووصل بخبرها أبو عبد الله المزدوري من مشيخة الموحدين. واقترن بذلك وصول حسون بن محمد بن حسون المكناسي من صنائع السلطان. كان أوفده مع ابن عثيمن على مراسلة الأمير أبي البقاء خالد صاحب بجاية في صلب الأسطول أيضا، فرجعوه بالمعاذير. وأوفدوا معه عبد الحق بن سليمان، فتلقاهم السلطان بالمبرة. وأوعز إلى عامره بوهران أن يستبلغ في تكريم عمرة الأسطول، فجرى في ذلك على مذهبه. وانقلبوا جميعا أحسن منقلب. وغني السلطان عن أسطولهم لفوات وقت الحاجة إليه من منازلة بلاد السواحل، إذ كان قد تملكها أيام مماطلتهم بيعته. واتصل الخبر بصاحب تلمسان الأمير أبي زيان بن عثمان المبايع أيام الحصار عند مهلك أبيه عثمان بن يغمراسن آخر سنة ثلاث، فبلغه صنع الموحّدين في موالاتهم عدوهم السلطان يوسف بن يعقوب ومظاهرته بأساطيلهم عليه، فأسفه ذلك وأخرس منابرهم عما كانت تنطق به من الدعاء من عهد يغمراسن فلم يراجع دعونهم من بعد. وهلك السلطان على تفيئة ذلك. والبقاء لله وحده.

الخبر عن مراسلة المشرق الأقصي ومهاد اتهم ووفادة أمراء الترك على السلطان وما تخلل:

لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بممالكه وأعماله، وهنأته ملوك الأقطار وأعراب الضواحي والقفار، وصلحت السابلة ومشت الرفاق إلى الآفاق، استجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم. ورغبوا من

السلطان إذنه لركب الحاج في السفن إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها لفساد السابلة واستهجان الدول. فسما للسلطان في ذلك أمل ودخله بحرم الله وروضة نبيه الشوق، فأمر بانتساخ مصحف رائق الصنعة كتبه

ونفقه أحمد بن حسن الكاتب المحسن. واستوسع في جرمه وجعل غشاءه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت. وجعلت منها حصاة وسط المغلق تفوت الحصيات مقداراً وشكلاً وحسنا. واستكثر من الأصونة عليه، ووقفه على الحرم الشريف، وبعث به مع الحاج سنة ثلاث. وعنى بشأن هذا الركب، فسرح معهم حامية من زناتة تناهز خمس ماية من الأبطال. وقلد القضاء عليهم محمد بن زغبوش من أعلام أهل المغرب، وخاطب صاحب الديار المصرية واستوصاه بحاج المغرب من أهل مملكته، وأتحفه بهدية من طرف بلاد المغرب، فاستكثر فيها من الخيل العراب، والمطايا الفارهة: يقال إن المطايا كانت منها أربعماية. حدثني بذلك من لقيته إلى ما يناسب ذلك من طرف المغرب وماعونه. ونهج السبيل بها للحجاج من أهل المغرب، فأجمعوا الحج سنة أربع بعدها. وعقد السلطان على دلالتهم لأبي زيد الغفائري، وفصلوا من تلمسان لشهر ربيع الأول.

وفي شهر ربيع الآخر بعده كان مقدم الحاج الأولين حملة المصحف ووفد معهم

على السلطان الشريف لبيدة بن أبي نمي نازعاً عن سلطان الترك، لما كان تقبض على أخويه خميصة ورميتة إثر مهلك أبيهم أبي !ي صاحب مكة سنة إحدى وسبعماية، فاستبلغ السلطان في تكريمه، وسرحه إلى المغرب ليجول في أقطاره ويطوف على معالم المملكة وقصوره. وأوعز إلى العمال بتكريمه، وإتحافه كل على شاكلته. ورجع إلى حضرة السلطان سنة خمس، وفصل منها إلى المشرق، وصحبه من أعلام المغرب أبو عبد الله فوزي حاجاً. ولشعبان من سنة خمس وصل أبو زيد الغفائري دليل ركب الحاج الآخرين، ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان، لما أسفهم صاحب مصر بالتقبض على إخوانهم. وكان شأنهم ذلك حتى غاضبهم السلطان. فقد سبق في أخبار المستنصر بن أبي حفص مثلها، وأهدى السلطان ثوبا من كسوة البيت شغف به واتخذ منه ثوبا للباسه في الجمع والأعياد، يستبطنه بين ثيابه تبركاً به. ولما وصلت هدية السلطان إلى صاحب مصر لعهده الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي حسن موقعها لديه، وذهب إلى

المكافأة، من طرف بلاده من الثياب والحيوان ما يستغرب جنسه وشكله من نوع الفيل والزرافة. وأوفد بها من عظماء دولته الأمير التليلي، وفصل من القاهرة اخريات سنة خمس، ووصلت إلى تونس في ربيع من سنة ست بعدها. ثم كان وصولها إلى سدة

السلطان بالمنصورة من البلد الجديد في جمادى الآخرة واهتز السلطان لقدومها، واستركب الناس للقائها. واحتفل للقاء هذا الأمير التليلي ومن معه من أمراء الترك، وبر وفادتهم واستبلغ في تكريمهم نزلاً وقرى، وبعثهم إلى المغرب على العادة في مبرة أمثالهم. وهلك السلطان خلال ذلك، وتقبل أبو ثابت سنته من بعده في تكريمهم، فأحسن منقلبهم وملا حقائبهم صلة وبرأ. وفصلوا من المغرب لذي الحجة سنع سبع. ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان، اعترضهم الأعراب بالقفر فأنهبوهم. وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن، فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سفرا، ولا لفتوا إليه وجها. وطال ما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه به، يهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئا.

وكان الناس لعهدهم ذلك يتهمون أن الذين نهبوهم أعراب حصين، بدسيسة من

صاحب تلمسان أبي حمّو لعهدهم، منافسة لصاحب المغرب لما بينهم من العداوات والإحن القديمة. أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي قال: حضرت بين يدي السلطان وقد وصله بعد الحاج من أهل بلده مستصحبا كتاب الملك الناصر بالعتاب على شأن هؤلاء الأمراء، وما أصابهم في طريقهم من بلاده، وأهدى له مع ذلك كوزين بدهن البلسان المختص ببلادهم، وخمسة مماليك من الترك رماة بخمسة أقواس من قسي الغز المؤنقة الصنعة من العرى والعقب، فاستقل السلطان هديته تلك بنسبة ما أهدوا إلى ملك المغرب. ثم استدعى القاضي محمد بن هدية، وكان يكتب عنه، فقال له: الآن اكتب إلى الملك الناصر ما أقول لك، ولا تحرف كلمة عن موضعها إلا ما تقتضيه صناعة الأعراب، وقل له: أما عتابك على شأن الرسل وما أصابهم في طريقهم، فقد حضروا عندي وأبنت لهم الاستعجال حذراً مما أصابهم، وأريتهم مخاوف بلادنا وما فيها من كوائل الأعراب، فكان جوابهم: إنا جئنا من عند ملك المغرب فكيف نخاف، مغترين بشأنهم يحسبون أن أمره نافذ في أعراب قبائلنا، وأما الهدية فردت عليك: أما دهن البلسان، فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت، وحسبنا به دهنا. وأما المماليك الرماة قد افتتحنا بهم إشبيلية وصرفناهم إليك لتفتح بهم بغداد والسلام. قال لي شيخاً،

وكان الناس إذ ذاك لا يشكون أن انتهابهم كان بإذن منه، وكان هذا الكتاب دليلا على ما في نفسه. وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون.

الخبر عن انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد علي سبتة وخروج عثمان بن أبي العلاء في غمارة:

لما أحكم السلطان عقد المهادنة والولاية مع السلطان ابن الأحمر المعروف بالفقيه، عند إجازته إليه بطنجة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة كما ذكرناه، وفرغ لعدوه، تمسك ابن الأحمر بولايته تلك، إلى أن هلك سنة إحدى وسبعماية في شهر شعبان منه. وقام بأمر الأندلس من بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع. واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله بن الحكيم من مشيخة رندة، كان اصطفاه لكتابته أيام أبيه، فاضطلع بأموره وغلب عليه. وكان هذا السلطان المخلوع ضرير البصر، ويقال إنه ابن الحكيم، فغلب عليه واستبد، إلى أن قتلهما أخوه أبو الجيوش نصر سنة ثمان كما نذكره. وكان من أول آرائه عند استيلائه على الأمر من بعد أبيه المادرة إلى إحكام ولاية السلطان، واتصال يده بيده، فأوفد عليه لحين ولايته وزير أبيه أبا السلطان عزيز الداني، ووزيره الكاتب أبا عبد الله من الحكيم فوفدوا على السلطان بمعسكره من حصار تلمسان، وتلقيا بالقبول والمبرة. وجددت له أحكام الود والولاية، وانقلبا إلى مرسلهما خير منقلب. وتقدم السلطان إليهم في المدد برجل الأندلس وناشبتهم المعودين منازلة الحصون والمناغرة بالربط، فبادروا إلى إسعافه وبعثوا حصتهم لحين مرجعهم إلى سلطانهم، فوصلت سنة اثنتين وسبعماية. وكانت لها نكاية في العدو وأثر في البلد المحروب. ثم بدا لمحمد بن الأحمر المخلوع في ولاية السلطان بمنافسات جرت إلى ذلك. وبعث إلى ابن أدفونش هراندة بن شانجة، وأحكم له عقد السلم، ولاطفه في الولاية، فانعقد ذلك بينهما سنة ثلاث. واتصل خبره بالسلطان، فسخطه. ورجع إليهم حصتهم آخر سنة ثلاث، لسنة من مقدمهم، بعد أن أبلو وأثخنوا وطوى لهم على النث، واعتمل ابن الأحمر وشيعته في الاستعداد لمدافعة السلطان، والإرصاد لسطوه بهم. وأوعز إلى صاحب مالقة عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن محمد بن نصر، وليه من دون القرابة بما كان له الصهر على اخته، والمضطلع بثغر الغربية، فأوعز إليه بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان، والقبض على بني العزفي، والرجوع إلى ولاية ابن الأحمر. وكان أهل سبتة منذ هلك إبراهيم الفقيه أبو

القاسم العزفي سنة سبع وسبعين، قام بأمرهم ولده أبو حاتم. وكان أخوه أبو طالب رديفا له في الأمر إلا أنه استبد عليه بصاغيته إلى الرياسة، وإيثار أبي حاتم

للخمول، مع إيجابه حق أخيه الأكبر، وإجابته الداعي متى روفع إليه، فاستقام أمرهما مدة. وكان من سياستهما من أولى أمرهما الأخذ بدعوة السلطان فيما لنظرهما، والعمل بطاعته والتجافي عن السكنى بقصور الملك، والتخرج عن أبهة السلطان لمكانهم، فأنزلوا بالقصبة عبد الله بن مخلص قائدا من البيوتات، اصطنعوه وجعلوا له أحكام البلد، وضبط الحامية، فاضطلع بذلك سنين. ثم أسفه يحيى بن أبي طالب ببعض النزعات الرياسية، وحجر عليه الأحكام في ذويه. ثم أغزى به أباه، وطالبه بحساب الخراج لعطاء الحامية. وغفلوا عما وراءها من التظنن فيه، والريب به، ثقة بمكانه، واستنامة إليه. وهم مع ذلك على أولهم في موالاة السلطان، والأخذ بدعوته، والوفود عليه في أوقاته. ولما فسدت ولاية ابن الأحمر للسلطان، وعقد على محاولة سبتة، وجد السبيل إلى ذلك بما طوى صاحب الأحكام بالقصبة على النث، فداخله الرئيس أبو سعيد صاحب الثغر بمالقة جارة سبتة، ووعده الغدر ببني العزفي، وأن يصبحهم بأساطيله، فشرع الرئيس أبو سعيد في إنشاء الأساطيل البحرية، واستنفار الناس للمناغرة. وإن العدو له ولمالقة بمرصد، وشحنها بالفرسان والرجل والناشبة والأقوات، وأخفى وجه قصده عن الناس حتى أقلعت أساطيله، وبيت سبتة لسبع وعشرين من شوال سنة خمس. وأرسى بساحتها لموعد صاحب القصبة، فأدخله إلى حصنه فملكه، ونشر رايته بأسوارها. وسرب جيوشه إلى البلد، فتسايلوا. وركب إلى دور بني العزفي، فتقبّضعليهم وعلى ولدهم وحاشيتهم. وطير الخبر إلى السلطان بغرناطة، فوصل الوزير أبو عبد الله بن الحكيم، ونادى في الناس بالأمان، وبسط المعدلة. وأركب بني العزفي في السفن إلى مالقة. ثم أجازوا إلى غرناطة، وقدموا على ابن الأحمر، فأجل قدومهم، وأركب الناس إلى لقائهم. وجلس له جلوسا فخما حتى أدوا بيعتهم، وقضوا وفادتهم، وأنزلوا بالقصور، واجريت عليهم سنيات الأرزاق. واستقروا بالأندلس إلى أن صاروا إلى المغرب بعد كما نذكر.

واستبد الرئيس أبو سعيد بأمر سبتة، وثقف أطرافها، وسد ثغورها، وأقام دعوة ابن

عفه صاحب الأندلس بأنحائها. وكان عثمان بن أبي العلاء بن عبد الحق من أعياض الملك المريني، أجاز معه البحر إليها أميرا على الغزاة الذين كانوا بمالقة، وقائدا لعصبتهم تحت لوائه، فموه بنصبه للملك بالمغرب. وخاطب قبائل غمارة بذلك، فوقفوا بين الإقدام والإحجام. واتصل ذلك كله بالسلطان، وهو بمعسكره من حصار تلمسان،

فاستشاط لها غضبا وحمى أنفه بعزه. واستنفر الصريخ، فبعث ابنه الأمير أبا سالم لسد تلك الفرجة. وجمع إليه العساكر، وتقدم إليه بإحشاد قبائل الريف، وبلاد تازى، فأغذ السير إليها. وأحاطت عساكره بها، فحاصرها مدة. ثم بيته عثمان بن أبي العلاء، فاختل معسكره وأفرج عنها منهزما، فسخطه السلطان وزوى عنه وجه رضاه. وسار عثمان بن أبي العلاء في نواحي سبتة وبلاد غمارة، وتغلب على تيكيساس، وانتهى إلى قصر ابن عبد الكريم في آخر سنة ست لسنة من استيلائهم على سبتة، مقيما رسم السلطان مناديا بالدعاء لنفسه، فاعتزم السلطان على النهوض إليه عند الفراغ من أمرتلمسان، لما كانت على شفا هلكة ومحاينة انفضاض، لولا عائق الأقدار بمهلكه كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض بني كمي من بني عبد الولد وخروجهم بأرض السوس:

كان هؤلاء الرهط من بني عبد الواد، ثم من بطون بني علي، من شعب أبي القاسم. وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كندوز بن بن كمي. ولما استقل برياسة أولاد علي زيان بن ثابت بن محمد من أولاد طاع الله، نفس عليه كندوز هذا ما أتاه الله من الرياسة، وجاذبه حبلها. واحتقر زيان شأنه، فلم يحفل به. ثم ناشب عليه أخلاط من قومهم، وواضعهم الحرب. وهلك زيان بيد كندوز، وقام بأمر أولاد علي، جابر بن يوسف بن محمد. ثم تناقلت الرياسة فيهم إلى أن عادت في ولد ثابت بن محمد، واستقل بها أبو عزة زكدان بن زيان، ولم تطل أيامه. والتحم بين أولاد كمي وبين أولاد طاع الله، وتناسوا الإحن، وصارت رياسة أولاد طاع الله ليغمراسن بن زيان. واستتبعوا قبائل بني عبد الواد كافة. واعتمل يغمراسن في الثأر بأبيه زيان من قاتله كندوز، فاغتاله ببيته. دعاه لمأدبة جمع لها بني أبيه، حتى إذا اطمأن المجلس تعاوروه بأسيافهم، واحتزوا رأسه. وبعثوا به إلى أمهم، فنصبت عليه القدر ثالث أثافيها تشفيا منه وحفيظة. وطالب يغمراسن بقية بني كندوز، ففروا أمام مطالبته، وأبعدوا المذهب. ولحقوا بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص، فأقاموا بسدته أحوالا. وكانوا يرجعون في رياستهم لعبد الله بن كندوز. ثم تذكروا عهد البداوة وحنوا إلى عشير زناتة، فراجعوا المغرب، ولحقوا ببني مرين أقتالهم. ونزل عبد الله بن كندوز على يعقوب بن عبد

الحق خير نزل، تلقاه من البر والترحيب بما ملأ صدره، وأكد اغتباطه.
وأقطعه بناحية مراكش

الكفاية له ولقومه، وأنزلهم هنالك. وجعل انتجاع إبله وراحلته لحسان بن أبي سعيد الصبيحي وأخيه موسى من ذويهم وحاشيتهم، وألطف منزلة عبد الله، ورفع مكانه بمجلسه، واكتفى به في كثير من أموره. وأوفده على المستنصر صاحب أفريقية سنة خصر وستين، مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدمناه. واستقر بنو كندوز هؤلاء بالغرب الأقصى. واستمرت الأيام على ذلك، وصاروا من جملة قبائل بني مرين وفي عدادهم. وهلك عبد الله بن كندوز وصارت رياستهم لعمر ابنه من بعده.

ولما لفت السلطان يوسف بن يعقوب وجه عزائمه إلى النبي عبد الواد، ونازل تلمسان، وطاول حصارها، واستطال بنو مرين وذووهم على بني عبد الواد، وأحسوا بها، أخذتهم العزة بالإثم، وأدركتهم النغرة، فأجمع بنو كندوز هؤلاء الخلاف والخروج على السلطان. ولحقوا بحاحة سنة ثلاث وسبعماية. واحتفل الأمير بمراكش، يعيش بن يعقوب، لغزوهم سنة أربع وسبعماية، فناجزوه الحرب بتادرت، واستمروا على خلافهما. ثم قاتلهم يعيش وعساكره ثانية بتامطريت سنة أربع، فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قضت جناحهم، وأوهنت بأسهم. وقتل جماعة من بني عبد الواد بأرعارن بامكا وأثخن يعيش بن يعقوب في بلاد السوس، وهدم تارودنت قاعدة أرضها وأم قراها. كان بها عبد الرحمن بن الحسن بن يدر من بقية الأمراء على السوس من قبل بني عبد المؤمن، وقد مرّ ذكرهم. وكانت بينه وبين عرب المعقل من الشبانات وبني حسان منذ انقرضت دولة الموحدين، حروب سجال، هلك في بعضها عمه علي بن يدر سنة ثماني وستين. وصارت أمارته بعد حين إلى عبد الرحمن هذا. ولم يزالوا في حربه إلى أن نملك السوس يعيش بن يعقوب، وهدم تارودانت. ثم راجع عبد الرحمن أمره وبنى بلده تارودانت هذه سنة ست بعدها. وتزعم بنو يدر هؤلاء أنهم مستقرون بذلك القطر من لدن عهد الطوالع من العرب، وأنهم لم يزالوا أمراء بها يعقد لهم ولاية كابر عن كابر. ولقد أدركت بفاس على عهد السلطان أبي عنان وأخيه أبي سالم من بعده شيخا كبيرا من ولد عبد الرحمن هذا، فحدثني بمثل ذلك. وأنهم ولد أبي بكر الصديق. والله أعلم. ولم يزل بنو كندوز مشردين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان، وراجعوا طاعة الملوك من بني مرين من بعده،

وعفوا لهم عما سلف من هذه الجريرة، وأعادوهم إلى مكانهم من الولاية، فأمحضوا النصيحة والمخالصة إلى هذا العهد كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك المشيخة المصامدة بتلبيس أبي الملياني:

قد ذكرنا شأن أبي علي الملياني وأوليته، في أخبار مغراوة الثانية، وما كان من
ثورته بمليانة، وانتزائه عليها. ثم إزعاج العساكر إياه منها، ولحاقه بيعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين، وما أحله من مراتب التكرمة والمبرة. وأقطعه بلد أغمات طعمة، فاستقر بها. وما كان منه في العيث بأشلاء الموحّدين ونبش أجداثهم، وموجدة السلطان والناس عليه لذلك. وأرصد له المصامدة الغوائل لما كان منه في ذلك. ولما هلك يعقوب بن عبد الحق استعمله يوسف بن يعقوب على جباية المصامدة، فلم يضطلع بها. وسعى به مشيختهم عند السلطان أنه احتجن المال لنفسه، وحاسبوه فصدقوا السعاية، فاعتقله السلطان فأقصاه. وهلك سنة ست وثمانين وسبعمائة، واصطنع السلطان أحمد ابن أخيه، واستمعله في كتابته، وأقام على ذلك ببابه وفي جملته. وكان السلطان سخطه على مشيخة المصامدة علي بن محمد كبير هنتاتة، وعبد الكريم بن عيسى كبيركدميوة، وأوعز إلى ابنه علي الأمير بمراكش باعتقالهما فيمن لهما من الولد والحاشية. وأحس بذلك أحمد بن الملياني، فاستعجل الثأر. وكانت العلامة السلطانية على الكتاب في الدولة لم تختص بكاتب واحد، بل كل منهم يضع العلامة بخطه على كتابه إذا أكمله، لما كانوا كلهم ثقة امناء، وكانوا عند السلطان كأسنان المشط، فكتب أحمد بن الملياني إلى ابن السلطان الأمير بمراكش سنة سبع وتسعين وسبعمائة كتابا عن أمر أبيه، يأمره فيه بقتل مشيخة المصامدة، ولا يمهلهم طرفة عين. ووضع عليه العلامة التي تنفذ بها الأوامر، وختم الكتاب، وبعث به مع البريد. ونجا بنفسه إلى البلد الجديد، وعجب الناس من شأنه. ولما وصل الكتاب إلى ابن السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين من المصامدة إلى مصارعهم، وقتل علي بن محمد، وعبد الكريم بن عيشي وولده عيسى، وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز. وطير الأمير وزيره إلى أبيه بالخبر، فقتله لحينه حنقا عليه، وأنفذ البريد باعتقال ابنه. وحرد على ابن الملياني، فافتقد ولحق بتلمسان، ونزل على آل زيان ثم لحق بعدها بالأندلس عند إفراج السلطان عنها في تلك السنة كما ذكرناه، وبها هلك.

واقتصر السلطان من يومئذ في صنع علامته على من يختاره لها من صنائعه ويثق بأمانته. وجعلها لذلك العهد لعبد الله بن أبي مدين خالصته المضطلع بأمور مملكته، فاختصت من بعده لهذا العهد. والله تعالى أعلم.

القسم السابع

المجلد السابع

من تاريخ العلامة ابن خلدون

الخبر عن رياسة اليهود بني رقاصة ومقتلهم

كان السلطان يوسف بن يعقوب في صباه مؤثرا للذاته، مستترا بها عن أبيه يعقوب بن عبد الحق لمكانه من الدين والوقار. وكان يشرب الخمر ويعاقر بها الندمان. وكان خليفة بن رقاصة من اليهود المعاهدين بفاس قهرمانا لداره على عادة الأمراء في مثله من المعاهدين، بكان يزدلف إليه بوجوه الخدم ومذاهبها، فاستعمله هذا الأمير في اعتصارها والقيام على شؤونها، فكانت له بذلك خلوة منه أوجبت له الحظ عنده. حتى إذا هلك يعقوب بن عبد الحق، واستقل ابنه يوسف بأعباء ملكه، واتصلت خلواته في معاقرة الندمان، انفرد ابن رقاصة بخلوته لذلك مع ما كان له من القهرمة، فعظمت رياسته، وعلا كعبه في الدولة. وتلقى الخاصة الأوامر منه، فصارت له الوجاهة بينهم، وعظم قدره بعظم الدولة. أخبرنا شيخنا الابلي أنه كان لخليفة هذا أخ يسمى إبراهيم، وابن غ يسمى خليفة، لقبوه بالصغير لمكانه هو من هذا الاسم. وكان له صهر يعرفون ببني السبتي كبيرهم موسى، وكان رديفه في قهرمته. فلم يفق السلطان من نشوة صباه ملهاه حتى وجدهم على حال استتبعوا فيها العلية من القبيل والوزراء والشرفاء والعلماء،فأهمه ذلك، وترصد بهم. وتفطن لمذهبه فيهم خالصته عبد الله بن أبي مدين، فسعى عنده فيهم. وأوجده السبيل عليهم، فسطا بهم سطوة واحدة. واعتقلوا في شعبان من سنة احدى وسبعماية بمعسكره من حصار تلمسان. وقتل خليفة الكبير وأخوه إبراهيم وموسى بن السبتي وإخوته، بعد أن امتحنوا ومثل بهم، وأتت النكبة على حاشيتهم وذويهم وأقاربهم، فلم يبق منهم باقية. واستبقى منهم خليفة الصغير احتقارا لشأنه، حتى

كان من قتله بعدما نذكر، وعبث بسائرهم، وطهرت الدولة من رجسهم وازيلت عنها معرة رياستهم. والأمور بيد الله سبحانه.

الخبر عن مهلك السلطان أبي يعقوب:

كان في جملة السلطان وحاشيته مولى من العبدي الخصيان من موالي ابن المليانى يسمى سعادة، صار إلى السلطان من لدن استعماله إياه بمراكش، وكان على ثبج من الجهل والغباوة. وكان السلطان يخلط الخصيان بأهله، ويكشف لهم الحجاب عن ذوات محارمه، ولما كانت واقعة العز مولاه، واتهم بمداخلة بعض الحرم، وقتل بالظنة، واستراب السلطان بكثير من حاشيته الملابسين لداره، اعتقل جملة من الخصيان، كان فيهم عنبر الكبير عريفهم. وحجب سائرهم، فارتاعوا لذلك وسولت لهذه الخصي الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان، فعمد إليه وهو ببعض الحجر من قصره واذنه فأذن له، فألفاه مستلقياً على فراشه مختضبا بالحناء، فوثب عليه فطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هاربا. وانطلق الأولياء في أثره، فأدرك من العشي بناحية تاسالة، فتقبّضعليه وسيق إلى القصر، فقتله العبيد والحاشية. وصابر السلطان مثبته إلى آخر النهار، ثم قضى رحمه الله يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست، وقبل هنالك. ثم نقل بعد ما سكنت الهيعة إلى مقبرتهم بشالة، فدفن بها مع سلفه. والبقاء لله وحده.

الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت، واستلحامه المرشحين وما تخلل ذلك من الأحداث:

كان الأمير أبو عامر ابن السلطان أبي يعقوب وولي عهده، لما هلك طريداً ببلاد

بني سعيد من غمارة والريف، سنة ثمان وتسعين وسبعمائة كما ذكرناه، خلف ولديه عامرا وسليمان في كفالة السلطان جدهما، فكان لهما بعينه حلاوة وفي قلبه لوطة، لمكان حبه لأبيهما واغترابه عنه، فحدب عليهما وأنزلهما من نفسه بمكان. وكان الأمير أبو ثابت عامر منهما، صقر قومه، إقداما وشجاعة وجرأة وكانت له في بني ورتاجن خؤولة. فلحين مهلك السلطان عرضوا له ودعوه للبيعة، فبايعوه. وحصر لها الأمير أبو يحيى بن

يعقوب عم أبيه، عثر بمجمعهم اتفاقا، وحملوه على الطاعة. وكان أقرب للأمر منه لو حضره رجال،

فأعطى القياد في المساعدة، وطوى على النث. وبادر الحاشية والوزراء بالبلد الجديد عند مهلك السلطان، فبايعوا ابنه الأمير أبا سالم. وكان أمر بني مرين أن يفترق وكلمتهم أن تفسد، فبعث الأمير أبو ثابت لحينه إلى تلمسان للأمير أبي زيان وأبي حمّو ابني عثمان بن يغمراسن. وعقد لهما حلفا على الإفراج عنهما على أن يمداه بالالة، ويرفعا له كسر البيت إن كان غير ما أمل، وحضر للعقد أبو حمّو فأحكمه، ومال أكثر بني مرين وأهل الحل والعقد إلى الأمير أبي ثابت. وتفرد ببيعة أبي سالم البطانة والوزراء والحاشية والأجناد ومن إليهم، وكان مسكنه بالبلد الجديد، وأشاروا عليه بالمناجزة، فخرج وقد عبأ كتائبه، فوقف وبهت وخام عن اللقاء. ووعدهم الإقدام بالغداة، وكر راجعا إلى قصره. فيئسوا منه، وتسللوا لواذا إلى الأمير أبي ثابت، وهو بمرقب من الجبل يطل عليهم، حتى إذا انحجز أبو سالم بالبلد انحاش إليه الجملة دفعة واحدة. فلما استوفت العساكر والقبائل لديه، زحف إلى البلد الجديد مثوى السلطان وسياج قصوره ومختط عزمه، وانتهى إلى ساحتها معتماً. وخرج إليه الوزير يحلف بن عمران الفودودي، فأرجل عن فرسه بأمر أبي يحيى، وقتل بين يديه قعصا بالرماح. وكان قريب عم رر بالوزارة، استوزره السلطان قبل مهلكه في شعبان من سنة ست.

وفر أبو سالم إلى جهة المغرب، وصحبه من عشيره من أولاد رحو بن عبد الله بن

عبد الحق العباسي، وعيسى وعلي ابنا رخو وابن أخيهم جمال الدين بن موسى. وأتبعهم الأمير أبو ثابت شرذمة من عسكره أدركوهم بندرومة، فتقبضوا عليهم ونفذوا أمر السلطان بفتل أبي سالم وجمال الدين، واستبقى الاخرين. وأمر بإحراق باب البلد ليفتحها العسكر، فأطل عليه قهرمان دارهم عبد الله بن أبي مدين الكاتب، وأخبره بفرار أبي سالم، وباتفاق الناس على طاعته. ورغب إليه في المسالمة ليلتهم، حتى يفجر الصباح خشية على دارهم من معرة العساكر وهجومها ففعل. وأمره الأمير أبو يحيى باعتقال أبي الحجاج بن أشقيلولة، فاعتقله لقديم من العداوة كانت بينهما، ثم أمر بقتله وإنفاذ رأسه ففتل. وأمر السلطان ليلتئذ بإضرام النيران، حتى إذا أضاء الظلام بات راكبا. ودخل الفصرلصبحه، فوارى جسد

السلطان بعد أن صلى عليه. وغص بمكان الأمير أبي بحبى لما تعدد فيه الترشيح، وفاوض في شأنه كبير القرابة يومئذ عبد الحق بن عثمان أبن الأمير أبي معرف محمد بن عبد الحق، ومن حضره من الوزراء: مثل إبراهيم بن

عبد الجليل الونكاسي وإبراهيم بن عيسى اليرنياني وغيرهما من الخاصة، فأشاروا بقتله. ونميت عنه كلمات في معنى التربص بالسلطان ودولته، وابتغاء العصابة لأمره.

وركب الأمير أبو يحيى إلى القصر ثالث البيعة، فأخذ السلطان بيده، ودخل معه

إلى الحرم لعزائهن عن أخيه السلطان. ثم خرج على الخاصة. وتخلف عنه السلطان، وقد دس إلى عبد الحق بن عثمان أن يتقبض عليه ففعل. ثم برز السلطان إليهم وهو موثق، فأمر بالإجهاز عليه، ولم يمهله، وألحق به يومئذ وزيره عيسى بن موسى الفودودي. وفشا الخبر بمهلك هؤلاء الرهط، فرغب منه القرابة، ففر يعيش بن يعقوب أخو السلطان وابنه عثمان المعروف بأمه قضيب، ومسعود بن أبي مالك والعباس بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق. ولحقوا جميعا بعثمان بن أبي العلاء بمكانه من غمارة. وخلا الجو من المرشحين، واستبد السلطان بملك قومه، وأمن غوائل المنازعين.

ولما تم له الأمر واستوسق الملك، وفى لبني عثمان بن يغمراسن بالإفراج عنهم،

ونزل لهم عن جميع البلاد التي صارت إلى طاعته من بلاد المغرب الأوسط من أعمالهم وأعمال بني توجين ومغراوة. ودعاه إلى بدار المغرب، ما كان من اختلال عثمان بن أبي العلاء بن عبد الله بن عبد الحق بسبتة، ودعائه لنفسه بين يدي مهلك السلطان، وخروجه إلى بلاد غمارة، واستيلائه على قصر كتامة. واعتزم على الرحلة إلى المغرب، وفوض الأمر في الرحلة بأهل المدينة الجديدة للوزير إبراهيم بن عبد الجليل، لما كانت حنيئذ عامرة بالساكن، مستبحرة في الاعتمار، ممتلئة من الخزائن والآلة، فأحسن السياسة في أمرهم، وضرب لهم الآجال والمواعد أن استوفوا بالرحلة. وتركوها قواء، خربها بنو عثمان بن يغمراسن عند رحلة بني مرين إلى المغرب، وتحينوا لذلك فترات الفتن، وطمسوا معالمها طمسا ونسفوها نسفا. وقدم السلطان بين يديه من القرابة، الحسن بن عامر بن عبد الله أتعجوب في العساكر والجنود، وعقد له على حرب ابن أبي العلاء. وتلوم بالبلد الجديد لموافاة المسالح التي كانت بثغور الشرق، لما نزل عنها جميعاً

لبني عثمان بن يغمراسن. وارتحل غرة ذي القعدة، ودخل فاس فاتح سنة سبع وسبعماية. والله أعلم.

الخبر عن انتزاء يوسف بن أبي عياد بمراكش وتغلب السلطان عليه:

لما فصل السلطان أبو ثابت من معسكرهم بتلمسان إلى الغرب، قدم بين يديه من قرابته الحسن بن عامر بن عبد الله أتعجوب ابن السلطان أبي يوسف في العساكر والجنود، وعقد له على حرب عثمان بن أبي العلاء كما ذكرنا. وعقد له على بلاد مراكش ونواحيها لابن عمه الآخر يوسف بن محمد بن أبي عياد بن الحق، وعهد له بالنظر في أحوالها، فسار إليها واحتل بها. ثم حدثته نفسه بالانتزاء، فقتل الوالي بمراكش، واستركب واستلحق، واتخذ الالة، وجاهر بالخلعان. وتقبض على والي البلد، فقتله بالسوط في جمادى سنة سبع وسبعماية، ودعا لنفسه، واتصل الخبر بالسلطان لأول قدومه، فسرح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود الجشمي، ويعقوب بن أصناك، في خمسة آلاف من عساكر، ودفعهم إلى حربه، وخرج في أطرهم بكتائبه. وبرز يوسف بن أبي عياد، وأجاز وادي أم ربيع، فانهزم أمام الوزير وعساكره، وأتبعه الوزير، ففر إلى أغمات. ثم فر إلى جبال هسكورة، ولحق به موسى بن أبي سعيد الصبيحي من أغمات، تدلى من سورها، ودخل الوزير يوسف في مراكش. ثم خرج في أثره ولحقه، فكانت بينهما جولة، وقتل منهم خلقا، ولحق بهسكورة. ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع، وأمر بقتل أوربة، المداخلين كانوا له في انتزائه فاستلحموا. ولما لحق يوسف بن أبي عباد بجبال هسكورة، نزل على مخلوف بن عبو، وتذمم بجواره، فلم يجره على السلطان. وتقبض عليه، واقتاده إلى مراكش مع ثمانية من أصحابه تولوا كبر ذلك الأمر، فقتلوا في مصرع واحد، بعد أن مثل بهم بالسياط. وبعث رأس يوسف إلى فاس، فنصب بسورها وأثخن بالقتل فيمن سواهم ممن داخله في الانتزاء، فاستحم منهم أمما بمراكش وأغمات. وسخط خلال ذلك وزيره إبراهيم بن عبد الجليل، فاعتقله واعتقل عشرة من بني دولين من بني ونكاسن، وقتل الحسن بن دولين منهم، ثم عفا عنهم. وخرج منتصف شعبان إلى منازلة السكسيوي وتدويخ جهات مراكش، فتلقاه السكسيوي بطاعته المعروفة، وأسنى الهدية، فتقبل طاعته وخدمته. ثم سرح قائدة يعقوب بن أصناك في اتباع زكنة حتى توغل في بلاد السوس، ففروا أمامه إلى الرمال. وانقطع

أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان. وانكفأ السلطان بعساكره إلى مراكش، فاحتل بها غرة رمضان. ثم قفل إلى فاس بعد أن قتل جماعة من شيوخ بني

دورا. وجعل طريقه على بلاد صنهاجة. وسار في بلاد تامسنا، وتلفاه عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم، فاستصحبهم إلى أنفى، وتقبض على ستين من أشياخهم، فاستحلم منهم عشرين ممن نمي عنهم إفساد السابلة. ودخل رباط الفتح اخريات رمضان، فقتل هنالك من الأعراب أمة ممن يؤثر عنه الحرابة. ثم ارتحل منتصف شوال لغزو رياح أهل أزغار والهبط. وأثار منهم بالإحن القديمة، فأثخن فيهم بالقتل والسبي. وقفل إلى فاس، فاحتل بها منتصف ذي القعدة. وجاءه الخبر بهزيمة عبد الحق بن عثمان، واستلحام الروم من عسكره، ومهلك عبد الواحد الفودودي من رجالات دولته. وإن عثمان بن أبي العلاء قد استفحل أمره بجات غمارة، فأجمع لغزوه. والله أعلم.

الخبر عن غزاة السلطان لمدافعة عثمان بن أبي العلاء ببلاد الهبط ومهلكه طنجة من بعد ظهوره:

لما ملك الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر بسبتة سنة خمس وسبعماية، وأقام بها الدعوة لابن عمه المخلوع محمد بن محمد الفقيه بن حمد بن مح!حد الشيخ بن يوسف بن نصر كما ذكرناه، وأجاز معه رئيس الغزاة المجاهدين بمحل أمارته من مالقة عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق من أعياص هذا البيت، كان مرشحا للملك فيهم. واستقدمه معه ليفرق به الكلمة في المغرب، ويشغل بفتنة الدولة مدافعة عن سبتة، لما كانوا أهاجوا السلطان وقومه بأخذها. واستنام ملكها، وطمع عثمان في ملك المغرب بإمدادهم ومظاهرتهم. وسولت له نفسه ذلك، فخرج من سبتة، وولى على جيش الغزاة بعده عمر ابن عمه رحو بن عبد الله. ونجم هو ببلاد غمارة، فدعا لنفسه، وأجابته القبائل منهم. واحتل بحصن علودان من أمنع معاقلهم، وبايعوه على الموت. ثم نهض إلى أصيلا والعرائش، فغلب عليها. واتصل ذلك كله بالسلطان الهالك أبي يعقوب، فلم يحركه استهانة بأمرهم. وبعث ابنه أبا سالم بالعساكر، فنازل سبتة أياما، ثم أقلع عنها. وبعث بعده أخاه يعيش بن يعقوب، وأنزله طنجة، وجهز معه الكتائب، وجعلها ثغرا. وزحف إليه عثمان بن أبي العلاء، فتأخر عن طنجة

إلى القصر. ثم أتبعه فخرج أهل القصر فرسانا ورجالا ورماة مع يعيش، فوصلوا

إلى وادي ورا، ثم انهزموا إلى البلد. ومات عمر بن ياسين، ونازل عثمان عليهم القصر يوماً، ثم دخله من غده. ثم كان مهلك السلطان، ومفر يعيش بن يعقوب خيفة من أبي ثابت، فلحق بعثمان بن أبي العلاء. واستقام أمره بتلك الجهات برهة. وكان السلطان أبو ثابت، لما احتل بالمغرب شغله ما كان من انتزاء يوسف بن محمد بن أبي عياد بمراكش كما قدمناه، فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء مكان عمه يعيش بن يعقوب لعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من رجال بيته، فزحف إليه. ونهض عثمان إلى لقائه منتصف ذي الحجة سنة سبع، فهزمه واستلحم من كان معه من جند الروم. وهلك في تلك الواقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات السلطان المرشحين ردفاء الوزارة. وصار عثمان إلى قصر كتامة، فنازله واستولى على جهاته. وعلى تفيئة ذلك كان رجوع السلطان من غزاة مراكش. وقد حسم الداء ومحا أثر النفاق، فاعتزم على الحركة إلى بلاد غمارة ليمحو منها دعوة ابن أبي العلاء التي كانت تلج عليه ممالكه بالمغرب، ويرده على عقبه، ويستخلص سبتة من يد ابن الأحمر، لما صارت ركابا لمن يروم الانتزاء والخروج من القرابة والأعياعر، المستنفرين وراء البحر غزاة في سبيل الله، فنهض من فاس منتصف ذي الحجة من سنة سبع. ولما انتهى إلى قصر كتامة تلوم بها ثلاثاً حتى توافت عساكره وحشوده، وكمل اعتراضها. وفر عثمان بن أبي العلاء أمامه. وارتحل السلطان في اتباعه، فنازل حصن علودان واقتحمها عنوة. واستلحم بها زهاء أربعماية. ثم نازل بلد الدمنة، فاقتحمها وأثخن فيها قتلا وسبيأ، لتمسكها بطاعة ابن أبي العلاء، ومظاهرتها له على كبس القصر واستاحته. ثم ارتحل إلى طنجة، واحتل بها غرة سنة ثمان. وانحجز ابن أبي العلاء بسبتة مع أوليائه. وسرح السلطان عساكره، فتقرت نواحي سبتة بالاكتساح والغارة. وأمر باختطاط بلد تيطاوين لنزول عساكره، والأخذ بمخنق سبتة. وأوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبي الصبر إليهم في شأن النزول له عن البلد. وفي خلال ذلك اعتل السلطان بمرض، وقضى لأيام قلائل في ثامن صفر من سنته، ودفن بظاهر طنجة. ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة فووري هنالك. رحمة الله عليه وعليهم.

الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع، وما كان فيها من الأحداث:

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالأمر عمه علي ابن السلطان أبي يعقوب

المعروف بأمه رزيكة، وخلص الملأ من بني مرين أهل الحل والحقد إلى أخيه أبي الربيع، فبايعوه. وتقبض على عمه علي بن زريكة المستام للأمر، فاعتقله بطنجة إلى أن هلك سنة عشر لجمادى. وبث العطاء في الناس، وأجزل الصلات، وارتحل نحو فاس. واتبعه عثمان بن أبي العلاء في جيش كثيف، وبيته وقد نذر به العسكر، فأيقظوا ليلهم ووافاهم على الظهر بساحة علودان، فناجزهم الحرب. وكانت الدائرة على عثمان وقومه. وتقبض على ولده وكثير من عسكره. وأثخن أولياء السلطان فيهم بالقتل والسبي، وكان الظهور الذي لا كفاء له. ووصل أبو يحيي بن أبي الصبر إلى الأندلس، وقد أحكم عقدة الصلح. وقد كان ابن الأحمر جاء للقاء السلطان أبي ثابت، ووصل إلى الجزيرة الخضراء، فأدركه خبر مهلكه، فتوقف عن الجواز. وأجاز ابن أبي الصبر بإحكام المؤاخاة. واجتاز عثمان بن أبي العلاء إلى العدوة فيمن معه من القرابة، فلحق بغرناطة. وأغذ السلطان السير إلى حضرته، فدخل فاس آخر ربيع من سنة ثمان. واستقامت الأمور وتمهد الملك، وعقد السلم مع صاحب تلمسان موسى بن عثمان بن يغمراسن، فأقام وادعا بحضرته. وكانت أيامه خير أيام هدنة وسكونة وترفا لأهل الدولة. وفي أيامه تغالى الناس في أثمان العقار، فبلغت قيمتها فوق المعتاد، حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين. وتنافس الناس في البناء، فعالوا الصروح، واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام وزخرفوها بالزليج والنقوش. وتناغوا في لبس الحرير، وركوب الفاره، وأكل الطيب، واقتناء الحلى من الذهب والفضة. واستبحر العمران، وظهرت الزينة والترف، والسلطان وادع بداره متمل أريكته، إلى أن هلك كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل عبد الله بن أبي مدين:

كان أبو شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان من قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير، وكان منتحلا للدين مشتهرا به. ولما أجلب بنو مرين على المغرب وجالوا في بسائطه، وتغلبوا على ضواحيه، صحب البر منهم والفاجر من أهله. وكان بنو عبد الحق قد تخيروا شعيبا هذا فيمن

تخيروه للصحابة من أهل الدين، فكان إمام صلاتهم. وكان يعقوب بن عبد الحق أشدهم صحابة له، وأوفاهم بها ذماما، فاتصل به حبله، واستمرت

صحابته، وعظم في الدولة قدره. وانبسط بين الناس جاه ولده وأقاربه وحاشيته. وربى بنو شعيب هذا: عبد الله ومحمد المعروف بالحاج، وأبو القاسم من بعدهم من إخوتهم، بقصر كتامة في جو ذلك الجاه. وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق، فاستخلصهم يوسف بن يعقوب لخدمته، واستعملهم على مختصاته. ثم ترقى بهم في رتب خدمته وأخصائه درجة بعد أخرى، إلى أن هلك أبوهم مدين شعيب سنة سبع وتسعين وسبعمائة. وكان المقدم منهم عند السلطان عبد الله، فأوفى به على ثنيات العز والوزارة والخلة والولاية. وتقدم بحظوته في مجلسه كل حظوة، واختصه بوضع علامته على الرسائل والأوامر الصادرة عنه. وجعل إليه حسبان الخراج والضرب على أيدي العمال، وتقييد الأوامر بالبسط والقبض. واستخلصه لمناجاة الخلوات، والإفضاء بذات الصدر، فوقف ببابه الأشراف من الخاصة والقبيل والقرابة والولد، وتوددوا وخطبوا نائله. وكان عبد الله استعمل مع ذلك أخاه محمدا على جباية المصامدة بمراكش، وهنأ أبا القاسم الدعة بفاس، فأقام بها متمليا راحته عريضا جاهه، طاعماً كاسيا، تتسرب إليه أموال العمال في سبيل الإتحاف، وتقف ببابه صدور الركائب، إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب يوسف. ويقال إن له خائنة في دمه مع سعاية المليانى. ولما ولي السلطان أبو ثابت ضاعف رتبته وشفع لديه خطته، ورفع على الأقدار قدره. ثم ولي من بعده أخوه أبو الربيع، فتقبل فيه مذهب سلفه. وكان بنو رقاصة اليهود حين نكبوا، باشر نكبتهم لمكانه من إصدار الأوامر. ويزعمون أن له فيهم سعاية. وكان خليفة الأصغر منهم قد استبقي كما ذكرناه، فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة بداره في بعض المهن، ولابس الخدم حتى اتصل بمباشرة السلطان، فجعل غايته السعاية بعبد الله بن أبي مدين. وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع أنه لا يؤمن بوائقه مع حزم ذويه، وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس، فدس إلى السلطان أن عبد الله بن أبي مدين يعرض باتهام السلطان في ابنته، وأن صدره وغر بذلك، وأنه متعرض بالدولة. وكان يخشى الغائلة لما كان عليه من مداخلة القبيل، ولما كان داعية من دعاة آل يعقوب، فتعجل السلطان دفع غائلته، واستدعاه صبيحة زفاف ابنته، زعموا على زوجها، فاستحثه قائد

الروم من داره بفاس. ونذر بالشر، فلم يغنه النذر. ومرّ في طريقه إلى دار السلطان بمقبرة أبي يحيى بن العربي، فطعنه القائد هنالك من ورائه طعنة أكبه على ذقنه. واحتز رأسه، فألقاه بين

أيدي السلطان. ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن، فوجده بين يديه، فذهبت نفسه عليه على مكانه من الدولة حسرة وأسفا، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي، فوقفه على براءة كان ابن أبي مدين بعثها معه إلى السلطان بالتنصل والحلف، فتيقظ وعلم مكر اليهودي به، فندم وفتك لحيف بخليفة بن رقاصة وذويه من اليهود المتصدين للخدمة وسطا بهم سطوة الهلكة، فأصبحوا مثلا للآخرين. والله أعلم.

الخبر عن ثورة أهل سبتة بالأندلسيين ومراجعتهم طاعة السلطان:

لما قفل السلطان أبو الربيع من غزاة سبتة، بعد أن شرد عثمان بن أبي العلاء وأحجزه بسبتة، وأجاز منها إلى العدوة، ومن كان معه من القرابة كما قلناه، بلغه الخبر بضجر أهل سبتة، ومرض قلوبهم من ولاية الأندلسيين عليهم، وسوء ملكتهم. ودس إليه بعض أشياعه بالبلد بمثل ذلك، فأغزى صنيعته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخا وزيره في عساكر ضخمة من بني مرين، وسائر الطبقات من الجند. وأوعز إليه بالتقدم إلى سبتة ومنازلتها، فأغذ إليها السير ونزل بساحتها ولما أحس به أهل البلد بهشت رجالاتهم، وتنادوا بشعارهم، وثاروا على من كان منهم من قواد ابن الأحمر وعماله، وأخرجوا منها حاميته وجنوده. واقتحمها العساكر. واحتل تاشفين بن يعقوب بقصبتها عاشر صفر من سنة تسع. وطير الفوائق بالخبر إلى السلطان، فعم السرور وعظم شأن الفتح. وتقبض على قائد القصبة أبي زكريا يحيى بن مليلة، وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة، وعلى قائد الحروب بها من الأعياص عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق. كان صاحب الأندلس عقد له مكان ابن عمه عثمان بن أبي العلاء، عند إجازته البحر إلى الجهاد كما ذكرنا. وكتب إلى السلطان بالفتح، وأوفد عليه الملأ من مشيخة سبتة وأهل الشورى. وبلغ الخبر إلى ابن الأحمر، فارتاع لذلك وخشي عادية السلطان وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة. وكان الطاغية في تلك الأيام نازل الجزيرة الخضراء، وأقلع عنها على الصلح، بعد أن أذاقها من الحصار شدة، وبعد أن نازل جبل الفتح، فتغلب عليه وملكه. وانهزم زعيم من زعمائه يعرف بالفنش، هزمه أبو يحيى بن عبد الله بن أبي العلاء صاحب الجند

بمالقة، لقيه يجوس خلال البلاد بعد تملك الجبل، فهزم النصارى وقتلوا أبرح قتل. وأهم المسلمين شأن الجبل، فبادر السلطان أبو الجيوش

بإنفاذ رسله راغبين في السلم خاطبين للولاية. وتبرع بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونها ترغيبا للسلطان في الجهاد، فتقبل منه السلطان، وعقد له الصلح على ما رغب. وأصهر إليه في اخته، فأنكحه إياها. وبعث بالمدد للجهاد أموالا وخيولاً، وجنائب، مع عثمان بن عيسى اليرنياني. واتصلت بينهما المهادنة والولاية، إلى مهلك السلطان. والبقاء لله وحده.

الخبر عن بيعة عبد الحق بن عثمان، بممالأة الوزير والمشيخة، وظهور السلطان عليهم، ثم مهلكه بعد ذلك:

كانت رسل ابن الأحمر خلال هذه المهادنة والمكاتبات تختلف إلى باب السلطان، ووصل منهم في بعض أحيانها خلف من مترفيهم، فجاهر بالكبائر، فكشف صفحة وجهه في معاقرة الخمر والإدمان عليه، وكان السلطان منذ شهر جمادى الأول سنة تسع قد عزل القاضي بفاس أبا غالب المغيلي، وعهد بأحكام القضاء لشيخ الفتيا المذكور بها أبي الحسن الملقب بالصغير. وكان على ثبج من تغيير المنكرات والتع!ف فيها. حتى لقد كان مطاوعا في ذلك وسواس النسك الأعجمي، متجاوزا بها الحدود المتعارفة من أهل الشريعة في سائر الأمصار. وأحضر عنده ذات يوم هذا الرسول ثملا، وحضر العدول فاستروحوه، ثم أمضى حكم الله فيه، وأقام عليه الحدود. وأضرمته هذه الموجدة، فاضطرم غيظا. وتعرض للوزير رحو بن يعقوب الوطاسي منصرفه من دار السلطان في موكبه، وكشف عن ظهره يريه أثر السياط، وينعي عليهم سوء هذا المرتكب مع الرسل، فتبرم لذلك الوزير وأدركته حفيظة وسرح وزعته وحشمه في إحضار القاضي على أسو! الحالات من التنكيل والتل لذقنه، فمضوا لذلك الوجه. واعتصم القاضي بالمسجد الجامع، ونادى المسلمين، فثارت العامة بهم، ومرج أمر الناس. واتصل الخبر بالسلطان، فتلافاه بالبعث في أولئك النفر من وزعة الوزير، وضرب أعناقهم، وجعلهم عظة لمن وراءهم فأسرها الوزير في نفسه، وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد شيخ بني مرين، والمسلم له في شوراهم، وقائد الروم غنصالة المنفرد برياسة العسكر وشوكته، وكان لهم بالوزير اختصاص آثروه له على سلطانه، فدعاهم إلى بيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد

الأعياص، وخلع طاعة السلطان، فأجابوه وبايعوا له، وتم أمرهم نجيا. ثم خرجوا عاشر جمادى من سنة عشر إلى ظاهر البلد الجديد بمكان الرمكة، وجاهروا بالخلعان، وأقاموا الآلة، وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملأ. ومحس!كروا بالعدوة القصوى من سبو تخم بلاد عسكر، وإزاء نبدورة من معاقل الحسن بن علي زعيم تلك الثورة. ثم ارتحلوا من الغد إلى تازى، وخرج السلطان في طلبهم، فعسكر بسبو، وتلوم لاعتراض العساكر، وإزاحة العلل واحتل القوم برباط تازى، وأوفدوا على موسى بن عثمان بن يغمراسن سلطان بني عبد الواد يدعونه إلى المظاهرة، واتصال اليد، والمدد بالعساكر والأموال جنوحا إلى التي هي آثر لديه من تفريق كلمة عدوه، فتثاقل عن ذلك لمكان السلم الذي عقد له السلطان أول الدولة، وليستبين سبيل القوم. وقدم السلطان بين يديه يوسف بن عيسى الجشمي، وعمر بن موسى الفودودي في جموع كثيفة من بني مرين. وسار في ساقتهم، فانكشف القوم عن تازى ولحقوا بتلمسان صريخا. وحمد السلطان مغبة نظره في التثاقل عن نصرهم، ووجد بها الحجة عليهم، إذ غاية مظاهراته إياهم أن يملكهم تازى، وقد انكشفوا عنها فيئسوا من صريخه. وأجاز عبد الحق بن عثمان ورحو بن يعقوب إلى الأندلس، فأقام رخو بها إلى أن قتله أولاد ابن أبي العلاء، ورجع الحسن بن علي إلى مكانه من قبيله، ومحله من مجلس السلطان، بعد أن اقتضى عهده بالأمان على ذلك. ولما احتل الحسن بتازى حسم الداء، ومحاة أثر الشقاق، وأثخن في حاشية الخوارج وذويهم بالقتل والسبي. ثم اعتل أثناء ذلك، وهلك لليال من اعتلاله سلخ جمادى الاخرة من سنة عشر، ووري بصحن الجامع الأعظم من تازى. وبويع السلطان أبوسعيد، على ما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد، وما كان فيها من الأحداث:

لما هلك السلطان أبو الربيع بتازى، تطاول للأمر عفه عثمان ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمه قضيب واستلم المنصب وأسدى في ذلك وألحم. وحضر الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدوء من الليل، فاستشاروا بشيخ القرابة يومئذ، وكبير الأعياص المرشحين، العالي القعد

عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. ودست اخته عريبة إليهم بالوعد، وسربت إليهم الأموال. وجاءهم عثمان ابن السلطان أبي يعقوب مستاماً، فزجروه

واستدعوا السلطان، يا سعيد، فحضر وبايعوه ليلتئذ وأنفذ كتبه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة. وسرح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن إلى فاس، فدخلها غرة رجب من سنة عشر. ودخل القصر واطلع على أمواله وذخيرته. وفي غد ليلته أخذت البيعة العامة للسلطان بظاهر تازى، على بني مرين وسائر زناتة والقبائل والعرب، والعساكر والحاشية والموالي والصنائع، والعلماء والصلحاء، ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء، فقام بالأمر واستوسق له الملك. وفرق الاعطيات وأسنى الجوائز وتفقد الدواوين ورفع الظلامات، وحط المغارم والمكوس. وسرح أهل السجون، ورفع عن أهل فاس وظيفة الرباع. وارتحل لعشرين من شهر رجب إلى حضرته، فاحتل بفاس. وقدم عليه وفود التهنئة من جميع بلاد المغرب ثم خرج لذي القعدة بعدها إلى رباط الفتح لتفقد الأحوال، والنظر في أحوال الرعايا والتهمم بالجهاد، وإنشاء الأساطيل للغزو في سبيل الله. ولما قضى منسك الأضحى بعده، رجع إلى حضرته بفاس. ثم عقد سنة إحدى عشرة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس: الجزيرة ووندة وما إليهما من الحصون. ثم نهض سنة ثلاث عشرة إلى مراكش لما كان بها من اختلال الأحوال، وخروج عدي بن هنو الهسكوري ونقضه للطاعة، فنزل به وحاصره مدة، واقتحم حصنه عنوة عليه، وحمله مقيداً إلى دار ملكه، فأودعه الطبق. ثم رجع إلى غزو تلمسان. والله أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي سعيد إلى تلمسان، أولي حركاته إليها:

لما خرج عبد الحق بن عثمان على السلطان أبي الربيع، وتغلب على تازى بمظاهرة الحسن بن علي بن أبي الطلاق كبير بني عسكر، واختلفت رسلهم إلى أبي حمّو موسى بن عثمان سلطان بني عبد الواد، أسف ذلك بني مرين، وحرك مزاجهم ولما لحق الخارجون على الدولة بالسلطان أبي حمو، وأقبل عليهم، أضرم ذلك حقد بني مرين. وولي السلطان أبو سعيد الأمر، وفي أنفسهم من بني عبد الواد غصة. فلما استوسق أمر السلطان، ودوخ الجهات المراكشية، وعقد على البلاد الأندلسية وفرغ من شأن المغرب، اعتزم على غزو تلمسان، فنهض إليها سنة أربع عشرة. ولما انتهى

إلى وادي ملوية قدم ابنيه أبا الحسن وأبا علي في عسكرين عظيمين في الجناحين، وسار في

ساقتهما، ودخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية، فاكتسح نواحيها، واصطلم نعمها. ونازل وجدة، فقاتلها قتالا شديدا وامتنعت عليه. ثم نهض إلى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها. وانحجز موسى بن عثمان من وراء أسوارها، وغلب على معاقلها ورعاياها، وسائر ضواحيها، فحطمها حطماً ونسف جهاتها نسفا. ودوخ جبال بني يزناسن، وفتح معاقلها، وأثخن فيها، وانتهى إلى وجدة. وكان معه في عسكره أخوه يعيش بن يعقوب، وقد أدركته بعض الاسترابة بأمره، ففر إلى تلمسان، ونزل على أبي حمّو ورجع السلطان على تعبيته إلى تازى، فأقام بها. وبعث ولده الأمير أبا علي إلى فاس، فكان من خروجه على أبيه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي وما كان بينه وبين أبيه من الواقعات:

كان للسلطان أبي سعيد اثنان من الولد: أكبرهما لأمته الحبشية، وهو علي، والآخر لمملوكه من سبي النصرانية، وهو عمر. وكان هذا الأصغر آثرهما لديه، وأعلقهما بقلبه منذ نشأ. فكان عليه حدبا، وبه مشغوفا. ولما استولى السلطان على ملك المغرب، رشحه لولاية عهده، وهو شاب لم يطر شاربه. ووضعوا له ألقاب الأمارة، وصير معه الجلساء والخاصة والكتاب، وأمره باتخاذ العلامة في كتبه. وعقد على وزارته لإبراهيم بن عيسى اليرنياني من صنائع دولتهم، وكبار المرشحين بها. ولما رأى أخوه الأكبر أبو الحسن صاغية أبيهما إليه، وكان شديد البرور لوالديه، انحاش إليه وصار في جملته، وخلط نفسه بحاشيته طاعة لأبيه. واستمرت حال الأمير أبي علي على هذا وخاطبه الملوك من النواحي، وخاطبهم، وهادوه، وعقد الرايات، وأثبت في الديوان، ومحا وزاد في العطاء ونقص، وكاد أن يستبد. ولما قفل السلطان أبو سعيد من غزاته إلى تلمسان سنة أربع عشرة أقام بتازى، وبعث ولديه إلى فاس، فلما استقر الأمير أبو علي بفاس حدثته نفسه بالاستبداد على أبيه وخلعه، وراوضه المداخلون له في المكر بالسلطان حتى يقبض عليه فأبى، وركب الخلاف، وجاهر بالخلعان. ودعا لنفسه، فأطاعه الناس لما كان السلطان جعل إليه من أمرهم. وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو السلطان، فبرز من تازى بعسكره يقدم رجلا ويؤخر أخرى.

ثم بدا للأمير أبي علي في شأن وزيره، وحدثته نفسه بالقبض عليه استرابة به، لما

كان بلغه من المكاتبة بينه وبين السلطان، فبعث لذلك عمر بن يخلف الفودودي. وتفطن الوزير لما جاء به من المكر، فتقبّضعليه ونزع إلى السلطان أبي سعيد، فتقبله ورضي عنه، وارتحل إلى لقاء ابنه. ولما تراءى الجمعان بالقرمدة ما بين فاس وتازى، اختل مصاف السلطان، وانهزم عسكره. وأفلت بعد أن أصابته جراحة في يده وهن لها، ولحق بنازى فليلا جريحا. ولحق ابنه الأمير أبو الحسن نازعا إليه من جملة أخيه أبي علي بعد المحنة وفاء بحق أبيه، فاستبشر السلطان بالظهور والفتح وحميد المغبة. وأناخ الأمير أبو علي بعساكره على تازى، وسعى الخواص بين السلطان وبينه في الصلح، على أن يخرج له السلطان عن الأمر، ويقتصر على تازى وجهاتها، فتم ذلك بينهما وانعقد. وشهد الملأ من مشيخة العرب وزناتة وأهل الأمصار، فاستحكم عمده وانكفأ الأمير أبو علي إلى حضرة فاس مملكا. وتوافت إليه بيعة الأمصار بالمغرب ووفودهم، واستوسق أمره.

ثم اعتل إثر ذلك، واشتد وجعه، وصار إلى حال الموت، وخشي الناس على أنفسهم تلاشي الأمر بمهلكه، فتسايلوا إلى السلطان بتازى. ثم نزع عن الأمير أبي علي وزيره أبو بكر بن النوان، وكاتبه منديل بن محمد الكناني، وسائر خواصه، فلحقوا بالسلطان وحملوه على تلافي الأمر، فنهض من تازى، واجتمع إليه كافة بني مرين والجند. وعسكر على البلد الجديد، وأقام محاصرا لها، وابتنى دارا لسكناه. وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد وتفويض الأمر. وتفرد أبو علي بطائفة من النصارى المستخدمين بدولته كان قائدهم يمت إليه بالخؤولة، وضبط البلد مدة مرضه، حتى إذا أفاق، وتبين اختلال أمره بعث إلى أبيه في الصفح والرضى، وأن ينزل له عبا انتزى عليه من الأمر على أن يقطعه سجلماسة وما إليها، ويسوغه ما احتمل من المال والذخيرة من دراهم، فأجابه إلى ذلك. وانعقد بينهما سنة خمس عشرة. وخرج الأمير أبو بر بخاصته وحشمه، وعس!كر بالزيتون من ظاهر البلد. ووفى له السلطان بما اشترط، وارتحل إلى سجلماسة. ودخل السلطان إلى البلد الجديد، ونزل بقصره وأصلح شؤون ملكه، وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصورهم، وفوض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال. وأذن له في اتخاذ الوزراء

والكتاب ووضع العلامة على كتابه، وسائر ما كان لأخيه. ووفدت عليه بيعات الأمصار بالمغرب، ورجعوا إلى طاعته.

ونزل الأمير أبو علي بسجلماسة، فأقام لها ملكا، ودون الدواوين، واستلحق

واستركب، وفرض العطاء. واستخدم ظواعن العرب من المعقل، وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكورارين وتمنطيت، وغزا بلاد السوس، فافتتحها وتغلب على ضواحيها، وأثخن في إعرابها من ذوي حسان والشبانات وزكنة، حتى استقاموا على طاعته.

وبئت عبد الرحمن بن الحسن بن يذر أمير الأمصار بالسوس في تارودانت مقره، فاقتحمها عليه عنوة، وقتله واصطلم نعمته، وأباد سلطانه. وأقام لبني مرين في بلاد القبلة ملكا وسلطاناً. وانتقض على السلطان سنة عشرين، وتغلب على درعا، وسما إلى طلب مراكش، فعقد السلطان على حربه لأخيه الأمير أبي الحسن، وجعله إليه وأغزاه ونهض على أثره، فاحتفوا بمراكش، وثقفوا أطرافها، وحسموا عللها. وعقد عليها لكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم، وقفلوا بعسكرهم إلى الحضرة. ثم نهض الأمير أبو علي سنة اثنتين وعشرين بمجموعه من سجلماسة، وأغذ السير إلى مراكش، فاحتلت عساكره بها قبل أن يجتمع لكندوز أمره، فتقبّضعليه وضرب عنقه ورفعه على القناة، وملك مراكش وسائر ضواحيها. وبلغ الخبر إلى السلطان، فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد، وأزاح العلل واستوفى الاعطيات وقدم بين يديه ابنه الأمير أبا الحسن ولي عهده، والغالب على أمره في عساكره وجموعه وجاء في ساقته، وسار على هذه التعبية. ولما انتهى إلى توتو من وادي ملوية نذروا بالبيات من أبي علي وجنوده، فحذروهم وأيقظوا ليلتهم. وبيتهم بمعسكرهم ذلك، فكانت الدايرة عليهم، وفل عسكره. وارتحلوا من الغد في أثره. وسلك على جبال درن، وافترقت جنوده في أوعاره، ولحقهم من معراتها شناعات، حتى ترجل الأمير أبو علي عن فرسه، وسعى على قدميه. وخلصوا من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق، ولحق بسجلماسة، ومهد السلطان نواحي مراكش، واستعمل عليها، ورتب الحامية بها. وعقد على جباية أموال المصامدة ونواحي مراكش لموسى بن علي بن محمد الهنتاتي، فعظم عناؤه في ذلك واضطلاعه، وامتدت أيام ولايته. وارتحل السلطان إلى سجلماسة، فدافعه الأمير أبو علي بالخضوع في الصفح والرضى والعودة إلى السلم، فأجابه السلطان لما كان شغفه من حبه، فقد كان يؤثر عنه من ذلك غرائب. ورجع إلى الحضرة،

وأقام الأمير أبو علي بمكانه ذلك من القبلة، إلى أن هلك السلطان، وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نكبة منديل الكناني ومقتله:

كان أبو محمد بن محمد الكناني من علية الكتاب بدولة الموحدين، ونزع من مراكش عندما انحل نظام بني عبد المؤمن، وانفض جمعهم إلى مكناسة، فأوطنها في إيالة بني مرين. واتصل بالسلطان يعقوب بن عبد الحق، فصحبه فيمن كان يتأثر على صحابته من أعلام المغرب. وسفر عنه إلى الملوك كما ذكرنا في سفارته إلى المستنصر سنة خمس وستين. وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق، وازداد الكناني عند ابنه يوسف حظوة ومكانة، إلى أن سخطه ونكبه سنة سبع وستين. وأقصاه من يومئذ، وهلك في حال سخطته. وبقي من بعده ابنه منديل هذا في جملة السلطان أبي يعقوب متبرما بمكان عبد الله بن أبي مدين المستولي على قهرمة دار السلطان ومخالصته في خلواته غضباً لذلك، متوقعا للنكبة في أكثر أيامه مضطرمة له بالحسد جوانحه، مع ما كان عليه من القيام على حسبان الديوان. عرف فيه بسبقه، وشهد به صديقه وعدوه. ولما تغلب السلطان على ضاحية شلف وأمصاره من بلاد مغرارة، واستعمله على حسبان الجباية، وجعل إليه ديوان العسكر هنالك، وإلى نظره اعتراضهم وتمحيضهم، فنزل بمليانة مع من كان هنالك من الأمراء: مثل علي بن محمد الخيري والحسن بن علي بن أبي الطلاق العسكري، إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب ورجع أبو ثابت البلاد إلى أبي زيان وأخيه أبو حمّو ملوك بني عبد الواد. ونزل لهم عنها، فرجع إلى المغرب ولحق بالسلطان أبي ثابت، ومرّ في طريقه بأبي زيان وأخيه أبي حفو، فخف عليهما وحلا بعيونهما، واستبلغا في تكريمه، وانصرف إلى مغربه. وكان أيام معسكر السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان قد صحب أخاه أبا سعيد عثمان بن يعقوب في حال خموله، وتأكدت بينهما الخفة التي رعاها له السلطان أبو سعيد. فلما ولي المغرب مت بذلك إليه، فعرفه له واختصه وخالصه، وجعل إليه وضع علامته وحسبان جبايته، ومستخلص أحواله، والمفاوضة بذات صدره. ورفع مجلسه، وقدمه على خاصته. وكان كثير الصاغية للأمير أبي علي ابنه المتغلب على أبيه أول مرة. ولما استبد وخلع أباه انحاش منديل هذا إليه. ثم نزع عنه حين

تبين اختلال أمره. وكان الأمير أبو الحسن يحقد له ولاية أخيه أبي علي، لما كان بينهما من المنافسة. وكان كثيرا ما يوغر صدره بإيجاب حق عمر عليه، وامتهانه في خدمته. وطوى له على النث، حتى إذا انفرد بمجلس أبيه، وفصل عمر إلى

سجلماسة أحكم السعاية فيه، والآلاء في الهلكة التي صر السلطان عليها أذناً واعية، حتى تأذن الله بإهلاكه. وكان منديل هذا كثيرا ما يغضب السلطان في المحاورة والخطاب دالة عليه وكبرا، فاعتد عليه من ذلك كلمات وأحوالا، وسخطه سنة ثمان عشرة. وأذن لابنه أبي الحسن في نكبته، فاعتقله واستصفى ماله، وطوى ديوانه، وامتحنه أياما، ثم قتله بمجلسه خنقا، ويقال جوعاً، وذهب مثلاً في الغابرين. والله خير الوارثين.

الخبر عن انتقاض العزفي بسبتة، ومنازلته، ثم مصيرها إلي طاعة السلطان بعد مهلكه:

كان بنو العزفي لما تغلب عليهم الرئيس أبو سعيد، ونقلهم إلى غرناطة سنة خمس، واستقروا بها في إيالة المخلوع ثالث ملوك بني الأحمر، حتى إذا استولى السلطان أبو الربيع على سبتة سنة تسع آذنوا في الإجازة إلى المغرب، وأجازوا إلى فاس، واستقروا بها. وكان يحيى وعبد الرحمن ابنا أبي طالب من سرواتهم وكبارهم، وكانوا يغشون مجالس أهل العلم، بما كانوا عليه من انتحال الطب. وكان السلطان أبو سعيد أيام أمارة بني أبيه يجالس بالمسجد الجامع للقرويين شيخ الفتيا أبا الحسى الصغير. وكان يحيى بن أبي طالب يلازمه، فاتصل به وصارت له وسيلة يحسبها عنده فلما ولي الأمر، واستقل به، رعى لهم زمام صحابتهم، ووفى لهم مقاصدهم. وعقد ليحيى على سبتة، ورجعهم إلى مقر أمارتهم منها ومحل رياستهم، فارتحلوا إليها سنه عشر. وأقاموا دعوة السلطان أبي سعيد، والتزموا طاعته. ثم تغلب الأمير أبو علي على أمر أبيه واستبد عليه، فعقد على سبتة لأبي زكريا حبون بن أبي العلاء القرشي، وعزل يحيى بن أبي طالب عنها. واستقدمه إلى فاس، فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه أبو حاتم، واستقروا في جملة السلطان. وهلك أبو طالب بفاس خلال ذلك، حتى إذا كان من خروج الأمير أبي علي على أبيه ما قدمناه، لحق يحيى بن أبي طالب وأخوه بالسلطان نازعين من جملة الأمير أبي علي. فلما احتل بالبلد الجديد، ونازله السلطان بها، فحينئذ عقد السلطان ليحيى بن أبي طالب على سبتة، وبعثه إليها ليقيم دعوته بتلك الجهات وتمسك بابنه محمد رهنا على طاعته، فاستقل بأمارتها،

وأقام طاعة السلطان ودعوته بها وأخذ بيعته على الناس، واتصل ذلك سنين. وهلك عمه أبو حاتم هنالك بعد مرجعه معه

من المغرب. ولسنة ست عشرة انتقض على السلطان، ونبذ طاعة الأمر، ورجع إلى حال سلفه من أمر الشورى في البلد. واستقدم من الأندلس عبد الحق بن عثمان، فقدم إليه، وعقد له على الحرب ليفرق به الكلمة، ويوهن ببأسه عزائم السلطان في مطالبته. وجهز السلطان إليه العساكر من بني مرين، وعقد على حربه للوزير إبراهيم بن عيسى، فزحف إليه وحاصره. وتعلل عليهم بطلب ابنه، فبعث به السلطان إلى وزيره إبراهيم ليعطي الطاعة، فتسلمه وجاءه الخبر من عيون كانت بالعسكر أن ابنه كان في فسطاط الوزير بساحة البحر بحيث يتأتى الفرصة في أخذه، فبيت المعسكر وهجم عبد الحق بن عثمان بحشمه وذويه على فسطاط الوزير، فاحتمله إلى أبيه. وركبت العساكر للهيعة، فلم يقفوا على خبر حتى تفقد الوزير ابن العزفي. واتهموا قائدهم إبراهيم بن عيسى الوزير بممالأة العدو على ذلك، فاجتمعت مشيختهم وتقبضوا عليه، وحملوه إلى السلطان، ابتلاء للطاعة، واستنصارا في نصح السلطان، فشكر لهم وأطلق وزيره لابتلاء نصيحته. ورغب بحيى بن العزفي بعدها في رضى السلطان وولايته. ونهض السلطان سنة تسع عشرة إلى طنجة لاختبار طاعته، فعقد له على سبتة، واشترط هو على نفسه الوفاء بجباية السلطان، وأسنى هديته في كل سنة. واستمرت الحال على ذلك إلى أن هلك يحيى العزفي سنة عشرين. وقام بالأمر ابنه محمد إلى نظر ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم. وكان قائد الأساطيل بسبتة ولي النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الزنداحي إلى الأندلس، واختلف الغوغاء بسبتة، وانتهز السلطان الفرصة، فأجمع على النهوض إليها سنة ثمان وعشرين، وبادروا بإيتاء طاعتهم. وعجز محمد بن يحيى عن المناهضة وظنها محمد بن علي من نفسه، فتعرض للأمر في أوغاد من اللفيف اجتمعوا إليه. ودافعهم الملأ عن ذلك، وحملوهم على الطاعة، واقتادوا بني العزفي إلى السلطان فانقادوا. واحتل السلطان بقصبة سبتة، وثقف جهاتها ورم منثلمها وأصلح خللها. واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه في أعمالها، فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدراتي على حاميتها. وعقد لأبي القاسم بن أبي مدين على جبايتها والنظر في مبانيها، واخراج الأموال للنفقات فيها. وأسنى جوائز الملأ من مشيختها، ووفر

إقطاعاتهم وجراياتهم. وأوعز ببناء البلد المسمى أفراك أعلى سبتة، فشروعوا في بنائها سنة تسع وعشرين، وانكفأ راجعا إلى حضرته.

الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة:

كان بنو عبد المهيمن من بيوتات سبتة، ونسبهم في حضرموت. وكانوا أهل تجلة

ووقار، منتحلين للعلم. وكان أبوه محمد قاضيا بسبتة أيام أبي طالب وأبي حاتم، وكان له معهم صهر. ونشأ ابنه عبد المهيمن هذا في حجر الطب والجلالة، وقرأ صنعة العربية على الأستاذ الغافقي وحذق فيها. ولما نزلت بهم نكبة الرئيس أبي سعيد سنة خمس، واحتملوا إلى غرناطة، احتمل فيهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه. وقرأ عبد المهيمن بغرناطة على مشيختها، وازداد علما وبصرا باللسان والحديث. واستكتب بدار السلطان ! حمد المخلوع، واختص بوزيره المتغلب على دولته محمد بن عبد الحكم الرندي فيمن اختص به من رؤسائهم بني العزفي، ثم رجع بعد نكبة ابن الحكم إلى سبتة، وكتب عن قائدها يحيى بن مسلمة مدة. ولما استخلص بنو مرين سبتة سنة تسع اقتصر عن الكتابة، وأقام متقبلا مذاهب سلفه في انتحال العلم ولزوم المروءة. ولما استولى السلطان أبو سعيد على المغرب، واستقل بولاية العهد والتغلب على الأمر ابنه أبو علي، وكان محبا للعلم، مولعا بأهله منتحلا لفنونه. وكانت دولته خلوا من صناعة الترسيل منذ عهد الموحّدين للبداوة الموجدة في دولتهم. وحصل للأمير أبي علي بعض البصر بالبلاغة واللسان، تفطن به لشأن ذلك، وخلو دولتهم من الكتاب المرسمين، وأنهم إنما يحكمون الخط الذي حذقوا فيه. ورأى فيه الأصابع تشير إلى عبد المهيمن في رياسة تلك الصنائع، فولع به. وكان كثير الوفادة مع أهل بلده أوقات وفادتهم، فيختصه الأمير أبو علي بمزيد من بره وكرامته، ويرفع مجلسه، ويخطبه للكتابة، وهو يمتنع عليه. حتى إذا مضى عزيمته في ذلك أوعز إلى عامله بسبتة سنة اثنتي عشرة أن يشخصه إلى بابه، فقلده كتابته وعلامته. حتى إذا خرج أبو علي على أبيه تحيز عبد المهيمن إلى الأمير أبي الحسن، فلما صولح أبو علي على النزول عن البلد الجديد، وكتب شروطه على السلطان، كان من جملتها كون عبد المهيمن معه، وأمضى السلطان له ذلك. وأنف الأمير أبو الحسن منها، فأقسم ليقتلنه إن عمل بذلك، فرفع عبد المهيمن أمره إلى السلطان ولاذ به وألقى نفسه

بين يديه، فرق لشكواه وأمره باعتزالهما معا والرجوع إلى خدمته. وأنزله بمعسكره، وقام على ذلك. واختصه منديل الكناني كبير الدولة وزعيم الخاصة، وأنكحه ابنته. ولما نكب منديل الكناني، جعل السلطان علامته لأبي

القاسم بن أبي مدين، وكان غفلا خلواً من الأدوات، فكان يرجع إلى عبد المهيمن في قراءة الكتب وإصلاحها وإنشائها، حتى عرف السلطان له ذلك، فاقتصر عليه، وجعل وضع العلامة إليه سنة ثمان عشرة، فاضطلع بها. ورسخت قدمه في مجلس السلطان، وارتفع صيته. واستمر على ذلك أيام السلطان وابنه أبي الحسن من بعده، إلى أن هلك بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين. والله خير الوارثين.

الخبر عن صريخ أهل الأندلس بالسلطان، ومهلك بطرة علي غرناطة:

كان الطاغية شانجة بن أدفونش قد تكالب على أهل الأندلس من بعد أبيه هراندة الهالك سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة. ومنذ غلب على طريف، وشغل السلطان يوسف بن يعقوب بعدوه بني يغمراسن، ثم تشاغل حفدته من بعده بأمرهم وتقاصرت مددهم، وهلك شانجة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، وولي ابنه هراندة ونازل الجزيرة الخضراء فرضة الجهاد لبني مرين حولا كاملا. ونازلت أساطيله جبل الفتح، واشتد الحصار على المسلمين. وراسل هراندة بن أدفونش صاحب برشلونة أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم ويأخذ بحجزتهم، فنازل المرية، وحاصرها الحصار المشهور سنة تسع، ونصب عليها الآلات. وكان منها برج العود المشهور، طال الأسوار بمقدار ثلاث قامات، وتحيل المسلمون في إحراقه، فأحرق. وحفر العدو تحت الأرض مسرباً عريض المسافة مقدار ما يسير فيه عشرون راكبا. وتفطن لهم المسلمون وحفروا قبالتهم مثاله، إلى أن نفذ بعضهم لبعض، واقتتلوا نحت الأرض. وعقد ابن الأحمر لعثمان بن أبي العلاء زعيم الأعياص على عسكر بعثه مددا لأهل المرئة، فلقيه جمع من النصارى كان الطاغية بعثهم لحصار مرشانة، فهزمهم عثمان واستلحمهم. ونزل قريبا من معسكر الطاغية، وألح بمغاداتهم ومراوحتهم إلى أن ركبوا إليه في السلم وأفرج عن البلد. وتغلب الطاغية خلال ذلك على جبل الفتح، وأقامت عساكره على شمانة واصطبونة. وزحف العبّاس بن رحو بن عبد الله، وعثمان بن أبي العلاء في العساكر لإغاثة البلدين، فأوقع عثمان بمعسكر اصطبونة، وقتل قائدهم ألفنس بترس في نحو ثلاثة آلاف فارس واستلحموا. ثم زحف عثمان إلى إعانة العبّاس، وكان دخل عوجين، فحاصرته جموع

النصرانية به، فانفضوا لخبر زحفه. وبلغ الخبر إلى الطاغية بمكانه من ظاهر الجزيرة بفتك عثمان في قومه، فسرح جموع النصرانية إليه

ولقيهم عثمان، فأوقع بهم وقتل زعماءهم. وارتحل الطاغية يريد لقاءهم، فخالفه أهل البلد إلى معسكره وانتهبوا مخلفاته وفساطيطه. وأتيحت للمسلمين عليهم الكرة وامتلأت الأيدي من غنائمهم وأسراهم. ثم هلك الطاغية إثر هذه الهزيمة سنة اثنتي عشرة، وهو هراندة بن شانجة، وولي من بعده ابنه الهنشة طفلا صغيرا، جعلوه إلى نظر عمه دون بطرة بن شانجة، وزعيم النصرانية جوان، فكفلاه. واستقام أمرهم على ذلك. وشغل السلطان أبو، سعيد ملك المغرب بشأن ابنه وخروجه، فاهتبل النصرانية الغرة في الأندلس، وزحفوا إلى غرناطة سنة ثمان عشرة، وأناخوا عليها بمعسكرهم وأممهم. وبعث أهل الأندلس صريخهم إلى السلطان واعتذر لهم بمكان أبي العلاء من دولتهم، ومحله من رياستهم، وأنه مرشح للأمر في قومه بني مرين، يخشى معه من تفريق الكلمة. وشرط عليهم أن يدفعوه إليه برمته، حتى يتم أمم الجهاد، ويعيده إليهم حوطة على المسلمين. ولم يمكنهم ذلك لمكان عثمان بن أبي العلاء بصرامته وعصابته من قومه، فأخفق سعيهم واستلحموا. وأحاطت امم النصرانية بغرناطة، وطمعوا في التهامها. ثم إن الله نفس مخنمهم، ودافع بيد قدرته عنهم، وكيف لعثمان بن أبي العلاء وعصبته واقعة فيهم كانت من أغرب الوقائع. صمدوا إلى موقف الطاغية بجملتهم، وكانوا زهاء مايتين أو أكثر. وصابروهم حتى خالطوهم في مراكزهم، فصرعوا بطرة وجوان، وولوهم الأدبار. واعترضتهم من ورائهم مسارب الماء للشرب من شنيل، فتطارحوا فيها. وهلك كثيرهم، واكتسحت أموالهم، وأعز الله دينه، وأهلك عدوه. ونصب رأس بطرة بسور البلد عبرة لمن يتذكر. وهو باق هنالك لهذا العهد.

الخبر عن صهر الموحل ين والحركة إلى تلمسان علي أثره وما تخلل ذلك من الأحداث:

ولما انفرج الحصار عن ولد عثمان بن يغمراسن ملوك بني عبد الواد سنة ست، وتجافى أبو ثابت عن بلادهم، ونزل لهم عما ملكه بنو مرين منها بسيوفهم. واستقل أبو حمّو بملك بني عبد الواد على رأس الحول منها، صرف نظره واهتمامه إلى بلاد الشرق، فتغلب على بلاد مغراوة، ثم على بني توجين. ومحا أثر سلطانهم. ولحق أعياصهم من ولد عبد القوي بن

عطية، وولد منديل بن عبد الرحمن بالموحّدين آل أبي حفص مع من تبعهم من رؤوس قبائلهم، وصاروا في جملة عساكرهم. واستلحق مولانا السلطان أبو

يحيى وحاحبه يعقوب بن غمر منهم جندا كثيفا أثبتهم في الديوان، وغالب بهم الخوارج والمنازعين للدولة. ثم زحف أبو حمّو إلى الجزائر وغلب ابن علان عليها، ونقله إلى تلمسان ووفى له. وفر بنو منصور أمراء مليكش أهل بسيط متيجة من صنهاجة، فلحقوا بالموحّدين واصطنعوهم. وتملك قاصية المغرب الأوسط، وتاخم عمل الموحّدين بعمله. ثم تغلب على تدلس سنة اثنتي عشرة، وتجنى على مولانا السلطان أبي يحيى بما وقع بينهم من المراسلة أيام انتزاء ابن خلوف ببجاية كما ذكرناه في أخباره، يحث عزائمه لمنازلتها. وطلب بلاد الموحدين، وأوطأ عساكره أرضهم، ونازل أمصارهم بجاية وقسنطينة. واختص بجاية بشوكته من ذلك. وجهز العساكر مع مسعود ابن عمه أبي عامر إبراهيم لمضايقتها. وكان خلال ذلك ما قدمناه من خروج محمد بن يوسف بن يغمراسن عليه وقيام بني توجين بأمره، واقتطاع جبل وانشريش من عمالة ملكه.

واستمرت الحال على ذلك حتى هلك السلطان أبو حمّو سنة ثمان عشرة. وقام بأمرهم أبو تاشفين عبد الرحمن، فصنع له في ابن عمه محمد بن يوسف. ونهض إليه بعساكر بني عبد الواد، حتى نازله بمعتصمه من جبل وانشريش. وداخله عمر بن عثمان كبير بني تيغرين في المكربة، فتقبّضعليه وقتله سنة تسع عشرة. وارتحل إلى بجاية، حتى احتل بساحتها. وامتنع عليه الحاجب ابن غمر، فأقام يوما أو بعضه. ثم انكفأ راجعا الى تلمسان، وردد البعوث إلى أوطان بجاية، وابتنى الحصون لتجمر الكتائب، فابتنى بوادي بجاية من أعلاه حصن بكر ثم حصن تيمزيزدكت يليه. ثم اختط بنيكلات على مرحلة منها بلدا سماه تيمزيزدكت على اسم المعقل الذي كان لأوليهم بالجبل قبالة وجدة. وامتنع يغمراسن به على السعيد كما قدمناه، فاختط بلد تيكلات هذه، وشحنها بالأقوات والعساكر، وصيرها ثغرا لملكه، وأنزل بها جنده. وعقد عليها لموسى بن علي العزفي كبير دولته ودولة ابنه. واستحثه أمراء الكعوب من بني سليم لملك أفريقية حين مغاضبتهم لمولانا السلطان أبي يحيى، فأغرس معهم جيوش زناتة، وعقد على تونس للأعياص من آل أبي حفص: الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي يحيى اللحياني، وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عمران، وأبي إسحاق بن أبي يحيى الشهيد، مرة بعد

أخرى كما ذكرناه في أخبارهم جميعا. وكانت حروبهم سجالا إلى، أن كان بين جيوش زنانة الموحّدين الزحف المشهور بالرياش من نواحي مرماجنة سنة تسع وعشرين، زحفت

فيه إلى السلطان أبي يحيى عساكر زناتة مع حمزة بن عمر أمير بني كعب، ومن إليه من البدو، وعليهم يحيى بن موسى من صنائع دولة آل يغمراسن. وقد نصبوا للملك محمد بن أبي عمران بن أبي حفص، ومعهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني عبد الحق في بنيه وذويه. وكان نزع إليهم من عند الموحّدين كما ذكرناه، فاختل مصاف مولانا السلطان أبي يحيى، وانهزم واستولوا على فساطيطه بما فيها من الذخيرة والحرم، وانتهبوا معسكره. وتقبضوا على ولديه المولیين أحمد وعمر، وأشخصوهما إلى تلمسان. واصيب السلطان في بدنه بجراحات أوهنته، وخلص إلى بونة ناجيا برمقه. وركب السفين منها إلى بجاية، فأقام بها يدامل جراحه. واستولت زناتة على تونس. ودخلها محمد بن أبي عمران، سموه باسم السلطان ومقادته في يد يحيى بن موسى أمير زناتة. واعتزم مولانا السلطان أبو يحيى على الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد بنفسه صريخا على آل يغمراسن. وأشار حاجبه محمد بن سيد الناس بإنفاذ ابنه الأمير أبي زكريا صاحب الثغر استنكافا له عن مثلها، فتقبل إشارته، وأركب ابنه البحر لذلك. وبعث معه أبا محمد عبد الله بن تافراكين من مشيخة الموحدين، نافضا أمامه طرق المقاصد والمجاورات، ونزلوا بغساسة من سواحل المغرب. وقدموا على السلطان أبي سعيد بحضرته، وأبلغوه صريخ مولانا السلطان أبي يحيى، فاهتز لذلك هو وابنه الأمير أبو الحسن، وقال للأمير في ذلك المحفل: يا بني لقد أكبر قومنا قصدك وموصلك، ووالله لأبذلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي، ولأسيرن بعساكري إلى تلمسان فأنزلها مع أبيك، فانصرفوا إلى منازلهم مسرورين. وكان فيما شرطه عليهم السلطان أبو سعيد مسير مولانا السلطان أبي يحيى بعسكره إلى منازلة تلمسان معه فقبلوا. ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين. ولما انتهى إلى وادي ملوية وعسكر بصبرة، جاءهم الخبر اليقين باستيلاء السلطان أبي يحيى على حضرة تونس، وإجهاضه زناتة وسلطانهم عنها. واستدعى مولانا السلطان الأمير أبا زكريا يحيى ابنه ووزيره أبا محمد عبد الله بر تافراكين، وأمرهم بالانصراف إلى صاحبهم وأسنى جوائزهم وحباءهم، وركبوا أساطيلهم عن غساسة. وأرسل معهم للخطبة والصهر إبراهيم بن أبي حاتم العزفي،

والقاضى بحضرته أبا عبد الله بن عبد الرزاق، وانكفأ على عقبه راجعا إلى حضرته. ولما انعقد الصهر بين الأمير أبي الحسن والسلطان أبي يحيى في ابنته شقيقة الأمير يحيى، زفها

إليهم في أساطيله مع مشيخة من الموحدين: كبيرهم أبو القاسم بن عتو، ووصلوا بها إلى مرسى غساسة سنة إحدى وثلاثين بين يدي مهلك السلطان أبي سعيد، فقاموا بها على إقدام البر والتكرمة. وبعثوا الظهر إلى غساسة لركوبها وحمل أثقالها، وصيغت حكمات الذهب والفضة وقدت ولايا الحرير المغشاة بالذهب، واحتفل لوفادها وأعراسها غاية الاحتفال بما لم يسمع مثله في دولتهم. وتولت قهارمة الدار من عجز من النساء ما يتولاه مثلهم من ذلك الصنيع، وتحدث الناس به. وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها. والبقاء لته وحده.

الخبر عن مهلك السلطان أبي سعيد، عفا الله عنه، وولاية ابنه السلطان أبي الحسن، وما تخلل ذلك من الأحداث:

وكان السلطان لما بلغه وصول العروس، بنت مولانا السلطان أبي يحيى سنة إحدى وثلاثين، واهتزت الدولة لقدومها عليهم تعظيما لحق أبيها وقومها واحتفاء بها، ارتحل السلطان أبو سعيد إلى تازى ليشارف أحوالها بنفسه استبلاغا في تكريمها وسرورا بعروس ابنه. واعتل هنالك ومرض حتى أشفى على الهلاك، وارتحل به ولي العهد الأمير أبو الحسن إلى الحضرة، وحمله في فراشه على أكتاف الحاشية والخول، حتى نزل بسبو، ثم أدخله كذلك ليلا إلى داره. وأدركته المنية في طريقه، فقضى رحمة الله عليه، فوضعوه بمكانه من البيت واستدعى الصالحين لمواراته فووري لشهر ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين. والبقاء لله وحده، وكل شيء هالك إلا وجهه.

ولما هلك السلطان أبو سعيد اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة إلى

ولى عهده الأمير أبي الحسن، وعقدوا له على أنفسهم، وأتوه بيعتهم. وأمر بنقل معسكره من سبو وأضرب بالزيتون من ساحة فاس. ولما ووري السلطان خرج إلى معسكره في النعبية، واجتمع إليه الناس على طبقاتهم لأداء البيعة، وجلس بفسطاطه. وتولى أخذ البيعة له يومئذ على الناس المزوار عبو بن قاسم عريف الوزعة والمتصرفين، وحاجب الباب القديم الولاية في ذلك بدارهم منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب. وزفت إليه ليلتئذ عروسه بنت مولانا السلطان أبي يحيى، فأعرس بها بمكانه من

المعسكر، وأجمع امره على الانتقام لأبيها من عدوه. وبدأ باستكشاف حال أخيه أبي علي، وكان السلطان

أبوهما يستوصيه به لما كان له بقلبه من العلاقة. وكان ولي العهد هذا يؤثر لرضاه جهده، فاعتزم على الحركة إلى سجلماسة لمشارفة أحواله. والله تعالى أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي الحسن إلى سجلماسة، وانكفائه عنها إلي تلمسان بعد الصلح مع أخيه والاتفاق:

لما هلك السلطان أبو سعيد، وكملت بيعة السلطان أبي الحسن، وكان كثيرا ما يستوصيه بأخيه أبي علي لما كان كلفا به شفيقا عليه، فأراد مشارفة أحواله قبل النهوض إلى تلمسان، فارتحل من معسكره بالزيتون قاصدا سجلماسة. وتلقته في طريقه وفود الأمير أبي علي أخيه مؤديا حقه، موجبا مبرته، مهنيا بما أتاه الله من ملك، متجافيا عن المنازعة فيه، قانعا من تراث أبيه بما حصل في يده، طالبسا العقد له بذلك من أخيه. فأجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل، وعقد له على سجلماسة وما إليها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيهما. وشهد الملأ من القبيل وسائر زناتة والعرب، وانكفأ راجعا إلى تلمسان بإجابة صريخ الموحدين. وأغذ السير إليها. ولما انتهى إلى تلمسان، نكب عنها متجاوزا إلى ناحية الشرق، لوعد مولانا السلطان أبي يحيى بالنزول معه إلى تلمسان، كما كان عليه وفاقهم ومشارطهم مع الأمير أبي زكريا الرسول إليهم، فاحتل بتاسالة في شعبان من سنة اثنتين وثلاثين. وتلوم بها، وأوعز إلى أساطيله بمراسي المغرب، فأغزاها إلى سواحل تلمسان. وجهز لمولانا السلطان أبي يحيى مددا من عسكره أركبهم الأساطيل من سواحل وهران، وعقد عليهم لمحمد البطوي من صنائع دولته. ونزلوا بجاية، ووافوا بها مولانا السلطان أبا يحيى، فصاروا في جملته. ونهضوا معه إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد، المجمرة بها الكتائب لحصار بجاية، وبها يومئذ ابن هزرع من قوادهم. وأجفل من كان بها من العساكر قبل وصوله إليهم، فلحقوا بآخر عملهم من المغرب الأوسط. وأناخ مولانا السلطان أبو يحيى عليها بعساكره من الموحّدين والعرب والبربر وسائر الحشود، فخربوا عمرانها وانتهبوا ما كان من الأقوات مختزنا بها، وكان بحرا لا يدرك ساحله، لما كان السلطان أبو حمّو من لدن اختطها قد أوعز إلى العمال بسائر البلاد الشرقية، منذ عمل البطحاء، أن ينقلوا أعشار

الحبوب إليها وسائر الأقوات. وتقبل ابنه السلطان أبو تاشفين مذهبه في ذلك. ولم يزل دأبهم إلى حين حلت بها هذه

الفاقرة، فانتهب الناس من تلك الأقوات ما لا كفاء له. وأصرعوا مختطها بالأرض فنسفوها نسفا، وذروها قاعا صفصفا. والسلطان أبو الحسن خلال ذلك متشرف لأحوالهم، منتظر قدوم مولانا السلطان أبي يحيى بعساكره عليه لمنازلة تلمسان، حتى وافاه الخبر بانتقاض أخيه كما نذكره، فانكفأ راجعا. واتصل الخبر بمولانا السلطان أبي بحيى، فقفل إلى حضرته. وحمل البطوي معه وأسنى جائزته وجوائز عسكره، فانصرفوا إلى السلطان مرسلهم في سفنهم. وانقبض عنان السلطان أبي تاشفين عن غزو البلاد الموحّدين إلى أن انقرض أمره. والبقاء لته وحده.

الخبر عن انتقاض أبي علي ونهوض السلطان أبي الحسن إليه وظفره به:

لما توغل السلطان أبو الحسن في غزاة تلمسان، وتجاوزها إلى تاسالة لموعد مولانا السلطان أبي يحيى، دس أبو تاشفين إلى الأمير أبي علي في اتصال اليد والاتفاق على السلطان أبي الحسن، وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه متى هم به، وانعقد بينهما على ذلك. وانتقض الأمير أبو علي على أخيه السلطان أبي الحسن، ونهض من سجلماسة إلى درعة، فقتل بها عامل السلطان، واستعمل عليها من ذويه، وسرح العسكر إلى بلاد مراكش. واتصل الخبر بالسلطان، وهو بمعسكره بتاسالة، فأحفظه شأنه، وأجمع على الانتقام منه، فانكفأ راجعا إلى الحضرة. وأنزل بثغر تاوريرت تخم عمله عسكرا، وعقد عليه لابنه تاشفين، وجعله إلى نظر وزيره منديل بن حمامة بن تيربيغين وأغذ السير إلى سجلماسة، فنزل عليها وأحاطت عس!اكره بها، وأخذ بمخنقها. وحشد الفعلة والصناع لعمل الآلات لحصارها والبناء بساحتها. وأقام يغاديها القتال ويراوحها حولا كريتاً. ونهض أبو تاشفين في عساكره وقومه إلى ثغر المغرب ليوطئه عساكره، وشيث في نواحيه، ويجاذب السلطان عن مكانه من حصاره. ولما انتهى إلى تاوريرت، برز إليه ابن السلطان في وزرائه وعساكره، وزحفوا إليه في التعبئة، فاحتل مصافه، وانهزم ولم يلق أحدا، وعاد إلى منحجزه. وبادر إلى إمداد الأمير أبي علي بعسكره، فعقد على حصة من جنوده وبعث بهم إليه، فتسربوا إلى البلد زرافات ووحدانا، حتى استكملوا عنده. وطاولهم السلطان الحصار، وأنزل

بهم أنواع الحرب والنكال، حتى نغلب عليهم، واقتحم البلد عنوة، وتقبض على الأمير أبي علي عند باب قصره. وسيقَ